

فهرس

القسم الأول : الدراسات الأدبية واللغوية

- صفحة
- قيم جديدة للأدب العربي : المرثية الجاهلية ، دراسة نقدية
للدكتورة عائشة عبد الرحمن رئيسة قسم اللغات بالكلية ١
- في تاريخ النحو
للدكتور عبد الحميد سند الجندى الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية ٢٧
- الشعر الحر ، نشأته وخصائصه
للدكتور ماهر حسن فهمى المدرس بقسم اللغة العربية ٤٣

القسم الثاني : دراسات في التربية وعلم النفس

- العلاقات الانسانية في تربية النشء
للاستاذة فتحية سليمان عميدة الكلية ورئيسة قسم التربية وعلم النفس ٥٩
- مجالات الصحة النفسية بالمدرسة
للدكتورة سميرة فهمى الاستاذة المساعدة بقسم التربية وعلم النفس ٧٩
- مفهوم النشاط في التربية الحديثة
للدكتور محمد جمال صقر الاستاذ المساعد بقسم التربية وعلم النفس ١١٢

القسم الثالث : الدراسات التاريخية

- علاقة الصين بديار الاسلام
للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف الاستاذة المساعدة بقسم التاريخ ١٢٧
- الجمهوريات الافريقية المنتمة للمجموعة الفرنسية
للدكتور صلاح العقاد المدرس بقسم التاريخ ١٧١
- المسجد في فجر الاسلام
للدكتور على حسنى الغربوطى المدرس بقسم التاريخ ١٨٩

100

100

100

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

وهذا هو العدد الثالث من حولية الكلية نقدمه - في تواضع - الى زملاء ، آمين أن يجدوا فيه قرى طيباً لعقولهم ونفوسهم ، وأن يدركوا أننا نخطو حثيثاً - على قدر طاقتنا - في ميدان الثقافة والعلم ، واشاعتها بين الناس جميعاً .

وقد أصدرناه على غرار سابقه من حيث التنظيم والتبويب ، ولكنه أرحب أفقا وأغرز مادة ، وفيه وثبة موفقة خليقة بالذكر ... هي احتواؤه على ثلاثة أبحاث علمية باللغة الانجليزية .

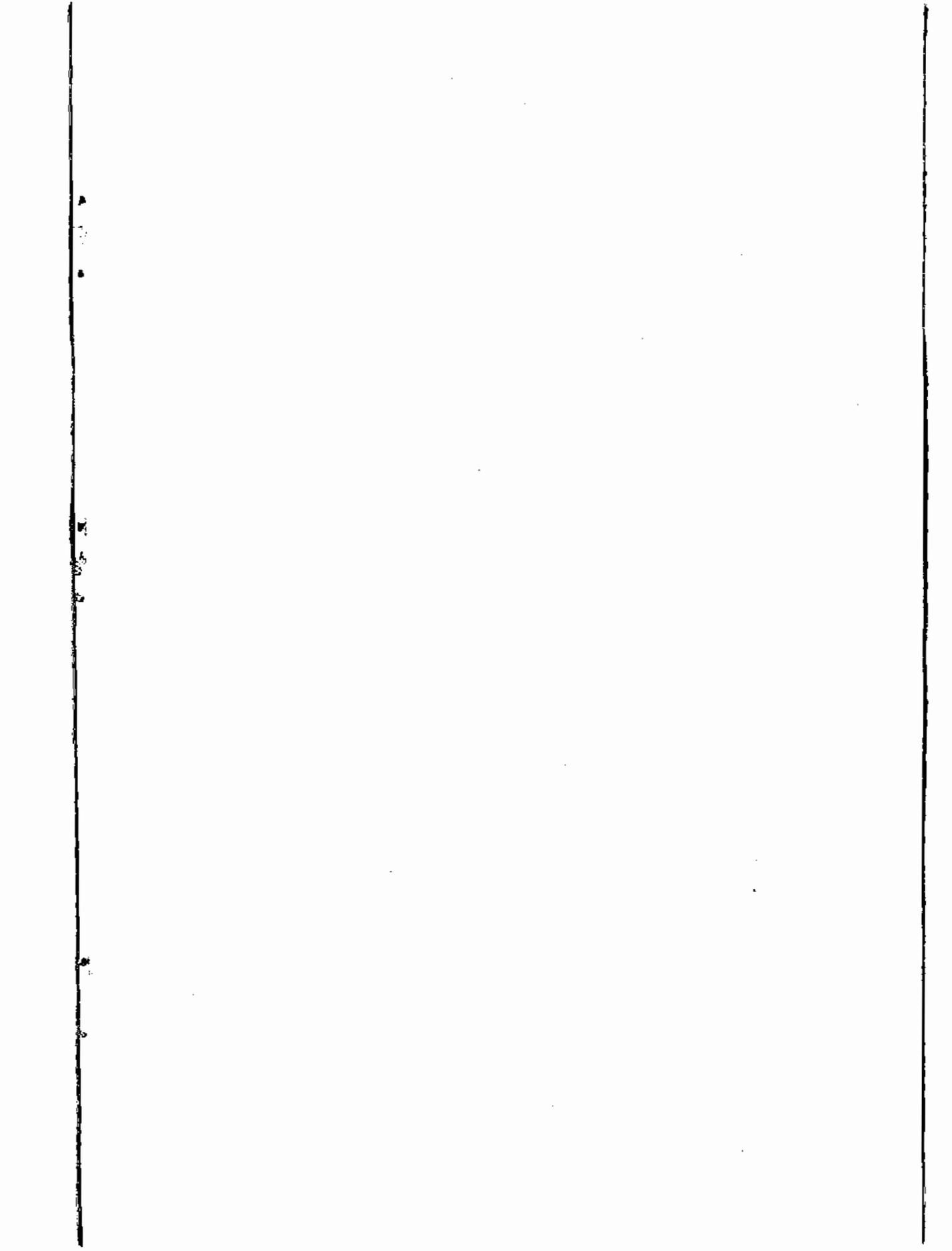
وإذا كان لنا أن نرد الفضل الى ذويه ، فاننا لنرى لزاما علينا أن نرجى الى السيدة الفاضلة الأستاذة فتحية سليمان عميدة الكلية أعمق الشكر وأبلغ التقدير على ما قدمته لنا من توجيهات رشيدة ، وما بذلته من معونة صادقة في تدليل المقبات التي كانت تكتئد سبيلنا .

وانا لترجو - ملحين في الرجاء - ألا يضمن علينا السادة الزملاء بإرشاداتهم القيمة ، وأن يمدونا - مشكورين - بثمار قرائحهم ونتاج عقولهم في مختلف نواحي المعرفة في الأعداد المقبلة ، حتى تكون أوفر حظا من الخصب والكمال .

والله نسال أن يوفقنا لخدمة الوطن والعلم ، وأن يهبىء لنا من أمرنا رشداً .

رئيس التحرير

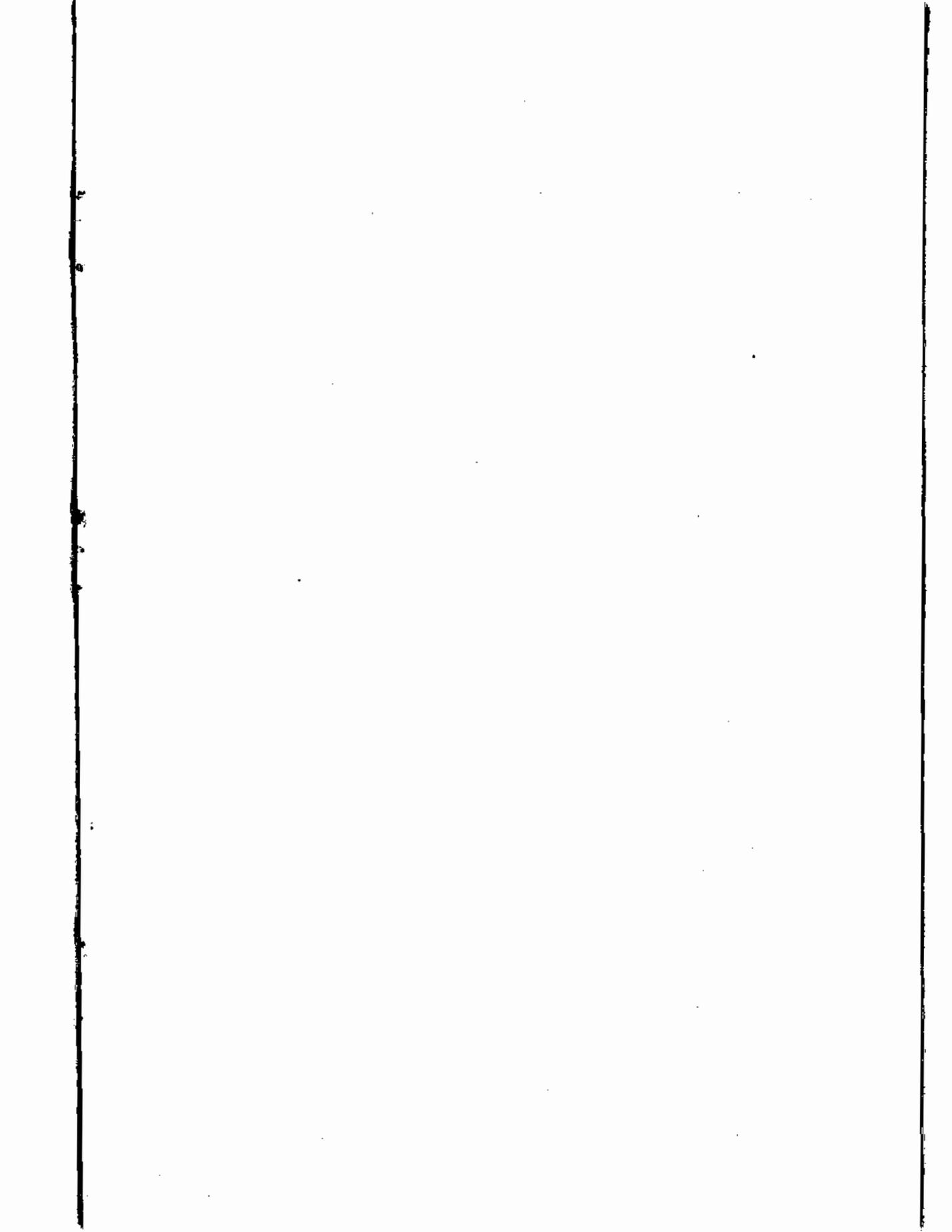
الدكتور ع . الجندي



القسم الأول :

الدراسات الأدبية واللغوية

- ١ - قيم جديدة للأدب العربي .
- ٢ - في تاريخ النحو .
- ٣ - الشعر الحر ، نشأته وخصائصه .



المرثية الجاهلية دراسة نقدية

للدكتورة عائشة عبد الرحمن

رئيسة قسم اللغات

(١)

محاولة ومنهج

هذا المقال فصل من محاولة أشتغل بها في الكلية منذ سنين ، وأريد بها أن نستخلص لأدبنا العربي قيما جديدة تابعة من تراثنا الأصيل ، دون التزام بالقيم والأحكام التي ذهب إليها نقاد سلفوا ، نظروا في هذا التراث بذوق عصرهم ، وحكموا عليه بعقلية زمانهم ، وقوموه بموازين بيئاتهم ومجتمعهم ، ثم تركوا أحكامهم وقيمهم للعصور من بعدهم ، فتناقلها الدارسون منا جيلا بعد جيل ، وصار لها من حرمة القدم ، وطول العمر ، وسلطان الالف ، ما أضفى عليها مهابة ترد عنها محاولات التجديد ، وتحميها ممن يجروؤون على معاودة النظر فيها بعقلية متحررة وذوق حديث .

ونقطة الانطلاق في هذه المحاولة ، هي التفرقة بين تراثنا الأدبي ، وبين أحكام مؤرخيه وآراء ناقديه . نقصد بالتراث : النصوص الأدبية التي قاومت عوادي الزمن ووصلت الى أيدينا ، وهي مرجعنا الأول : إليها نحتكم ، ومنها نستخلص القيم ، وبها نفصل فيما لعله يشتجر من خلاف بيننا وبين النقاد القدامى ، وعليها نعرض قيمهم وأحكامهم فنقبل منها ما تقبله ، ونرفض ما تأباه .

ولن نشغل هنا بما ثار من شك حول هذا التراث ، مادة درسنا . فهذه قضية لم تعد في رأينا ذات موضوع ، ونحن نعرف أن عملية الرواية للشعر العربي ،

قد خضعت في القرنين الثاني والثالث لمنهج دقيق من التحرى والضبط والتنحيص ، على أيدي خبراء بالشعر ثقات ، لم يفقهم زيف الوضاع ، ولم تجز عليهم حيل الرواة الذين أرادوا أن يدخلوا على الشعر ما ليس منه ، استكثارا من البضاعة الرائجة المطلوبة ، أو استجابة لهوى من عصبية سياسية أو مذهبية أو طائفية (١) .

وقد عاجلت هذه القضية في كتابي عن «الخنساء» (٢) ولا أريد أن أعود فأعرض لها هنا ، الا أن أقول : ان الشعر المنحول الذي جاز على أمثال المفضل الضبي وابن سلام والأصمعي وأبي زيد القرشي وأبي عمرو بن العلاء ، وأمثالهم من علماء الشعر الأقدمين ، هذا الشعر ، لا ينبغي لنا أن نرفضه بدعوى انتحاله ، وقد فصلتنا عن أصحابه وبيئاته أبعاد وآماد ، وأعوزتنا الخبرة التي كانت لأوثك العلماء القدامى ، حيث العهد بالجاهلية قريب نسبيا ، وحيث الحاجة الى شعرها لصون لسان العربية - لغة القرآن الكريم - من غزو الشعوبية الضارية ، قد أضفى على عملية الرواية في مراحلها الأولى ، حرمة تصونها قدر المستطاع من عبث الأهواء ومنحولات الرواة ، فلم يفلت من هذا المنحول الا الذي بلغ من مهارة التقليد للأصل ما جعله كأنه هو ، وهذا ملحوظ سبق اليه « ابن سلام » منذ اثني عشر قرنا (٣) .

لا بأس علينا اذن في الاشتغال بذلك التراث ، مطمئنين الى أن المنحول منه ، يحمل سمات الشعر القديم وخصائصه الفنية .

ولا تناقض هنا بين اطمئناننا لما اعتمده علماء الشعر الأقدمون من تراث العربية الأدبي ، وبين عدم التزامنا بما لهم فيه من آراء وأحكام ومقاييس نقدية . فهؤلاء الخبراء حجة في المادة الأدبية من نصوص وأخبار ، وهم هم الذين وعوا تراثنا الأدبي وجمعوه ودونوه . أما اذا جاوزنا النص الأدبي والخبر التاريخي ، مما هو مادة الدرس ، الى التدوق والحكم والتقدير والتقويم ، فان الموقف يختلف ، لأن مرجعه هنا ذوق العصر وشخصية الناقد وعقلية البيئة ومزاجها .

ونعرف أن التأليف في دراسة الشعر ونقده نشط حوالى منتصف القرن الثاني للهجرة ، في ظل نظم سياسية واجتماعية غير تلك التي كانت للعرب

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٢١ ، ٤٠ طبعة الذخائر .

(٢) بنت الشاطيء : الخنساء ص ٨ : ١١ ط دار المعارف ١٩٥٧ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٤٠ ط الذخائر .

في الجاهلية وصدر الاسلام . وكان مركز الحركة - أول ما كان - في بغداد عاصمة العباسيين ، التي كانت تصب فيها روافد وتيارات وافدة من شرق وغرب ، مؤثرة في مزاجها العام وذوقها الأدبي ، بمؤثرات طارئة ، منها الغريب الدخيل الذي حملته ، ومكنت له من المجتمع الاسلامي ، شعوبية غازية .

ومن هنا كان التزامنا بالتراث الأدبي الذي تصدى رجال العربية بحركة الجمع والتدوين لحمايته وصونه في مهب الاعصار الشعبي .

ومن هنا أيضا ، كان ترددنا في الالتزام بقيم وأحكام وآراء لهؤلاء النقاد أنفسهم ، لأنها صدى مجتمع ، وذوق عصر ، ومزاج بيئة .

وأنتقل بعد هذه الاشارة المنهجية، الى موضوع المراثية الجاهلية ، فأقول بادىء ذي بدء ان ما أقدمه هنا لا يعدو الخطوط الرئيسية لمنهج البحث ومعالم السير فيه، أما الوفاء به فلا سبيل اليه هنا ، لضيق المجال من ناحية ، ولأن المحاولة لا يزال يعوزها استكمال الجهد الاحصائي لمراثى الجاهلية ، واستقراء نصوصها في دقة وأناة .

والمحاولة هنا تقوم على :

١ - جمع مراثى العرب في الجاهلية من مصادرها الأولى ، وترتيبها زمنيا على قدر ما تسمح الوسائل المعينة على هذا الترتيب .

وسنضيف اليها غير قليل من مراثى فترة الخضرمة ، التي نرى فيها امتدادا فنيا للعصر الجاهلي ، وبخاصة عند شعرائها الذين شبوا في الجاهلية وأمضوا فيها مرحلة التأثر والتوجيه ، ثم أدركوا الاسلام بعد أن رسخت فيهم تقاليد فنية وجهت شعرهم .

٢ - تذوق هذه النصوص ، لتمييز سماتها الاصلية وخصائصها العامة .

٣ - النظر في أحكام النقاد ، الخاصة بالرثاء ، ثم عرض هذه الأحكام على المراثية العربية لنرى ما تقبله منها وما تأباه .

٤ - رصد هذه النتائج ، لتأخذ مكانها في البحث العام عن قيم جديدة لأدبنا العربي .

الرثاء في ديوان الشعر الجاهلي

الرثاء قديم في الشعر الجاهلي ، وهو قديم كذلك في الفن القولي للانسانية بوجه عام ، ولسنا بحاجة الى أن نستقرئ التراث الأدبي لمختلف اللغات ، لكي نطمئن الى أن الرثاء فن مشترك بينها وقديم فيها ، بل يكفي أن نقول ان الانسان قد عرف الموت منذ كان ، وكابد محنة فراق الأهل والأحباب ، وما كان ليقف أمام هذه المحنة المحتومة جامدا لا يحس أخرس لا يعبر ، وإنما تختلف وسائل التعبير ، فتكون بالحركة والصيحة والبكاء ، وتكون بالفن عند الانسان الراقى ، يعبر عن احساسه نحو الموت ، ويترجم عن شعوره بالمصاب ، ويصور عجزه أمام هذا القضاء الرهيب المحتوم ، ويرسم لوعته وشجنه ، لفراق عزيز حبيب .

واذ كان فن القول هو فن العرب الأوحده فيما نعرف ، والى أن تثبت الكشوف والحفريات غير هذا الذى نعرف ، فمن الطبيعى أن نرى ديوان الشعر الجاهلي غنيا بالرثاء ، لأن الشعر قد كان الوسيلة الوحيدة التى يعبر بها العربى عن وجدانه ويعنى شجوه وشجنه .

ونقدر هنا أننا ندرس أدبا جاهليا ، قبل أن يخرج العرب من جزيرتهم على النطاق الواسع الذى حدث بعد الفتوح الاسلامية الكبرى ، وقبل أن يقوى اتصالهم بحضارات وثقافات أجنبية ، الى المدى الذى عرفناه بعد أن انتقل مركز الدولة من مكة والمدينة فى الحجاز ، الى دمشق فى عهد أموية المشرق ثم الى بغداد وقرطبة على عهد العباسيين وأموية الأندلس . وطبيعى أن هذا الاتصال ، قد استحدث للعرب فنونا أخرى غير فن القول ، أما فى العصر الجاهلي ، فانفراد الأدب بالتعبير عن حياة العرب الوجدانية ، يجعل للرثاء موضعه الهام فى أدبه ، أو هذا الذى كان يجب أن يحدث ، فما مكان الرثاء فى تراث الجاهلية الأدبي ؟

وما موضعه عند أئمة النقاد ومؤرخى الأدب السابقين ؟

أما عن حظ الرثاء من الشعر القديم ، فيحدده الاحصاء الدقيق لكل ما فى ديوان الجاهلية والحضرة من مرث ، واذا يضيق المجال هنا عن عرض مثل هذا الاحصاء ، فاني أكتفى بالاشارة الى مصادره .

فيما لدينا من الشعر الجاهلي مجموعات اختلفت في الاعتبار الذي جمعت به ورتبت عليه ، فمنها ما جمع شعر قبيلة مثل ديوان الهذليين ، ومنها ما راعى المستوى الفنى للقوائد ، مثل المعلقات والمفضليات ، ومنها ما لم يخضع لنسق معين مثل كتب الأمالى ، ومنها ما جمع مختارات من كل فن شعري ، مثل ديوان الحماسة ، وجمهرة أشعار العرب . ومنها ما راعى الاعتبار الدينى كطبقة شعراء اليهود عند ابن سلام ، وشعراء النصرانية للويس شيخو .

وتسهيلا لجمع المراثى ، نبدأ بالمجموعات التى راعت الاعتبار الفنى ونسقت مختاراتها فى أبواب حسب موضوعها :

فقى « ديوان الحماسة لأبى تمام » باب خاص للثناء ، يأتى فى القسم الثانى (١) تاليا لباب الحماسة الذى أوثر بالقسم الأول .

وفى « جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى » قسم خاص مستقل لشعراء المراثى .

وفى « طبقات الشعراء . لابن سلام » طبقة خاصة أفرادها لفحول شعراء المراثى : متمم بن نويرة ، والحنساء ، وأعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوى (٢) . واذا كان ابن سلام لم يأت بغير أبيات قليلة عن مراثيهم ، فقد دلنا على مصدر نرجع اليه ، فى موضوعنا ، وأعنى به دواوين هؤلاء الشعراء الأربعة . ويوجد قدر كبير من المراثى فى :

« ديوان الهذليين » ، أمالى اليزيدى ، « المفضليات » لكن هذه المراثى مبعثرة لا يجمعها باب خاص .

كما توجد لدينا دواوين شعراء الجاهلية والحضرمة ، يمكن استخراج المراثى منها فى صبر وطول بال .

تأتى بعد هذا الجمع ، مرحلة الترتيب الزمنى لمراثى الجاهلية . وهى تعتمد على التقدير الاجتماعى المرن ، الذى لا مطمع فيه لتحديد دقيق ، لأزمان الشعراء

(١) من ص ٣٢٦ : ٤٦٣ ط السعادة ١٩١٧ .

(٢) ص ١٧٤ ط . الذخائر .

وتاريخ ميلادهم ووفاتهم ، اذ لم تتجه العناية الجادة ، الى تدوين الشعر الجاهلي والتأريخ لرجالهم ، الا القرن الثاني الهجري ، وان تكن محاولات سابقة قد بذلت ، في العصر الأموي . وكان التدوين يعتمد على الرواية النقلية ، لا على وثائق مكتوبة أو نصوص مدونة . وفي ظروف كهذه ، يكون التحديد الزمني الدقيق ، غير مستطاع . وأقصى ما نطمح فيه هو التقدير التقريبي على ضوء الأحداث التاريخية المعروفة من ذلك العهد البعيد .

والذي اطمان اليه جبهة مؤرخي الأدب العربي ، أن « عدى بن ربيعة التغلبي » كان أول من قصد القصائد^(١) .

ومهما يكن الخلاف في هذه القضية ، فالذي لا شك فيه أن عدى بن ربيعة من أقدم الشعراء المعروفين لنا في الجاهلية . واذن فلنا أن نعد مرثي « مهلهل » في أخيه كليب ، والمرثي الأخرى في قتلى حرب البسوس ، من أقدم ما وصل إلينا من الرثاء العربي .

ولدينا مرث قديمة ، يحتمل أنها سابقة على حرب البسوس ، كالتى قالها « البراق الأسدي » في أخيه « غرسان » . والبراق قريب لمهلهل ، وجاهلي قديم يرجح « لويس شيخو » أنه مات سنة ٤٧٠ م . وقد اختار له ثلاث مرث في أخيه^(٢) .

وانما قدرنا أن هذه المرثي أقدم من أيام البسوس ، لأننا لم نجد للبراق أى شعر في معاركها المشهورة ، ولو أنه قد عاش حتى أدرك مصرع كليب ، وكان من المحتمل أن يصل إلينا شيء من شعره في حرب البسوس ، وهو شاعر، وفارس، وقريب لمهلهل .

وعلى كل حال ، فهذا احتمال يقوم على الفرض الظنى الذى لا يرتقى الى مرتبة الترجيح ، اذ يحتمل أن يكون « البراق » شارك في حرب البسوس وقال فيها شعرا لم يصل إلينا .

ومن ذلك العهد القديم أيضا ، في القرن الثاني قبل الاسلام ، مرث للشاعرة « ليلي بنت لكيز بن مرة الأسدي » في ابن عمها « غرسان ، أخى البراق »^(٣) .

(١) ابن سلام : الطبقات ص ٣٣ ط الدخائر .

(٢) شعراء النصرانية : ٤٧/١ .

(٣) شعراء النصرانية : القسم الأول ص ١٤٩ .

أما مراثى البسوس ، فأشهرها قصائد مهلهل في أخيه كليب ، وهى مراث طوال ، أورد منها صاحب شعراء النصرانية عددا غير قليل (١) .

ومرثية منسوبة الى « جليلة بنت مرة » في زوجها كليب ، وهى ذائعة مشهورة (٢) « وللحارث بن عباد » مراث في ولده بجير (٣)

ونمضى في التبع الزمني ، على ضوء ما بين الشعراء الأقدمين من قرابة أو معاصرة . فمهلهل التغلبي ، خال امرىء القيس ، فيما روى « ابن سلام » ولكننا نضع قبل شعر امرىء القيس ، زمنا ، مرثيتين لعمه « معد يكرب بن الحارث » في أخيه « شرحبيل » (٥) .

ثم تأتي مراثى « امرىء القيس » في أبيه « حجر الكندي » ومرثية أخرى في بعض قومه وتلمس في ديوانه ، وفي الجزء الأول من شعراء النصرانية .

وبعدها مراث « لطفة » في ديوانه ، ومرثية لرفيقه « المتلمس » يرثى بها نفسه (٦) ، وست مراث « للخرق » أخت لطفة ، في زوجها بشر بن عمرو (٧) .

وقرب من ذلك العهد ، مراثى « عدى بن زيد » وقد جاء منها ثلاث في شعراء النصرانية ، ولزوجته مرثية في ولدين لهما (٨)

ومن القرن الأخير قبل الاسلام ، مراث ترتب زمنيا ، فتقدم قصائد من لم يدركوا الاسلام ، وان أدركوا بعض من عاشوا حتى ظهور الدعوة الاسلامية :

النابغة الذبياني : حكم بين الأعشى وحسان والحنساء ، وكلهم أدرك الاسلام — له مراث في الحارث الفسائي ، ومرثية في أخيه (٩) .

وزهير بن أبي سلمى ، لم يدرك الاسلام وأدركه ولداه كعب وبجير ، وراويته الخطيئة . وله بعض مراث في ديوانه .

(١) شعراء النصرانية : ١٦٠/١ وما بعدها .

(٢) » » : ٢٥٢/١ .

(٣) » » : ٢٧٣/١ .

(٤) طبقات الشعراء : ٣٣ ط الذخائر .

(٥) شعراء النصرانية ٣/١ .

(٦) » » : ٣٤٧ .

(٧) » » : ٣٠٠ .

(٨) شعراء النصرانية : ٤٧٩ .

(٩) ديوان الحماسة : ٣٧٢ .

قس بن ساعدة الايادى : لم يدرك الاسلام ، لكن محمدا صلى الله عليه وسلم ،
سمعه يخطب في عكاظ ، قبل المبعث .

له مرثية في صديقين له ندمين ، ماتا وتركوا له الوحشة والأسى . والقصيدة
نفسها منسوبة في « ديوان الحماسة » لرجل غيره من بني أسد (١)

ويأتي بعد هؤلاء ، شعراء الجاهلية الذين أدركوا الاسلام ، مثل :

« لبيد » وله مرث مشهورة في أخيه أريد . « الخنساء » ومرثيتها في أخويها
صخر ومعاوية تملأ ديوانها ، وفيه مرثية قالتها في زوجها « مرداس السلمى » .

« دريد بن الصمة » خطب الخنساء فردته لكبير سنه ، وأدرك الاسلام شيخا
ولم يسلم . له مرث في اخوته ، بعضها في كتاب « الأغاني » وفي شعراء النصرانية
ومرثيتان من مختارات الرثاء في القسم الثاني من « ديوان الحماسة » ولابنته
« عمرة » مرثية ، تجدها في شعراء النصرانية ، وفي مرثي النساء بديوان
الخنساء « أنيس الجلساء » (٢).

ومن أشهر الرائيين المخضرمين :

« متمم بن نويرة » وقد رثى أخاه مالكا .

« أبو ذؤيب الهذلي » وقد رثى بنيه .

« أعشى باهلة » وقد رثى أخاه « المنتشر » .

« كعب بن سعد الغنوي » وقد رثى أخاه أبا المغوار .

هذا ولم نشر الى مرث لشعراء من الجاهلية والمخضمة ، لم يشتهروا بالرثاء
وان لم يخل ديوانهم من المرثي ، كما لم تخل منها مجموعات الشعر الجاهلي
المشهور ، وأمالى الرواة المتقدمين ، خضوعا لضيق المجال .

(١) ديوان الحماسة : ٣٦٢/٢ .

(٢) طبع الآباء اليسوعيين في بيروت .

(٣)

سبب الميراث الجاهلية وخصائصها الفنية

(١) غلبة رثاء الاخوة :

باستقراء هذه المجموعة من مراثى الجاهلية والحضرة ، كان الملحظ الأول الذى اقتنا فيها ، غلبة رثاء الاخوة ، حيث نرى :

« ابن سلام » ذكر فى طبقاته أربعة من فحول الرائيين ، كلهم رثى أخاه . وهم على ترتيب ابن سلام :

متمم بن نويرة ، الخنساء السلمية ، أعشى باهلة ، كعب بن سعد الغنوى^(١) .
« أبو زيد القرشى » فى الجمهرة ، اختار مراثى لسبعة من شعراء الجاهلية وصادر الاسلام ، أربعة منهم رثوا اخوتهم وهم :

كعب بن سعد الغنوى ، أعشى باهلة ، متمم بن نويرة ، أبو زيد الطائى^(٢) .
أما الثلاثة الباقون فهم :

مالك بن الربيع : يرثى نفسه .

أبو ذؤيب الهذلى : يرثى أبناءه .

علقمة الحميرى : يرثى قومه .

ففى مراثى أربع للاخوة ، مقابل واحدة لكل من الأبناء ، والنفس ، والقوم .
« أبو تمام فى الحماسة »^(٣) جاء بمراثى نص فى بعضها على شخصية المراثى ، وأهمل أخرى فلم يذكر فىمن قيلت فيه ، وكان علينا أن نلتصم الدليل عليه من النصوص . ويمكن أن يقال — فى احتياط — ان فى ديوان الحماسة سبع عشرة مراثى للاخوة :

(١) طبقات فحول الشعراء : ١٧٤ ط الذخائر .

(٢) يرثى « الجلاح » وقد ذكر القرشى ان الجلاح أخ لأبى زيد ، ويؤيده دليل من نص المراثية (ص ٢٧٨ من الجمهرة) لكن الذى فى أمالى اليزيدى (ص ٧) أن الجلاح ابن أخت لأبى زيد .

(٣) شرح التبريزى . ط السعادة .

منها ما صرح فيه بذكر المرثي ، كمرثي دريد بن الصمة ومتمم وليد ومهلل ،
وقتيلا بنت الحارث (في أخيها النضر المقتول بيدر) وصخر السلمى في معاوية ،
وعمرة بنت مرداس في أخيها العباس ، وهشام بن عتبة في أخويه .
ومنها ما هداانا اليه دليل من النص ، كقول شاعر :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا أرجى حياة أم من الموت أجزع^(١)
وقول آخر :

فلو أنها احدى يدي رزئتها ولكنها يدي بانث على أثرها يدي^(٢)
ويقابلها احدى عشرة مرثية في الأبناء ، ومرثية واحدة في الأب .

و « أبو عبد الله الزيدى » في أماليه^(٣) ، جمع مرثي من الجاهلية
والاسلام ، فكان علينا أن نستبعد منها ما هو عباسى أو أموى صريح ، ونستبقى
ما لا يبدو عليه الطابع الاسلامى بوضوح ، ويمكن أن يقال ان فيه من مرثي
الجاهلية وقريب منها ، أعنى الحضرة الفنية :

احدى عشرة مرثية فى الاخوة^(٤) .

وثلاث مرث فى القوم والسادة^(٥) .

ومرثية فى كل من : النفس ، والابن ، والصحب^(٦) ، والحبيبة أو الزوجة^(٧)

(١) ديوان الحماسة : ص ٣٥١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٧٠ .

(٣) ط حيدر آباد بالهند . وأبو عبد الله توفى سنة ٣١٠ هـ .

(٤) صفحات : ١٣ ، ٣٤ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ١١٦ على التوالى .

(٥) صفحات : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٣ .

(٦) صفحات : ٥١ ، ٨٤ ، ٧٤ .

(٧) ص : ٥٠ .

وغلبة رثاء الاخوة - فيما درسنا من شعر الجاهلية والحضرة - تحتاج الى وقفة تلتبس فيها تعليل هذه الظاهرة ، في ضوء ما لدينا من نصوص ، وما نعرف عن حياة المجتمع العربي في الجاهلية .

ويلفتنا في المراثية القديمة ، أن « البراق » يصف أخاه « غرسان » بأنه صنوه ، أى شطره الشقيق . وأصل الصنو في العربية أن تخرج نختان من أصل واحد ، فكل واحدة منهما صنو الأخرى . هذه المشاركة في الأصل ، أتم ما تكون ظهورا في الاخوة ، والشاعر القديم اذ يلتفت اليها ، تتداعى المعانى في خاطره فيذكر أمه ، ويتمثلها اذ تستقبله وحيدا بغير أخ :

تولت رجالى بالفنائم والغنى مزجين للأحمال من « رملان »
ونادوا جميعا بالرحيل فلم أطق اياها ، وصنوى فى المارك فان !
أؤوب الى أمى سليما مكرما وغرسان مقتول بدار هوان !

« ومهلل » كذلك ، يذكر أمه فيخرجه الأسى عما يجب لمثله من وقار ، ويضج بنواح أشبه بنواح النوادب والشكالى :

ويح أمى ، وويحها لقتيل من بنى تغلب ، وويح ، وواحا !
وكعب بن سعد الغنوى يقول :
هوت أمه ، ماذا تضمن قبره من المجد والمعروف حين يغيب !

ومن الالتفات الى وحدة الأصل ، أن ينادى الرائي أخاه : يا ابن أمى ، وهذا النداء قديم فى المراثية الجاهلية ، سبق اليه « معد يكرب بن الحارث » عم امرئ القيس - فى رثاء أخيه شرحبيل :

يا ابن أمى ، ولو شهدتك اذ تد عو تميما وأنت غير مجاب
لتركت الحسام تجرى ظباه من دماء الأعداء يوم الكلاب

وتبعه الراثون من بعده ، فيقول الشاعر الفقعى فى رثاء اخوته :

أبعد بنى أمى الذين تسابعوا أرجى حياة ، أم من الموت أجزع ؟

وتقول « الخساء » في رثاء أخيها معاوية :

قال : ابن أمك ثاو بالضريح وقد سدوا عليه بالواح وأحجار
هل تدريان على من ذا سبلكما على ابن أمي آييت الليل معمودا

وذكر الأمومة هنا ، التفات من الشاعر العربي الى صلة الاخوة التي تربطها وحدة أصل ، فيرى نفسه وأخاه صنوين ، ويذكر أمه ، ويناديه يا ابن أمي .

ومن تتبع مرثي القدامى لآخوتهم ، نجد الى جانب هذا الشعور بوحدة الأصل ، ما نملل به ظاهرة غلبة الرثاء للاخوة : فالأخ يرى في أخيه صنوه ، ومثله . واذا مات فكأما مات شطر منه ، وبكى بعضه على بعض ، وهو ما أحسه الشاعر القديم فطلب الى صحبه أن ينعوه - مع أخيه - الى أهله ، ليندبوهما معا :

فمن مبلغ عنى كريمة قومه لتندب غرسانا ، وبراق ثانيا !

ثم ان الأخوين يخوضان معا معركة الحياة متساندين ، وليس بينهما ما يكون عادة بين جيلين مختلفين ، كالذي بين الآباء والأبناء ، والشيوخ والشباب ، حيث يعيش كل جيل في عالمه ويحيا بأسلوب زمانه .

وفي حياة القبيلة ، يحمل جيل منها عبء الدفاع عنها والذود عن حماها ، وهو الجيل القادر على حمل السلاح وخوض المعركة وركوب المخاطر ، فمن الطبيعي أن يشعر الأخ بحاجته الى أخيه ، صاحباً ومؤزرراً ومعيناً :

قال البراق :

أخي ، ومعينى فى الخطوب وصاحبى بكل اغاراتى بحد سنان !
وقال كعب بن سعد الغنوى :

أخى كان يكفينى وكان يعينى على نائبات الدهر حين تنوب
فلو كانت الموتى تباع اشتريته بما لم تكن عنه النفوس تطيب !
بعينى ، أو عيني يدى ، وقيل لى : هو الغنائم الجذلان حين يثوب

وشأن الاخوة فى الحياة أن تكون صداقة وزمالة ، ومشاركة وجدانية وتجاوبا عاطفيا ، والفا متبادلا ، فكيف بها فى مجتمع لا يقوم الا بالمعاونة والمساندة

والنصرة ! فذلك قول « صخر » في رثاء أخيه « معاوية » :

إذا ذكر الاخوان رقرقت عبرة وحييت رمسا عند « لية » ثاويا
وطيب نفسي أنى لم أقل له : كذبت ، ولم أبخل عليه بما ليا
وذى اخوة قطعت أقران بينهم كما تركونى واحدا لا أخليا
وقول شاعر الحماسة يرثى أخاه :

أخ ، وأب بر ، وأم شفيقة تفرق في الأبرار ما هو جامع
سلوت به عن كل من كان قبله وأذهلنى عن كل ما هو تابع

ونقدر بعد هذا أن موضع الأخوة في حياة القبيلة قديما ، غير موضعها اليوم ، حيث أغنت طبيعة التطور عن المعونة والنصرة ، بما وفرت من الأمن مثلا ، وبما هيأت من وسائل ليسر الحياة ، تسعف فيها الآلة في مختلف المرافق .

(ب) والمرثية القديمة تشهد بعمق المعاناة ، وقوة الانفعال بصدمة الفجعة ، وقد عبر الشاعر فيها عن وجدانه بعبارات وألفاظ تشهد بهذه المعاناة الوجدانية العميقة ، مثل : الشجون الهاجسات ، واللوعة المكتومة ، والجراح المنكوة ، والشمر المتظاير بين الجوانح ، والليل الطويل الذى يبدو كأن لا آخر له ، والغليل الذى لا يهدأ ولا يبرد .

قال معد يكرب بن الحارث يرثى أخاه :

ان جنبى عن الفراش لناب كنتجافى الأسرّ فوق الطراب
من حديث نعى الى فلا تر قأ عينى ولا أسينغ شرابى
مرة كالذعاف أكمها النسا س على حرملة كالشهاب

وقال « البراق » يصف حاله بعد أخيه :

وقد أصبح البراق فى دار غربة وفارق اخوانا له ومواليسا
حليف نوى ، طاوى أسى ، سافك دما يرجع عبرات يهجن البواكيا
وللهلبل :

ان فى الصدر من كليب شجوننا هاجت نكأن منه الجراحا
أهاج قذاة عيني الادكار هدوءا فالدموع لها انهمار

وظل الليل مشتتلا علينا كأن الليل ليس له نهار
كأنى اذ نعى النعاعى كلييا تطاير بين جنبى الشرار
بات ليلى بالأنعمين طويلا أرقب النجم ساهراً لن يزولا

وتتبع هذه المعانى الوجدانية الداخلية فى مرثى العرب ، يصحح ما شاع
عن سطحية المعاناة وخارجية المعانى فى الشعر الجاهلى .

ولعل من مظاهر عمق المعاناة ، فى المرثية الجاهلية ، شعور الرثى بتجاوب
الكون معه فى الاتفعال بالمصاب :

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها ان أنت خلتها فيمن يخليها
نعى النعاعى كلييا لى فقلت لهم مادت بى الأرض أم مادت رواسيها
لما نعى النعاعى كلييا أظلمت شمس النهار فما تريد طلوعا
وهو معنى تناقله الرثون العرب من بعده وتوسعوا فيه .

(ج) وسبقت المرثية القديمة الى خطاب الميت كأنه حى يسمع ويصغى ،
اما لأن الشاعر لا يصدق أن فقيد مات ، واما لأنه لم يزل يشعر به ملء الحياة
فى وجدانه وقلبه . وقد يُظن أن هذه الظاهرة ، تكون عند قرب العهد بالميت ،
ولكننا نسمع مهلهلا فى قديم المرثى ، يخاطب أخاه خطاب الحى بعد أن بعد
العهد به وطل الفراق :

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا فى أمر كل عزيمة لو كنت شاهدهم بها لم ينسوا
وربما أنكر الرثى — لقوة تمثله فقيد حيا — ألا يجب الميت نداءه ، فيكرر
النداء فى حرة وأسى مرة بعد مرة ، كقول مهلهل :

دعوتك يا كليب فلم تجبنى وكيف يجينى البلد القفار
أجبنى يا كليب خلاك ذم لقد فجعت بفارسها نزار

وقد سار الرثون من بعده على مخاطبة موتاهم كأنهم أحياء ، وربما فرض الشاعر على غيره ، شعوره بحياة فقيده ، كقول « كعب سعد الغنوي » في رثاء أخيه « أبي المغوار » :

وداع دعا : يا من يجيب الى الندى
فلم يستجب عند النداء مجيب
فقلت : ادع أخرى ، وارفع الصوت عاليا
لعل أبا المغوار منك قريب
يجيبك كما قد كان يفعل ، انه
بأمثالهـا رجب الذراع قريب

(د) وجمعت المرثية الجاهلية بين تأيين الميت وراثته ، أى بين مدحه والبكاء عليه ، جمعا لا يرهقه تكلف ولا يؤوده قسر واعتساف . وقد ظهر هذا الجمع من قديم ، في رثاء « البراق » أخاه غرسان ، وفي رثاء « مهلهل » أخاه كليباً :

أكليب ان النار بعدك أخدمت ونسيت بعدك طيبات المجلس
من للأرامل واليتامى ، والحمى والسيف والرمح الدقيق الأملس

وقد سار الرثون على هذا ، حتى صار سمة من سمات المرثية العربية بوجه عام ، ولم يكن التأيين - عند المجيدين - يخرجنا من جو الحزن ، بل كان في الواقع نوعا من البيان لفداحة المصاب في الفقيد ، ولكن بعض المتأخرين أسرفوا في تعداد مناقب الميت ، حتى ليشتبه الأمر علينا في المرثية ، فلا ندرى أهى مدح حتى ، أم تأيين لميت ، مما دعا النقاد الى التماس ألفاظ تميز بين المدح والرثاء ، على ما سوف نبينه عند الحديث عن « المرثية عند النقاد » .

وليس الأمر هكذا عند « مهلهل » اذ يقول :

ثبثت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا في أمر كل عزيمة لو كنت شاهدهم بها لم ينسوا

ولا عند « كعب بن سعد » اذ يقول :

وداع : دعا يا من يجيب الى الندى
فلم يستجب له عند النداء مجيب

فقلت : ادع أخرى ، وارفع الصوت عاليا
لعل أبا المغوار منك قريب

الى أن يقول :

أتاك سريعا واستجاب الى الندى
كذلك قبل اليوم كان يجيب
إذا ما تراءاه الرجـال تحفظوا
فلم ينطقوا العـسـوراء وهو قريب

فلسنا هنا في حاجة الى أن نسأل : أهذا مدح لحي أم تأيين لميت ، لأن الشاعر
لم يخرج بنا من جو الحزن المسيطر على وجدانه ، ولا قصد الى المدح ، بقدر
ما قصد الى التعبير عن فداحة الخطب في فقيده ، وجلال المصاب .

(د) وظهرت الحكمة في المراثية العربية من قديم ، وهي لا تبدو مقحمة
ولا دخيلة على الجو النفسى للرائى ، فالموت بطبيعته حادث جليل ، يمضى بالرائى وراء
الذاهب الذى لن يعود ، ويذكره بالمصير المحتوم الذى لا مفر منه ولا مناص :

طاف يعنى نجوة	من هـلاك فهلك
والمنايا رصـد	للفتى حيث سـلك
مجاور قوم لا تزاور بينهم	ومن زارهم في دارهم زارهم مـدا
هم جيرة الأحياء، أما جوارهم	فدان ، وأما الملتقى فبعيد
عدهم كل يوم من بقيتنا	ولا يثوب الينا منهم أحد

ولم تأت الحكمة في المراثى الجاهلية الا عفوا ، عن تأمل فطرى في مأساة الموت ،
أو هذا هو ما يبدو لى فيما قرأت من هذه المراثى . على أنها كثرت في مراثى
قس بن ساعدة ، وعدى بن زيد ، وأمىة بن أبى الصلت ، ممن تأثروا بالنصرانية
أو اعتنقوها ، وهؤلاء يصدق عليهم قول « ابن رشيق » : « ومن عادة القدماء أن
يضربوا الأمثال في المراثى بالملوك والأعزة والأمم السالفة ، والوعول الممتعة في

قلل الجبال ، والأسود في الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات ، لبأسها وطول أعمارها . وذلك في أشعارهم كثير لا يكاد يخلو منه شعر» (١) .

لكن إطلاقه هذا القول على الشعراء القدماء ، يمثل ذلك التعميم ، فيه نظر . فالذي بين أيدينا من مرثي الجاهلية القديمة ، لا نجد في أكثره ذكرا لفناء الملوك والأعزة والأمم السالفة ، وإنما نجد مثل هذا في بيئة خاصة ، كالحيرة ، وعند شعراء معينين مثل عدى النصراني ، وقس الحكيم ، وأمّية المتطلع للنبوة ، وأمثالهم ممن أوتوا حظا من المعرفة بالتاريخ ، والعلم بالكتاب .

(هـ) وتنتهي بنا هذه الملاحظ ، الى أهم سمة للمرثية الجاهلية ، وهي الوحدة الموضوعية للقصيدة ، على غير ما ألفنا في غير الرثاء ، حيث كان الشاعر ينتقل في القصيدة من بكاء الأطلال أو الغزل ، الى الوصف ، فالمدح أو الهجاء أو الفخر ، فينقلنا الى عوالم متفاوتة متباينة ، لا يربطها غير رابط شكلي من وحدة الوزن والقافية .

ولم يكن القوم يضيعون بانتقال الشاعر من وقفة حزينة بالأطلال الى المدح فالحكمة ، على نحو ما فعل « زهير » أو من استيقاف الصبح للبكاء من ذكرى حبيب ومنزل ، الى وصف مغامرة طائشة بدارة جلجل ، الى الشكوى من ليل كموج البحر أرخى سدوله وتمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل ، الى وصف الفرس مكرما مفرا مقبلا مدبرا معا ، على نحو ما فعل « امرؤ القيس » بل لم يضيعوا بانتقال « النابغة الذبياني » من وصف مفاتن « المتجردة » وقد سقط نصيفها في مجلس الندامى ، فتاوتله واتقتهم باليد ، الى الانذار بفراق وشيك أرجف به زعم البوارح ، وتتعاب الغراب الأسود ، كما ضاقوا بخلل شكلي في حركة الروى ، فجاءوا بقينة تغنى أبيات « النابغة » كي يتبه الى ما فيها من اقواء .

أما المرثية الجاهلية فلم يكن فيها هذا الاخلال بالوحدة الموضوعية للقصيدة ، كان الرائي يبكي فقيده ، ويذكر سجاياه ، ويلتفت الى عبرة الموت ، وربما طالب

(١) العمدة: ١٢١/٢ .

بأثر الميت فسمعنا في مرثيته صليل السيوف وضجيج المعركة ، وزئير الوعيد ،
لكن لا الحماسة ، ولا الحكمة ، ولا التأين ، بالذى يمزق الجو النفسى للقصيدة ،
أو يهدر وحدتها الموضوعية .

بل ان ذكر الشراب والندامى ، لم يفسد هذه الوحدة فى المرثية التى قالوا
« انها بدأت بالغزل والشراب ، فخرجت على مألوف الرثاء » وهى مرثية
« دريد بن الصمة » فى أخيه عبد الله :

يا ندى اسقنى كأس الحميا	فى ثنيات اللوى ، من كف « ريثا »
يا ندى اسقيانى خمرة	ودعانى أبصر الثيين شيا
فقوادى قد صحا من سكرته	واشتفى الداء الذى كان دويا
ليت « عبد الله » أبقاه الردى	يا بنى العم ، وعاد اليوم حيا
ليته عاد كما أعهدده	حسن القامة وضاح المحيا
ليرى أعداءه مع وحنى القلا	تهدادى منهم لحما طريا
وتركت الأرض من فيض الدما	تشتكى بعد الظما فيضا وريا

قال « ابن رشيق » :

« المتعارف عند أهل اللغة ، أنه ليس للعرب فى الجاهلية مرثية أولها تشيب
الاقصيدة دريد بن الصمة . وأنا أقول ان عدم البدء بالتشيب هو الواجب
فى الجاهلية والاسلام ، لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشيب
بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة . وانما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ،
وحيث أخذ ثأره وأدرك طلبته » (١) .

وتقول ان « دريد » فى غير حاجة عندنا الى أن يلتمس له « ابن رشيق »
العذر عن هذا التشيب ، بمضى سنة من مقتل أخيه ، وبأنه قد أخذ ثأره . فالخص
الدقيق لا يفوته أن يلحظ أن هذا الهتاف بالندامى ، واللهفة على أن يسقوه كأس
الحميا من كف « ريثا » ليس مبعثه الطرب والنسيان ، وانما هو احتفال بالثأر
قد شفى فؤاده من داء كان دويا ، وكيف يجوز افتراض السلو بمضى سنة
أو سنين ، وهذا « دريد » يذكر أخاه ويتمنى لو بعث حيا ، على العهد به محسن

(١) العمدة : ١٢١/٢ .

قامة واشراق محيا ، ليرى أعداءه مع وحش الفلا وقد شبتت من لحمهم فهي تتهاداه طريا ، ويرى الأرض تشتكى فيض الدما بعد الظما . فالجو النفسى هنا لا يختل مطلقا بهذا المطلاع المتلهف على الشراب ، والوحدة الموضوعية فى القصيدة لم تضع مع هتاف الشاعر بالندامى أن يسقوه من كف « ربا » .

وهكذا يسعنا أن نقول فى طمأنينة ، ان المريئة الجاهلية قد توفرت لها هذه الوحدة التى نفتقدها غالبا فى غير الرثاء ، وبرئت من عيب الانتقال المبسغة لا نستثنى مريئة دريد ، التى نرى الرابطة النفسية فيها بين حفل الشراب الذى يلتسمه الرائي المحزون ، وبين هذه الوليمة التى أقامها لوحش الفلا من لحم أعداء أخيه ، وروى الأرض من دمائهم .

وهذا الملحظ يجعل للمريئة الجاهلية قيمة خاصة ، حين تعرض الشعر العربى القديم على المقاييس النقدية التى ترضاها اليوم .

(٤)

الرثاء عند متقدمى النقاد

نستطيع بعد هذا العرض الصام أن ننظر فى أحكام متقدمى النقاد ، لئرى مكان الرثاء عندهم وموضعه من الفن لديهم ، ثم نحاول على قدر ما يتسع المجال ، أن نعرض هذه الأحكام على المريئة الجاهلية لئرى ما تقبله منها وما ترفضه .

(١) وأول ما نذكره من ذلك ، أنهم حين قسموا الشعر بحسب أغراض الشعر ، لم تتفق كلمتهم على عدّ الرثاء فنا مستقلا بذاته ، بل قال بعضهم « ان الشعر بنى على أربعة أركان : المدح والهجاء والنسيب والرثاء ^(١) » لكن كثيرا منهم ، على عدم اعتبار الرثاء غرضا مستقلا ، وإنما هو تابع للمدح : « فالرمانى ، سلى ابن عيسى » يقول فيما نقل « ابن رشيق » :

« أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف » وقيل : يجمع أصناف الشعر أربعة : المدح والهجاء والحكمة

(١) العمدة : ٧٧/١ .

واللهو . ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر ، ثم يكون من الهجاء الذم والعتاب ، ومن الحكمة الأمثال والمواعظ . ومن اللهو الغزل والطرب وصفة الخمر^(١) .

« وقال قوم : الشعر كله نوعان : مدح وهجاء ، فإلى المديح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب وما تعلق بذلك من محمود الوصف وتحسين الأخلاق ، كالأمثال والحكم والمواعظ والزهد والقناعة . والهجاء ضد ذلك كله »^(٢) .

بل ربما أهدروا الرثاء جملة فلم يجدوا له مكانا . وليس من العسير علينا أن نفهم سبب هذا الإهدار ، إذ يفسره الميزان النقدي الذي حددوا به ما سموه قواعد الشعر فقالوا :

« قواعد الشعر أربع : الرهبة والرغبة والطرب والغضب : فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون التوعذ والعتاب الموجه^(٣) » .

فهم لم يهدروا مكان الرثاء لجهلهم به أو لقلّة تراثنا منه ... « أبو تمام » مثلا وضع مختارات المراثي تالية للحماسة مباشرة ، « وأبو زيد القرشي » أفرد للرثاء في « الجهمرة » بابا خاصا ، « وابن سلام » جعل لفحول المراثي طبقة مفردة ...

وأما ضيع الرثاء عندهم ، تقيدهم بالتقسيمات الشكلية والضوابط المنطقية في التعريف، وهي نزعة طارئة على علماء العربية والاسلام في القرن الثاني والثالث، تأثرا بما نقل اليهم من منطق أرسطو وفلسفة اليونان ، فكان ما كان من حصرهم مشيرات الوجدان بكذا وكذا ، وتحديددهم لأغراض الشعر وأركانها بكييت وكييت . ووراء هذه التقسيمات والضوابط ، لم يعنهم أن ينفذوا الى أعماق الوجدان ، أو يتصلوا بجوهر الفن ومنابعه الأصيلة في النفس . ومن ثم جاءت أحكامهم ومقاييسهم في الغالب ، جامدة جافة ، لاحظ لها من نفاذ النظرة وذوق الفن .

(١) ابن رشيقي : العمدة ١/ ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ديوان الحماسة : الباب الثاني .

(ب) من تلك الأحكام، الحاقهم الرثاء بالمدح على ما نقلنا آنفا من كلام ابن رشيق في العمدة ، ومن قبله نقل « ابن سلام » عن يونس بن حبيب : « ان التأين بمدح الميت والثناء عليه ، والمدح للحى »^(١) وهى قولة شاعت من بعده ، و انتهت الى ما يشبه المسخ الفنى ، فى قول « قدامة بن جعفر » فى باب نعت المرثى : « ليس بين المرثية والمدحة فصل الا أن يُذكر فى اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل : كان ، وتولى ، وقضى نجه ، وما أشبه ذلك ، وهذا ليس يزيد عن المعنى أو ينقص منه ، لأن تأين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به فى حياته »^(٢) .

وتابعه على ذلك المسخ متابعون ، فيقول « ابن رشيق » : « ليس بين الرثاء والمدح فرق الا أن يخلط بالرثاء شئ يدل على أن المقصود به ميت ، مثل : كان أو عدنا . أو ما يشاكل هذا ، ليعلم أنه ميت »^(٣) .

وهى بلا ريب نظرة سطحية عشواء ، لا تتصل بجوهر الفن من قريب أو بعيد ، حين تغفل العنصر الوجدانى اغفالا تاما ، وتسى الجوى النفسى المسيطر على الرأى ، وهو جو بعيد كل البعد عن جو المادح . ومتى صارت المسألة عند هؤلاء النقاد ، مسألة لفظ لا يزيد فى المعنى ولا ينقص منه ، فهو المسخ الذى يستوى عنده أن ترثى فقيدا بقلب مومج حزين ، وأن تمدح حيا بنفس متفتحة وقلب يفيض بهجة واشراقا .

ومعاذ الفن أن يستوى الأمران ، ومعاذ الحق أن تقبل الرثية الجاهلية هذا المسخ ، وانها لتشجينا من وراء بضعة عشر قرنا ، بصدى المعاناة العميقة ، التى تفرض حزنها على الكون كله .

(ج) ومن أحكامهم كذلك ، قول بعض النقاد ، فيما نقل « ابن رشيق » :^(٤) .
« أصعب الشعر الرثاء ، لأنه لا يعمل عن رهبة أو رغبة » . وهو حكم يعصر مشيرات الانفعال الوجدانى فى الرغبة والرهبة . ويجعل الشاعر حين ينقطع رجاؤه

(١) طبقات الشعراء : ص ٥٠ ط بريل ، ليدن .

(٢) نقد الشعر : ٥٩ .

(٣) العمدة : ٧٩/١ .

(٤) العمدة : ١٢٤/٢ .

في الميت ، أو خوفه منه ، يشق عليه أن يرثيه ! وهم هنا لم يدخلوا في حسابهم ،
الانفعال بالأسى ، أو الحزن لفقد عزيز ، أو الترنح تحت الصدمة التي تهب وجدان
الشاعر حين يواجه مأساة البشرية الكبرى ، في ميت من أحبائه وذويه .

ذلك لأن الرغبة عندهم ، كانت تعنى الطمع في عطاء حاكم أو غضب أمير .
بديل أنهم حصروا مجال الرهبة في الاعتذار والاستعطاف ، وفاتهم وراء هذا الملحظ
المادى المحدود بفهمهم لوظيفة الشعر في مجتمعهم ، أن ينتهبوا الى مثيرات أخرى
للرهبة ، كشجن الفراق الطويل الذي لا لقاء بعده ، والخوف من وحشة الفراغ
بموت حبيب ، ومن وطأة الذكريات حين تعاود الأحياء ، معيدة رؤى الماضى وأطياف
الذين غابوا ، بل فاتهم أن يلتفتوا الى رهبة الموت نفسه ، بما يبعث في النفس من
خوف طاغ ، من ذلك القدر المحتوم الذي لا ينجو منه حي ، ولا تشفع فيه رقية ،
ولا يعصم منه معقل . وليس أشد من هذا الخاطر ترويعا لأمن النفس واثارة
لخوفها . والشاعر بطبيعته أرهف الناس احساسا وأرقهم وجدانا . لكن تقاد العصر
العباسى أسقطوا هذه الرهبة من حسابهم ، لأنهم لم يتصوروا خوفا الا الخوف
من ذى سلطان يضر وينفع . وعذرهم في ذلك أن أكثر شعراء عصرهم كانوا كذلك ،
يخافون غضب الأمير أكثر من خوفهم من الموت ، ويخشون الحاكم أشد
مما يخشون الله . فلا عجب أن حكم التقاد على الرثاء ، بعقلية تعيش في مجتمع
طبقى استبدادى ، فجاء حكمهم صادقا بالنسبة الى من عرفوا من مداح الملوك
الذين يمدحون عن رغبة في العطاء أو خوف من السلطان ، فاذا انقطع الرجاء
والخوف بالموت ، شق عليهم أن يرثوا الموتى الا أن يكون تملقا لخلفائهم ذوى المال
والسلطان . « فالأخطل » مثلا ، ملأ الدنيا بفرر مدائحه في بنى أمية ، وكان
شاعر بلاطهم ، وليس في ديوانه غير قصيدة واحدة للرثاء ، لأن الميت ليس عميلا
صالحا لمبتغى العطاء . ويروون أن « أحمد بن يوسف » قال لأبى يعقوب الحریمی :
« أنت في مديحك لفلان - كاتب البرامكة - أشعر منك في مرثيتك له . فقال
أبو يعقوب : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ! »^(١)

ولكن هذا الرأى ان صدق على الشعراء المرتزقة ، في عهود الحكم الفردى
المطلق ، فانه لا يصدق على شعراء أصلاء ، لم يقولوا الشعر عن مثل تلك الدواقع

(١) ابن رشيقي : العمدة ٧٩/١ .

المادية . ونستطيع أن نشهد الفرق واضحا ، بين القيم الفنية للمجتمع العربي الأصيل ، في الجاهلية وصدر الاسلام ، وبين ما صارت اليه عندما صار الشاعر أجيرا تابعا لذوى الجاه والسلطان ، بالموازنة بين كلمة « أبى يعقوب الحريري » وكلمة أخرى لمتهم بن نويرة ، حين رثى « زيد بن الخطاب » فلم يحسن الرثاء ، فقال له « عمر » رضى الله عنه : « لم أرك رثيت أخى زيدا ، كما رثيت أخاك ا فأجاب متمم : « انه والله يحركنى لمالك أخى ، ما لا يحركنى لزيد أخيك » .

ومرائى الجاهلية بين أيدينا ، ترفض ما ذهب اليه النقاد من « صعوبة الرثاء لأنه لا يعمل عن رهبة أو رغبة » وقد كان على هؤلاء النقاد ، أن يفسروا لنا ، كثرة الرثاء في ديوان الشعر العربي ، واستثثار الاخوة بالحظ الأكبر من المرائى في الجاهلية وصدر الاسلام ، وما مثلها بالذى يعمل عن رغبة أو رهبة ، على ما فهموا من معناها .

(د) وقريب من حكمهم هذا بصعوبة الرثاء لأنه لا يعمل عن رغبة أو رهبة ، قول « ابن رشيق » :

« ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر ، أن يرثى طفلا أو امرأة ، لضيق الكلام فيهما وقلة الصفات » ^(١) وهو قول يبدو لنا غريبا ، اذ لا نستطيع أن نتصور ما هو أفدح وأقسى من انطفاء الحياة في الولد طفلا يتفتح للحياة أبعد ما يكون الظن به أن يموت ، أو موت امرأة لا تعدو أن تكون أما أو بنتا أو زوجة أو حبيته ، وهي في كل هذه الحالات ، تبع الحنان ومبعث الأانس ومصدر الالهام .

وحين نعرض هذا الحكم النقدي على المرثية العربية ، بوجه عام ، نجد مرائى الأبناء غير قليلة ، ففى في الاحصاء العددي الذى حاولناه ، تأتى تالية لمرائى الاخوة التى ظفرت بأكبر حظ من الرثاء في الجاهلية والحضرة . والشعر العربي بعامة ، لا الجاهلى وحده ، يمتاز بروائع من رثاء الأبناء ، تعد من عيون الشعر العربي . ويكفى أن نذكر هنا مرثية « أبى ذؤيب الهذلى » في بنيه ، ومرثية

(١) العمدة : ١٢٤/٢ .

السلكة في ولدها السليك ، ومرثى « ابن الرومي » في أولاده ، ومرثية « التهامي » في ابنه الذي فجع فيه صغيرا كالهلال لم يكتمل ، ومرثى شعراء « الحماسة » في الأبناء ، ومرثية مختارة في « أمالي اليزيدي » لشاعر من طييء في ولده . وهذه الروائع تكفى وحدها للرد على ذلك الحكم النقدي الذي يهدر انسانية الأب العربي ، ويجرده من مشاعر الرحمة وعواطف الأبوة .

ولو قال النقاد ، ان رثاء الولد الصغير صعب ، لأن المصاب فيه من القسوة والقداحة بحيث يشل لسان الأب الشاعر ، فلا يدري ماذا يقول في محنة شكله ، لقبنا حكمهم راضين ، ولكن النقاد وجدوا رثاء الولد الصغير من أشد الأشياء صعوبة على الشاعر ، لا لقداحة المصاب ، بل « لضيق الكلام في الصغير ، وقلة الصفات » .

ونقول اذا كان الشاعر الثاكل يجد صعوبة في رثاء ولده الطفل ، فليس ذلك لأنه يجد مجال القول فيه ضيقا ، أو لقلة الصفات كما ظن النقاد ، وانما لأن حزنه أقوى من أن يعبر عنه ، ولأن صدمة الشكل قد تكون من العنف بحيث تشل اللسان وتمزق القلب . ولعل هذا يعين على تفسير الظاهرة التي أشرنا إليها ، وهي غلبة رثاء الاخوة — لا الأبناء — في العصر الجاهلي و صدر الاسلام .

أما كلام النقاد عن صعوبة رثاء المرأة ، لضيق الكلام فيها وقلة الصفات ، فلا تفسير له عندنا الا أن القوم — وقد عاشوا في العصر العباسي — نظروا الى المرأة بعين مجتسع استرقها ، وعزلها عن الحياة العامة ، وفرض عليها الواد العاطفي والمعنوي . فلهم عذرهم ، اذا لم يتصوروا أن هناك ما يمكن أن يقال في رثاء المرأة ، وقد رأوها مهذرة الحرية معطلة المواهب معزولة عن الحياة العامة ، ولست أستبعد أن يكون لشعراء الجاهلية مرث في المرأة ، لم يهتم رواة الشعر في القرنين الثاني والثالث بجمعها ، ولم يخضل النقاد بأمرها ، كما لم يخضلوا بشعر المرأة في غير الرثاء الذي حصروا فيه مجالها الفني . وهو موضوع لا أريد أن أتوسع في الحديث عنه هنا ، لأن له بحثا مفردا ، مستقلا ، فيما أشتغل به من « قيم جديدة للأدب العربي » وقد ألمت به في دراستي للخضاء ، وفي مقال لي عن « رابعة العدوية : أدبية شاعرة » المنشور بالعدد الأول من حولية الكلية .

أجل ، لا أستبعد أن يكون للشعراء القدامى مرث في المرأة لم يحفل بها الرواة والنقاد ، وقد أفلتت مع ذلك بعض مرث ، أذكر منها مرثية « عنترة »^(١) في « تماضر » أم صديقه قيس بن زهير العبسي ، وهي من أقوى مرثي « عنترة » كما أذكر من تراثنا الأدبي مرثية « لمحمد بن عبد الملك » في أم ولده ، وقد عدها النقاد أنفسهم من أروع المرثي^(٢) ولا يعدلها في رأينا ، فنيا وانسانيا ، ديوان كامل من المرثي المتكلفة التي تصف سجايا الفقيده وتسرده صفاته سردا اخباريا ، لاحظ له من استبطان نفسي وانفعال وجداني .

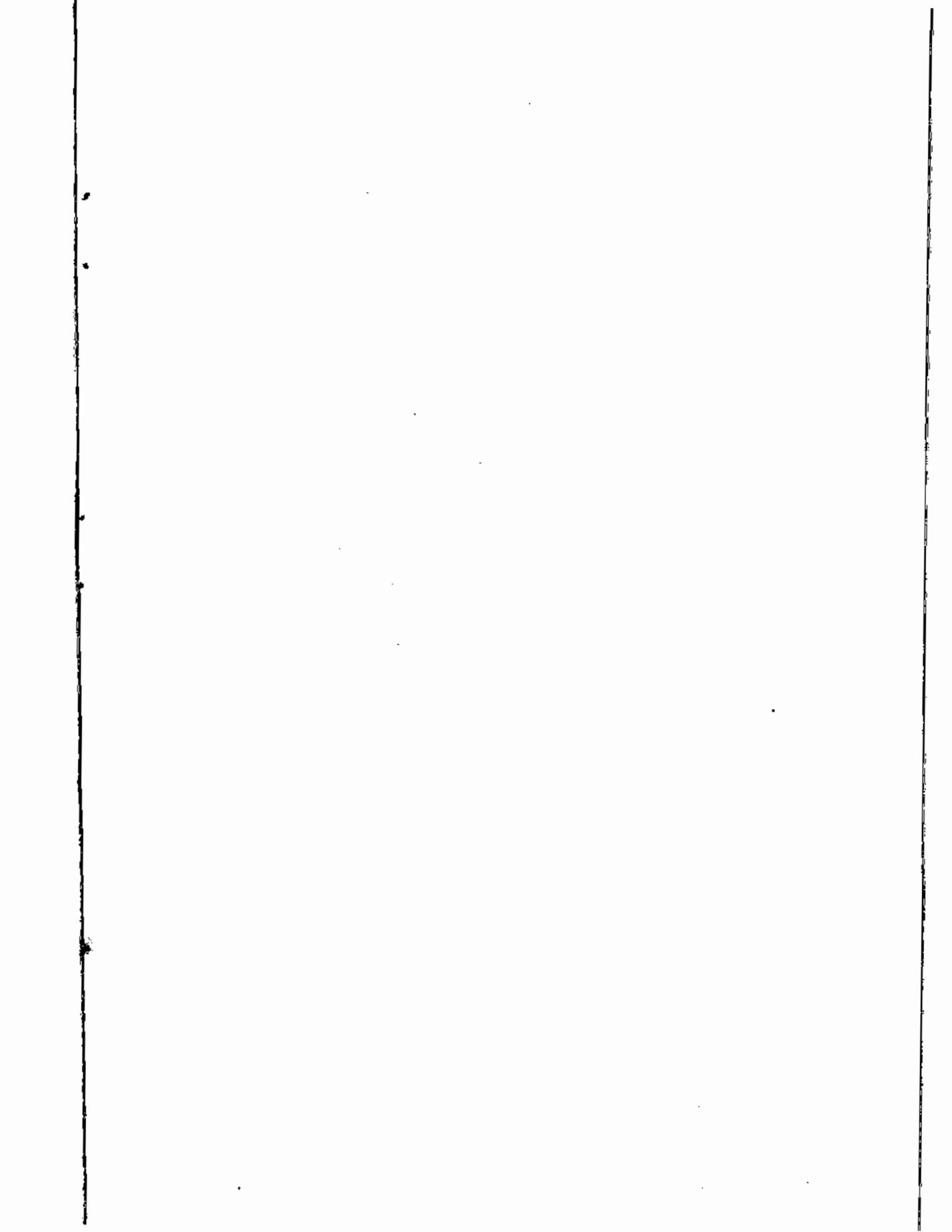
وأعود فأقول ، انه ليس بمشغرب من هؤلاء النقاد ، ولا بمنكر في تقدير عصرهم ومجتمعهم أن يصدروا مثل تلك الأحكام على الرثاء ، فهم كما رأينا يقدرون بواعث الحزن بمثيرات مادية غير نفسية ، فالشعر عندهم يصدر عن رغبة أو رهبة ، ومجال القول في الرثاء يتسع اذا تعلقته به رغبة أو اذا كانت له سجايا وصفات ، يدح بها حيا ، ويؤبن بها ميتا . والا ضاق مجال القول ، وصار من الصعب رثاء ميت انقطع منه الرجاء ، وأشد صعوبة أن يرثي الشاعر ولدا صغيرا ثكله ، أو امرأة لا يعرفون لها في مجتمعهم صفة أو مكانة .

ولا أراني أبعد عن الحق ، اذا قلت انها مقاييس وقيم تأبأها المرثية العربية الأصيلة ، التي لمخنا فيها صدق المعاناة وعمق الانفعال بمثيرات للحزن غير نفعية مادية ولا سطحية ظاهرية .

وأرجىء ما وراء هذا من استخلاص للقيم الجديدة ، الى أن أفرغ من بحث الموضوع ورصد نتائجه ، معتذرة عما في حديثي هذا ، من ضغط للفكرة ، ونقص في الشواهد ، وسرعة في الاستقراء ، راجية أن يتاح لي استكمال البحث في مجال أرحب وأوسع ، والله المستعان .

(١) شعراء النصرانية : ٦ / ٨٦١ .

(٢) ابن رشيق : العمدة ٢ / ١٢٥ .



في تاريخ النحو

للدكتور عبد الحميد سند الجندى

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

لقد كان من حدوث اللحن ما حمل القوم على الاجتهاد لحفظ العربية وتيسير تعلمها للأعاجم ، فشرعوا يتكلمون في الاعراب وقواعده حتى تم لهم مع الزمن هذا العلم . وتجمع المصادر على أن النحو نشأ بالبصرة ، وبها نما واتسع وتكامل وتفلسف ، وأن رءوسه كلهم بصريون .

وأول من أرسل في النحو كلاماً أبو الأسود المتوفى سنة ٦٧^(١) . وقد أفاض ابن النديم وابن الأنبارى في أولية وضع النحو وسبب ظهوره ، وهو كلام طويل معروف^(٢) ويؤخذ منه أنه قيل ان علياً كرم الله وجهه هو الذى ألقى على أبى الأسود شيئاً من أصول النحو ثم قال له : « انح هذا النحو » . وقيل ان أول من تكلم فيه نصر بن عاصم وقيل عبد الرحمن بن هرمز ، وقيل لم يصل الينا شيء قبل يحيى بن يعمر وابن أبى اسحاق الحضرمى .

وان من يقرأ بامعان ترجمة أبى الأسود فى كتب التراجم ، ثم يفكر فى تواردها أكثر المصادر على اعتباره واضع الأساس فى بناء النحو لا يستبعد ذلك . فالرجل ذو ذكاء نادر وعقل حصيف ، ثم هو بليغ أريب مرز الذهن . وحسبك اختراعه « الشكل » الذى عرف بنقط أبى الأسود . ولا شك أن الشكل أجدى على حفظ النصوص من حدود النحو ، وقد سبق السريان أبى الأسود فى وضع ضوابط للحركات فى لغتهم ، ومن الجائز أن يكون أبو الأسود قد استأنس بهم حين هم بوضع الشكل وقد كانوا يملئون البصرة فى زمنه^(٣) .

(١) المعارف ١٩٢

(٢) أنظر الفهرست ٣٩ وطبقات الأدباء ص ٣

(٣) محاضرات، الأستاذ جويدى ص ٨٣

ومهما يكن من شيء ، فإن هؤلاء الذين ينسب إليهم الأولوية في وضع النحو في بعض الآراء مثل نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون الأقرن كلهم تلاميذ أبي الأسود أو تلاميذ تلاميذه ، عنه أخذوا العربية والقراءة بالبصرة . وعن هؤلاء أخذ علماء البصرة طبقة بعد طبقة . ثم نشأ بعد نحو مائة عام من تلاميذهم من ذهب إلى الكوفة فعلم بها فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى «مدرسة الكوفة» . وخلق بي أن أبين ذلك بشيء من التفصيل :

فيحيى بن يعمر (١٢٩) روى عن ابن عمر وابن عباس^(١) ، ووصف بالعلم والأمانة . وعنبسة الفيل « تعلم النحو وروى الشعر وظرف^(٢) » حتى صار — كما يقول الخليل — « أبرع أصحاب أبي الأسود^(٣) » . وميمون كان رأس الناس بعد عنبسة ، وأبو عبيدة يجعله بعد أبي الأسود في تأسيس العربية^(٤) . ونصر بن عاصم (٨٩) كان « أحد القراء الفصحاء وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس » ويذهب بعضهم إلى أنه أول من وضع العربية^(٥) .

والرواة يذكرون أن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم اللذين قد ابتكرا نقط الحروف لتمييز المتشابه منها كالباء والتاء والياء والنون بإشارة من الحجاج . وتلك خطوة كبرى تلى خطوة أبي الأسود في ضبط العربية .

وهؤلاء هم عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي .

فأما عبد الله الحضرمي (١١٧) فأمره مع الفرزدق معروف إذ كان يتعقبه ويأخذ عليه سقطات نحوية ، وقد هجاه الفرزدق من أجل ذلك^(٦) . وكان الناس يفاضلون بينه وبين معاصره أبي عمرو بن العلاء ويقدمونه في النحو ويقدمون أبا عمرو في

(١) الفهرست ٦٢

(٢) أخبار النحو بين البصريين ص ٢٤

(٣) المزدهر ٣٩٨/٢

(٤) أخبار النحو بين البصريين ص ٢٥

(٥) أخبار النحو بين البصريين ص ٢١ . والفهرست ٥٩

(٦) انظر الشعر والشعراء ٢٥ طه شاكر .

اللغة وكان عبد الله « أعلم أهل البصرة وانقلهم ، فرع النحو وقاسه وتكلم في الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه (١) .

وأما أبو عمرو بن العلاء (١٥٤) فمن أشرف مازن وأحد الأعلام في القرآن واللغة ، وهو أحد القراء السبعة ، ويقول فيه أبو عبيدة : أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر ، وكانت دفاتره ملء بيته الى السقف (٢) . وأخذ عن نصر بن عاصم وعن يحيى بن يعمر وعن قارىء مكة عبد الله بن كثير .

وأما عيسى بن عمر فقد أخذ عن عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وأبى عمرو بن العلاء ، وعد في القراء البصريين ، وهو امام في العربية والنحو ، ولعله أول من ألف في النحو ، وقد وضع كتابين لم يصل الينا منهما أثر . والظاهر أن تلميذه الخليل بن أحمد قرأها وأعجب بهما فقال :

ذهب النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك (اكمال) وهذا (جامع) فهما للناس شمس وقمر (٣)

والظاهر أنهما فقدتا في زمن متقدم لأن أبا سعيد السيرافي — وليس بينه وبين عيسى بن عمر أكثر من مائتي سنة — يقول : لم يقعا الينا ولا رأينا أحدا ذكر أنه رآهما (٤) .

ويذكرون عن ابن عمر هذا انه كان فصيحا ، ويقول عنه ابن قتيبة : كان صاحب تعبير في كلامه واستعمال الغريب فيه (٥) .

وقد تلمذ على عيسى بن عمر الخليل بن أحمد وسيبويه وأبو زيد الأنصاري أئمة البصريين ، وأبو جعفر الرؤاسي الذي صار فيما بعد رأس الكوفيين ، وخلفه في ذلك تلميذاه الكسائي والقراء . وبهذه الطبقة نصل الى ما سموه بالمذهب الكوفي .

(١) الزهر ٢ / ٢٠٠

(٢) بغية الوعاة ٨٩

(٣) في أصول النحو لسعيد الافغاني ١٤١

(٤) الفهرست ٦٢

(٥) المعارف ٢٣٥

وكل واحد من هؤلاء مشهور ، فالخليل بن أحمد (١٧٥) كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليقه ، فقد بسطه وفرع على أصوله . وهو أول من استنبط العروض ، وعمل كتاب العين الذي تهيأ به ضبط اللغة . وهو أستاذ سيويه ، وعامة الحكاية في كتابه عنه ، فكلما قال سيويه (وسألته) أو « وقال » من غير أن يذكر المسؤل أو القائل فهو الخليل . هذا الى نواح أخرى مجيدة تدل على عبقريته وفضله على العربية . ويقول عنه ابن جنى : سيد قومه وكاشف قناع القياس في عمله (١) .

وأما أبو زيد الأنصاري (٢١٥) فكان ثقة صدوقا راوية ، وكان مقدما في النحو على الأصمعي وأبي عبيدة ، ولكن غلبت عليه اللغة والنوادير والغريب ، وحولها يدور أكثر مصنفاة .

وأما سيويه (١٨٠) فأمره مشهور وكتابه يعتبر قرآن النحو كما يقولون ، وكان في أول أمره يطلب الحديث والفقهاء . وذات يوم كان يستملى على حماد بن سلمة فقال حماد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس أحد من أصحابي الا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء . فقال سيويه : ليس أبو الدرداء . فقال حماد : لحت يا سيويه ، ليس أبا الدرداء ، فقال سيويه : لا جرم لأطلين علما لا يلحنني فيه أحد أبدا (٢) . وراح يطلب النحو فلازم الخليل بن أحمد وأخذ أيضا عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهما . وكان الخليل يؤثره ويقدمه على جميع أصحابه ، فدون سيويه جميع ما أخذه عن الخليل ، ونقل فيه عن غيره من بعض البصريين والكوفيين ، فجمع في كتابه ما لم يجتمع قبله في كتاب وصارت كتب النحو بعده عالية عليه .

والكتاب مملوء بالقياس والعلل والقروض مما يدل على أنه متأثر بفقهاء الحنفية وقد عاصر سيويه تلميذى أبي حنيفة أبا يوسف ومحمدا .

وقد روى « الكتاب » ونشره أبو الحسن الأخصف الأوسط ، وقد لزمه أثناء تأليفه ، وكان يقول في ذلك : ما وضع سيويه في كتابه شيئا الا عرضه على . وكان الأخصف مخلصا لسيويه ، فقد خرج الى بغداد لينظر الكسائى اتصارا

(١) الخصائص ٣٦٦/١

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية للاسكندرى ١٠٢

لشيخه سيبويه لأنه كان من كبار المتكلمين المعتزلة ومن أحذق الناس بصناعة الجدل . ولينتقل الآن الى رأس مدرسة الكوفة أبي جعفر الرؤاسي .

أخذ أبو جعفر العلم في البصرة على أئمتها كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، ولكنه لم ينسبه مثل تلاميذها الآخرين ، وعاش بالبصرة غير معروف (١) . وهو أول كوفي ألف في العربية ، وكل ما ورد في كتاب سيبويه من عبارة « وقال الكوفي » إنما يعني أبا جعفر الرؤاسي هذا . ويقال أنه عرض كتابه « النیصل » على أصحاب النحو بالبصرة فلم يلتفتوا اليه واستخزى هو من اظهاره . وهو يعد من قراء الكوفيين .

ولما رجع الى الكوفة وجد فيها عمه معاذ بن مسلم الهراء (١٨٧) مرجع الناس في العربية في هذه المدينة ، وكان يعنى بمسائل الصرف خاصة ، ويقال انه أول من وضع التصريف (٢) ، وتبعه في ذلك من قرأ عليه من الكوفيين حتى قيل انهم فاقوا البصريين فيها . ومن هنا عدتهم بعض العلماء واضعى على الصرف . وقد تخرج على الرؤاسي تلميذاه المشهوران الكسائي والقراء .

فالكسائي أعجمي الأصل وأحد القراء السبعة وامام الكوفيين في العربية . وسمى الكسائي لأنه كان يحضر مجلس معاذ الهراء والناس عليهم الخلل وعليه كساء ورداء (٣) ، واسمه « أبو الحسن علي بن حمزة » . وقد أخذ عن يونس البصرى ، وجلس في حلقة الخليل ثم خرج الى بوادي نجد والحجاز وتهمامة يأخذ عن الأعراب ، فانفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ ، ثم قدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي مكانه يونس ، فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره في موضعه . ثم انتقل الى بغداد فعاش في قصر الرشيد مؤدبا للأمين والمأمون ، ونال الخطوة وأقبلت عليه الدنيا . ولما خرج الرشيد الى الري اصطحب معه الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني فاتفق أن ماتا سنة ١٨٩ في يوم واحد فقال الرشيد : دفنت الفقه والنحو في يوم واحد (٤) .

(١) انظر معجم الأدباء ١٨/١٢٣

(٢) المزهر ٢/٢٠٢

(٣) الفهرست ٦٥

(٤) انظر الفهرست ٦٥ ووفيات الأعيان ١/٣٣٠

وأما الفراء فقد قرأ بالبصرة على يونس بن حبيب ثم قرأ على أبي جعفر
الرؤاسي ثم لازم الكسائي ببغداد . واسم الفراء « أبو زكريا يحيى بن زياد
الأسلمي » .

والذي حثه على الخروج الى بغداد شيخه الرؤاسي ، وقد صنف كتاب «معاني
القرآن» الذي قال فيه أحدهم : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أحدا يزيد
عليه^(١) . وكتبه التي تركها تدور حول مسائل من اللغة والنوادر والصرف
والنحو والقرآن . ويقول ابن النديم : كان الفراء يتفلف في تأليفاته ومصنفاته ،
يعنى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة^(٢) وكان غاية في الذكاء والحفظ ، وقد أمر
المأمون أن تفرد له حجرة من حجر دار الحكمة ووكل به من يكفيه كل حاجته
حتى لا تتشوف نفسه الى شيء ، وصير له الوارقين فكان يلقى وهم يكتبون حتى
صنف كتاب «الحدود» . واسم الكتاب يدل على تأثره بالمنطق ، فهو يريد بالحدود
التعاريف كحد الفاعل وحد المعرفة وحد الحال وهكذا ، وهذا يفسر لنا قول ابن
النديم . وكان الفراء عظيم الفضل ، ولذلك يقولون : لولا الفراء لما كانت اللغة
ويقول ابن الأنباري : لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية الا
الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس اذ انتهت العلوم
اليهما^(٣) .

وتكفيها هذه النبذة عن رجال المدرستين ، ولنحاول الآن تتبع الخلاف بينهما
ومعرفة طبيعته متوخين الايجاز فنقول :

يشاهد أن سيبويه ينسب أقوالا كثيرة في كتابه الى « الكوفي » وهو
أبو جعفر الرؤاسي . ويبدو أن مرافقة الرؤاسي للخليل بن أحمد أستاذ سيبويه
في القراءة على عيسى بن عمر الثقفي خلقت بينهما نوعا من الأنس سمح للخليل أن
يطلب من الرؤاسي كتابه ، فروى منه بعض أقواله لتلميذه سيبويه فأثبتها هذا
في كتابه . ويؤيد هذا أن الرؤاسي نفسه يقول : بعث الى الخليل يطلب كتابي

(١) الفهرست ص ٦٦

(٢) الفهرست ص ٦٦

(٣) طبقات الادباء ١٩٨

فبعثت به إليه فقراه^(١) . ومن المحتمل جدا أن يكون سيبويه قد أخذ من الرؤاسي بعض أرائه في النحو إبان إقامة الأخير بالبصرة .

وقد كان الخلاف يقع بين البصريين أنفسهم ، ولكنه لم يكن ذا خطر ، إذ لا يعدو أن يكون لونا من المذاكرة وحكاية الأقوال المخالفة والرد عليها . وكثيرا ما نرى سيبويه يورد لأشياخه أقوالا يخالفهم فيها . ويدلنا على ذلك قوله : وزعم الخليل .. وزعم يونس .

ومن المرجح أنه حدث خلاف بين الخليل والرؤاسي ، ولكنه كان خلافا لم تدنسه شوائب المادة ، فظل هادئا صافيا لأن كليهما كان عفيفا تقيا صالحا لا يأبه لأعراض الدنيا .

ثم شاء الله أن يقرب بنو العباس شيخ الكوفيين الكسائي وتلاميذه وأن يوكلوا إليهم أمر تربية أبنائهم من ولاة العهد والأمراء وأن يندقوا عليهم العطايا ، وذلك لأن أهل الكوفة — على العموم — كانوا أخلص للعباسيين وأحسن سابقة معهم لأنهم كانوا شيعة بنى هاشم ، على عكس أهل البصرة ، فقد كان أكثرهم عثمانيين . هذا إلى أن الكوفة قريبة من بغداد ، فقرع علماؤها أبواب العاصمة قبل أهل البصرة . ولذلك اتخذ الكسائي معلما لولدي الرشيد ، وتلميذه القراء معلما لأولاد المأمون ، وابن السكيت تلميذ القراء معلما لأولاد المتوكل . وقلما نجد بصريا يحظى بتقريب من قصر الخلافة كاليزيدي البصري أحد معلمى المأمون ، وكالمبرد الذى شارك ثعلبا الكوفي فى تعليم عبد الله بن المعتز .

وقد ذاق الكوفيون طعم الحياة الناعمة بجوار بيت الخلافة ، فحرصوا على ذلك أشد حرص ، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علما ، فأخذوا يحطون من قدرهم ويحولون بينهم وبين الخطوة المادية والأدبية لدى الخلفاء العباسيين لأنهم يعلمون علم اليقين أن علمهم قليل بجانب علم البصريين . ويقول أبو حاتم السجستاني : لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا ذكره لم يكن شيئا ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل الا حكايات الأعراب مطروحة لأنه كان يلقتهم ما يريد ، وهو على

(١) الفهرست ٢٤

ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن ، وهو قدوتهم واليه يرجعون (١) .
وأيا ما كانت المبالغة في قول أبي حاتم ، فلا جدال في أن الكوفيين كانوا دون
البصريين علما ومعرفة ، وانهم أرادوا ستر هذا القصور بالتمكين لأنفسهم في
قصور الخلفاء والاجهاز على خصومهم في غير ما هوادة أو ريث . ومن أجل هذا
كان الكوفيون يتحرون أن تكون الملاحظة بينهم وبين البصريين أمام الخلفاء وكبار
رجال الدولة ممن يدهم الأمر والسلطان . وكانوا يتخذون كل الوسائل
لكى يظفروا بالعلبة والنصر ليظامنوا من عزة البصريين ، ويرتفعوا هم
في أعين الخلفاء . وقد حدثت مناظرات كثيرة بين الفريقين ، وظل أوار
هذه المناظرات مندلعا حتى أواخر القرن الثالث . وكان البصرى والكوفى
لا يكاد يرى أحدهما الآخر حتى يحتدم النقاش بينهما في أمور النحو واللغة
جميعا . وقد أثبت الزجاجى في أماليه وياقوت في معجمه كثيرا من هذه المناظرات
الطريفة . وأشهرها مناظرة الكسائى والأصمعى في حضرة الرشيد (٢) ، وفيها
يستخرج الكسائى للكلمة عدة أوجه للاعراب ، وقد سكت الأصمعى لأنه كان
صاحب لغة ولم يكن صاحب اعراب . ومناظرة ابن الأعرابى والأصمعى عند سعيد
ابن مسلم ، وكانت لغوية ، وفيها هزم الأصمعى (٣) . ومناظرة الكسائى وسيبويه
بين يدي البرامكة (٤) . ومناظرة الكسائى واليزيدى وهو يحيى بن المبارك وقد
اتصل بخال المهدي يزيد بن منصور الحميرى ليؤدب أولاده ، واليه نسب فقيل له
(اليزيدى) . وكانت هذه المناظرة نحوية وجرت في حضرة المهدي ، وهى تبين لنا
مبلغ مخالفة الكسائى ، وقد غلبه اليزيدى (٥) .

وأخيرا مناظرة المبرد وثعلب (٦) ، وفيها يرمى كل منهما الآخر بالتمويه
والكذب والادعاء .

(١) معجم الأدباء ١٣/١٩٠

(٢) انظر أمالي الزجاجى ص ٣٤ ومعجم الأدباء ١٣/٨٣

(٣) أمالي الزجاجى ص ٣٩

(٤) معجم الأدباء ١٣/١٨٥ وأبو الفدا ٢/١٦

(٥) أمالي الزجاجى ص ٤٠ ومعجم الأدباء ١٣/١٧٨

(٦) أمالي الزجاجى ص ٣٩ ومعجم الأدباء ١٩/١١٨

وكانت الغلبة في معظم هذه المناظرات للكوفيين بطبيعة الحال لأن الزمن كان يجرى في ركبهم كما قلنا ، وكان يعينهم على الفوز هؤلاء الأعراب الذين كانوا يقفون بباب الخلفاء معتفين ، اذ يقال انهم كانوا يحملون على تأييد الكسائي بالرشوة أو بالايعاد ، وأحيانا كانوا يتقدمون هم أنفسهم بذلك ارضاء للخليفة ورجال السلطان الذين كانوا يميلون الى الكوفيين .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن هذه العصية العلمية بين المدرستين كانت مؤسسة على العصية السياسية التي ظهرت بين المصريين ^(١) . وأنا أرى أنها كانت متأثرة بها وليست مؤسسة عليها لأن العلماء أيا ما كان موطنهم في ذلك العصر كانوا في تنافس لا ينقطع ولذلك كان أهل مصر الواحد يختلفون فيما بينهم كالذي كان يحدث بين يونس والخليل البصريين ، وبين المفضل الضبي وحماد الراوية الكوفيين . بل ان المبرد البصري قد أفرد كتابا في القدح في كتاب سيويه والغص منه .

ونستطيع أن نرد الخلاف بين المذهبين البصري والكوفي الى أمرين :

السمع والقياس . ولنتحدث عن كل منهما بشيء من الإبانة .

كان أكثر عرب البصرة من قيس وقيم ، وهاتان القبيلتان في الذروة الأولى ممن يؤخذ عنهم ويقتدى بهم في اللسان العربي . وكانت تحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لم تصد لغتها بمخالطة الأعاجم .

وكانت هذه القبائل ترد سوق البصرة المشهورة (المبرد) وهي - كما يقولون - عكاظ الاسلام ، فيها تناشد وتفاخر كما فيها تجارة وبيع .

وكانت البصرة الى جانب ذلك تقع على سيف البادية ، فقامت رحلات متبادلة بين علماء البصرة والأعراب ، فكان لذلك كله أثره في فصاحة أهل البصرة وسلامة لغتهم . ومن ثم ضربوا المثل بأدب البصريين ، وجعلوا هذا الأدب بمنزلة ما اقتصت به الأمم طبيعة من الميراث التاريخي كفلسفة اليونانيين وصناعة أهل الصين وما إليها .

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٤

ولقد ضرب في بوادي الجزيرة الأصمعي وأبو عبيدة ويونس وأبو زيد والخليل وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم . وكانوا يتحرون في الأخذ عن العربي سلامة لغته وسليقته وعن الراوي الصدق والضبط . وكان الخلفاء في زمن بني أمية لا يثقون الا في علماء البصرة ، فقد حدث أهل البصرة أنهم كانوا يرون كل يوم راكبا من ناحية بني مروان ينيخ على باب قتادة بن دعامة السدوسي (وكان أجمع الناس توفي سنة ١١٧) يسأله عن خبر أو نسب أو شعر^(١) . ويصف أبو عمرو بن العلاء تدافع الناس وازدحامهم عليه فيقول : لو أمكنت الناس من نفسي ما تركوا لي طوية^(٢) .

أما الكوفة فهي أدخل في العراق وأقرب الى الاختلاط بالأعاجم ، ولغة أعرابها أقل سلامة من لغة أعراب البصرة لأن أكثرهم من عرب اليمن .

وكان يطرأ عليها ضعاف الأعراب ، فأسرع الفساد الى لغة أهلها . وبظاهر الكوفة كانت منازل النعمان بن المنذر والحيرة والخورق والسدير وما هناك من القصور والمنتزهات . وكل ذلك غير طبيعي في تاريخ الفصاحة العربية .

هذا الى أن بين الكوفة وجزيرة العرب بادية السماوة مما جعل رحلات علمائها الى الجزيرة شاقة عسيرة . وكان للكوفة سوق أرادوا بها أن تحاكي مريد البصرة وهي سوق (كناسة) ، لكنها كانت داعية الى افساد اللغة لا عاملا على صيانتها ، لأن الأعراب الذين كانوا يؤمنونها غير فصحاء .

ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يفتخرون الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكواميخ^(٣) . والمراد الأخذ عن أعراب البادية الجفافة وأعراب الأسواق الضعفاء الذين اختلطوا بأهل المدن . وقد ذكروا أن الكسائي ذهب الى البصرة مرة وأخذ العلم الصحيح عن أساتذتها ثم خرج الى بغداد فقدم أعراب الحليمات وهم غير فصحاء ، فأخذ عنهم شيئا فاسدا فخلط هذا بذلك فأفسده .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١/٤١٠

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تاريخ الرافعي ١/٣٧٠ . حرش الضب : صاده . الربوع : دويبة . الشواريز : الألبان الشخينة . الكواميخ : المخللات يشهى بها الطعام .

كل هذه العوامل صرفت الكوفيين الى رواية الشعر ، فذلك هو الميسور لهم .
ويبدو لى أن ذلك كان ميراثا فيهم منذ نزلها العرب ، ويدلنا على ذلك أن عليا
كرم الله وجهه لما رجع بهم من قتال الخوارج على أن يستعدوا لقتال أهل الشام
فتخاذلوا عنه لم ير أبلغ في ذمهم من صفة التشاغل بالشعر فقال يخطبهم : « اذا
تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار ،
تربت أيديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من
ذكرها ، وشغلتوها بالأباطيل والأضاليل (١) » .

ومن الطريف أن حمادا الراوية يثبت تأصل اشتغال الكوفيين بالشعر فيزعم
أن المختار بن ابي عبيد لما خرج بالكوفة قيل له أن تحت القصر الأبيض الذى كان
للنعمان كنزا ، فاحتقره فوجد الطنوج (أى الكراريس) التى كان النعمان أمر
أن ينسخ فيها أشعار العرب فأخرجها ، قالوا : فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم
بالشعر (٢) .

وكان الكوفيون الى جانب ذلك لا يعنون بصدق الراوى وضبطه كما كان
يفعل البصريون ، ولذا كثر الموضوع فى أكثر رواياتهم . قال أبو الطيب اللغوى :
الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى
من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم (٣) .

وقصة خلف الأحمر مع الكوفيين معروفة (٤) . وروايتهم الأكبر حماد الراوية
كالثمس شهرة فى الكذب والوضع (٥) ، وله قصة مشهورة مع المهدي بحضور
المفضل الضبى وفيها يصرح فى غير خفاء بأنه قد نحل زهيرا بعض الأبيات (٦) .

هذا فرق ما بين المدرستين فى أمر السماع وصحته والتحرى فيه . أما القياس
فالأمر بينهما فيه مختلف كذلك ، فلقد جعل البصريون هدفهم عصمة اللسان من

(١) نهج البلاغة ١٧٠/١

(٢) الخصائص ٣٩٣/١

(٣) مراتب النحويين ١١٩

(٤) انظر وفيات الأعيان ٣٩٣/١

(٥) اقرأ كلمة المفضل الضبى عنه فى معجم الأدباء ١٠/٣٦٥

(٦) انظر الاغانى ١٧٣/٥ بولاق .

الخطأ وتيسير العريية على من يتعلمها من الأجانب ، ولذلك نراهم يضعون قواعدهم على الأعم الأغلب . فاذا تناثر هنا وهناك نصوص قليلة لا تشملها قواعدهم مع ثبوت صحتها تأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة ، أو نصوا على شذوذها فتحفظ ولا يقاس عليها .

فالبصريون قد أحسنوا صنعا بمنهجهم هذا لأنهم حكموا المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم متماسكة متناسقة في الجملة . ولا بد في كل تنسيق من تشايب يخرج بعض النتوء من الهيكل المشذب ، فكانوا يختارون من اللغة أشيعها وأقربها الى القياس . وهذا عمل جليل حفظ اللغة وصانها من العبث ، وقد بين هذا المنهج أبو عمرو بن العلاء اذ سأله رجل : أخبرني عما وضعت مما سميت عريية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقال : كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : احمل على الأكثر وأسمى ما خالفني لغات (١) .

أما الكوفيون فانهم جمعوا كل ما وصلت اليه أيديهم من لغات العرب بلهجات قبائلها ، فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ ، وأخذوا عن فسدت لغته من الأعراب وأهل الحضرة ، ثم جعلوا كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه فتشتت قواعدهم ، ولم يعد لها ما يمسكها من نظام أو منطق ، وضاعت الغاية من وضع النحو وهي كونه أداة تيسير لتعلم العريية ، اذ أصبح لهم قواعد بقدر ما جمعوا من شواهد . ويقول ابن يعيث : فلو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه بخلاف البصريين (٢) .

وأول من سن للكوفيين هذه الطريقة شيخهم الكسائي ، وقد قال ابن درستويه أحد تلاميذ ابن قتيبة : كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز الا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك (٣) . ولقد ضاق اليزيدي بالكسائي وبقياسه وبسماحه فقال :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه على لى أشياخ قطر بل
ان الكسائي وأشياعه يرفون بالنحو الى أسفل (٤)

(١) ضحى الاسلام ٢٥٩/٢

(٢) شرح المفصل ٢٥٠ طبعة اوربا .

(٣) بغية الرعاة ٣٢٦

(٤) أخبار النحو بين البصريين ص ٤٤ ومعجم الأدباء ٢٠/٣١

ولهذا وأشباهه اضطر الكوفيون الى الوضع فيما لا يصيون له شاهدا .
وأنت تجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر
بيت لا يعرف شطره الآخر كالشاهد الذي يحتجون به على جواز دخول اللام في
خبر لكن ، وهو قول القائل المجهول : ولكنني من حبها لعמיד .

وتتج عن ذلك كله أنهم كانوا يجيزون الأوجه الكثيرة في الأعراب ولا
يعدمون أن يجدوا لكل وجه شاهدا من لدنهم . ومن أجل ذلك كثرت روايتهم
للشعر .

ومن غريب الأمر أن الكسائي هذا الذي كان يروى عن غير ثقاة الأعراب
كان يبكى خوف الزلزل ، فقد دخل عليه الفراء يوما فوجده يبكى فقال ما يبكيك ؟
قال : هذا الملك يحيى بن خالد يوجه الى ليحضرني فيسألني عن شيء ، فان
أبطأت في الجواب لحقني منه عتب ، وان بادرت لم آمن الزلزل . قال الفراء :
يا أبا الحسن من يعترض عليك ؟ قل ما شئت فأنت الكسائي . فأخذ الكسائي
لسانه وقال : قطعه الله اذن اذا قلت ما لا أعلم (١) .

ونستطيع أن نجمل النزعتين بكلمة للأستاذ أحمد أمين يقول فيها : ان
البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا ، وان طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا
على اللغة . والكوفيون أقل حرية وأشد احتراماً لما ورد عن العرب ولو موضوعا .
فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق ويميتوا كل أسباب
الفوضى من رواية ضعيفة أو موضوعة أو قول لا يتمشى مع المنطق . والكوفيون
يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ من غير أن يهملوا شيئا حتى
الموضوع ، فكل عملهم أن يضعوا الشيء الى لفته ، فاذا كان للشيء الواحد جملة
صور وضعوا له جملة قواعد (٢) .

فلا عجب اذا حكم الزمن لعلم البصريين بالبقاء لأنه الأضبط ، ولا عجب اذا
كان نحو الناس بصريا حتى اليوم .

ويلاحظ أن الكوفيين قد اتجهوا في العلم جهة الايضاح والتبسيط أكثر مما
فعل البصريون حتى أن الفراء مؤدب أولاد المأمون جعل النحو في متناول

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢٥٧/١

(٢) ضحى الاسلام ٢٩٦/٢

الصبيان . وعلّة ذلك — فيما يرى الأستاذ أحمد أمين — قرب الكوفيين من الخلفاء واشتغالهم بمهنة تأديب الأمراء ^(١) . وهذا تعليل مقبول .

وهناك أمر يجب أن نشير إليه وهو أن النحاة جميعاً قد اتخذوا في أصولهم أصول الفقه عند الحنفية خاصة . ويصرح ابن جنى بذلك فيقول : ينتزع أصحابنا العلل من كتب محمد بن الحسن الشيباني ^(٢) . وقد ظل هذا الاحتذاء ملازماً للنحاة في مختلف عصورهم ، فالسيوطي الذي توفي سنة ٩١١ يؤلف كتاب « الاقتراح » ويقول في المقدمة : « ورتبته على نحو أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم ... فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه من قياس العلة وقياس الشبه وقياس الطرد ، إلى غير ذلك على حد أصول الفقه ، فان بينهما من المناسبة ما لا يخفاء به لأن النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول » .

وقد ظل الخلاف محتدماً بين المدرستين حتى أصبحت مدينة بغداد مورد طلاب العلم ومهبط العلماء من كل فج بسبب تشجيع الخلفاء للعلم واغداق المال على المشتغلين به واستقدامهم لتعليم الأمراء ، فالتقت في مدينة بغداد ألوان من كل علم وفن اختلطت وامتزجت وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة . وذلك ما كان في النحو ، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون وسعى كل منهما في نشر مذهبه ، حكى الأخفش : وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائي فصليت خلفه الغداة ، فلما انقزل من صلاته وقعد بين يديه القراء والأحمر وابن سعدان سلمت وسألته عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته في جميعها ^(٣) . وهذا يدل على أن المذهبين كانا يتسابقان في بغداد .

وقد نشأ عن ذلك طبقة جديدة في بغداد اختارت من المذهبين وكونت ماعرف بالمذهب البغدادى . ويلاحظ أن الطابع البصرى أغلب في المذهب البغدادى على العموم ، وذلك لأن الاصاله التي في المذهب البصرى قد فرضت نفسها عليهم فرضاً . والبقاء للأصلح كما يقولون .

(١) ضحى الاسلام ٣١٢/٢

(٢) الحصائص ١٦٨/١

(٣) معجم الأدباء ٢٤٣/٤

وكان خاتمة الخلاف بين المدرستين ممثلة في النزاع الذي كان بين أبي العباس ثعلب الكوفي المتوفى سنة ٢٩١ والمبرد البصرى المتوفى سنة ٢٨٥ . وبعدها زال هذا النزاع أو على الأقل زالت حدته ، وأصبحت مواطن الخلاف بين المدرستين تدرس على أنها مسائل تاريخية كما يصنع الأساتذة المشتغلون بالنحو في هذه الأيام .

وقد ألف أبو البركات ابن الأتبارى كتابا في الخلاف بين نحاة المصرين على نمط ما صنع الفقهاء في كتبهم التى لقوها في الخلاف بين الحنفية والشافعية واسم الكتاب « الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » .

ويقول في مقدمته : « سألتنى أن ألخص لهم كتابا لطيفا يشتمل على مشاهير المسائل الخلاقية بين نحويى البصرة والكوفة على ترتيب المسائل الخلاقية بين الشافعى وأبى حنيفة ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب .. الخ » . وقد سرد ابن الأتبارى مائة وعشرين مسألة من المسائل التى كانت موضع خلاف بين علماء المدرستين . وللكتاب نصيب كبير من اسمه لأن المؤلف قد برأ نفسه من التعصب واعتصم بالانصاف . ويتوهم البعض أن الرجل يميل الى البصريين ولذلك يرجح آراءهم في كثير من الأحيان ويرد على الكوفيين . والواقع أنه كان مصنفا أشد انصاف ، ولم يكن ترجيحه للمذهب البصرى ناجما عن التعصب ، وإنما كان مبعثه الانصاف الذى تزكاه استقامة المذهب البصرى .

8

13

الشعر الحر

نشأته وخصائصه

للككتور ماهر حسن فهمي

المدرس بقسم اللغة العربية

ان الباحث في هذا الموضوع يدرك أن المحاولات القوية فيه قد بدأت بعد الحرب العالمية الثانية . ففي عام ١٩٤٧ طلع علينا الدكتور لويس عوض بكتاب غريب هو « بلوتولاند » . ولقد كان الكتاب غريبا حقا : غريبا في صورته ، غريبا في مادته ، حتى لقد أنكره كل من قرأه ، سوى نفر قليل من الشباب الحيارى الذين وجدوا فيه تعبيرات عن أشياء يحسونها ولا يدركونها حق الادراك ، وقد اضطر المؤلف بعد ذلك الى سحبه من السوق .

١٩٤٦

أما الخطوة الكبرى فكانت بعد ذلك بعامين حين طلعت علينا « نازك الملائكة » الشاعرة العراقية بديوانها « شظايا ورماد » وتضمن الديوان مجموعة من الشعر الحر ، ولكن المهم هو مقدمة الديوان ، التي دافعت فيها عن وجهة نظرها فرأت أن الأوزان قد كبلت الشاعر منذ القدم بقيود أصبح مضطرا معها الى أن يصوغ معانيه في قوالب ظلت تتكرر وتتجبر على مر السنين فلم نستطع أن نبدع ما أبدعه غيرنا ، وفي ذلك تقول : « فنحن عموما ما زلنا أسرى ، تسيرنا القواعد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية وصدر الاسلام . وما زلنا نلهث في قصائدنا ونجر عواطفنا المقيدة بسلاسل الأوزان القديمة ، وقرقعة الألفاظ الميتة ، وسدى يحاول أفرادنا أن يخالفوا فاذ ذاك يتصدى لهم ألف غيور على اللغة وألف حريص على التقاليد الشعرية التي ابتكرها واحد قديم أدرك ما يناسب زمانه ، فجمدنا نحن ما ابتكر واتخذناه سنة . كأن سلامة اللغة لا تتم الا ان هي جمدت على ما كانت عليه منذ ألف عام ، وكأن الشعر لا يستطيع أن يكون شعرا ان خرجت تفعيلاته على طريقة الخليل . ويقولون ما لطريقة الخليل ؟ وما للغة التي استعملها آباؤنا

منذ عشرات القرون ؟ والجواب أوسع من أن يمكن بسطه في مقدمة قصيرة لديوان . ما لطريقة الخليل ؟ ألم تصدأ طول ما لا مستها الأقلام والشفاه منذ سنين وسنين ؟ ألم تألفها أساعنا ، وترددها شفاها ، وتعلقها أقلامنا ، حتى مجتهدا وتقيأتها ؟ منذ قرون ونحن نصف انفعالاتنا بهذا الأسلوب حتى لم يعد له طعم ولا لون . لقد سارت الحياة ، وتقلبت عليها الصور والألوان والأحاسيس ومع ذلك مازال شعرنا صورة لقفانبك وبانت سعاد . الأوزان هي هي ، والقوافي هي هي ، وتكاد المعاني تكون هي هي . «^(١) ثم تحاول أن تثبت رأيها بطريقة عملية فتأتي بمعنى وتصوغه مرة صياغة حرة ومرة أخرى تلتزم الأوزان التقليدية ، فيتبين لها أن الصياغة الأولى قد أدت المعنى بطريقة موجرة وأن الصياغة الثانية قد استدعت زيادة بعيدة عن المعنى تكمل بها البحر .

ولنستمع إليها تقول : « الأبيات التالية تنتمي الى البحر الذي سماه الخليل (المتقارب) وهو يرتكز الى تفعيله واحدة هي (فعولن) :

يداك للمس النجوم .

ونسج الغيوم ...

أتراني لو كنت استعملت أسلوب الخليل ، كنت أستطيع التعبير عن المعنى بهذا الإيجاز وهذه السهولة ؟ ألفت لا . فأنا اذ ذاك مضطرة الى أن أتم بيتا له شطران ، فأتكلف معاني أخرى غير هذه ، أملأ بها المكان ، وربما جاء البيت الأول بعد ذلك كما يلي :

يداك للمس النجوم الوضاء ونسج الغمام ملء السماء

وهي صورة جنى عليها نظام الشطرين جنابة كبيرة . ألم نلصق لفظ « الوضاء » بالنجوم دونما حاجة يقتضيه المعنى اتاما للشطر بتفعيلاته الأربع ؟ ألم تنقلب اللفظة الحساسة « الغيوم » الى مرادفتها الثقيلة « الغمام » وهي على كل حال لا تؤدي معناها بدقة ؟ ثم هنالك هذه العبارة الطائشة « ملء السماء » التي رقعنا بها المعنى ، وقد أردنا له الوقوف فخلقنا له عكازات ؟ هذا كله اذا نحن

(١) شظايا ورماد ص ٧ ، ٨ (نظم نازك الملائكة : بيروت — الطبعة الثانية — سنة ١٩٥٩) .

اخترنا الوزن « المتقارب » أما اذا اخترنا « الطويل » مثلا ، فالبلية أعمق وأمر .
اذذاك تطول العكازات وتوسع الرقع ، وينكمش المعنى انكماشاً مهيناً^(١) .

ثم نتحدث بعد ذلك عن القافية كعائق يعترض أحاسيس الشاعر وتتحطم عليه وحدة القصيدة ، فتدعم بذلك أدلتها في اختيار الشعر الحر الذي تحرر تماما من القافية فنقول : « ثم نتحدث عن القافية ، ذلك الحجر الذي تلقمه الطريقة القديمة كل بيت . قالوا ان العربية لغة واسعة غنية ، وان ذلك يبرر كونها اللغة الوحيدة التي اتخذت القافية الموحدة سنة في قصائدها ، ونسوا أن أية لغة مهما اتسعت وغنيت ، لا تستطيع أن تمد « ملحمة » بقافية واحدة ، أيا كانت ، ولم ينتبهوا الى أن ذلك كان واحدا من الأسباب التي حالت دون وجود الملحمة في الأدب العربي ، مع أنها وجدت في آداب الأمم المجاورة كالفرس واليونان . وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفادحة التي أنزلتها القافية الموحدة بالشعر العربي طيلة العصور الماضية ، وانما المهم أن نلاحظ أن هذه القافية تضيء على القصيدة لونا رتبيا يعل السامع فضلا عما يثير في نفسه من شعور بتكلف الشاعر وتصيده للقافية . ومن المؤكد أن القافية الموحدة قد خنقت أحاسيس كثيرة ، وأدت معاني لا حصر لها في صدور شعراء أخلصوا لها . ذلك لأن الشعر الكامل — الغنائي منه خاصة ، والشعر العربي غنائي كله تقريبا — لا يستطيع أن يكون الا وليد الفورة الأولى من الاحساس في صدر الشاعر ، وهذه الفورة قابلة للخمود لدى أول عائق يعترض سبيل اندفاعها ، فهي أشبه بحلم سرعان ما يفيق منه النائم ، والقافية الموحدة قد كانت دائما هي « المائق » فما يكاد الشاعر يفعل وتعتريه الحالة الشعرية ، ويمسك بالقلم فيكتب بضعة أبيات ، حتى يبدأ محموله من القوافي يتقلص ، فيروح يوزع ذهنه بين التعبير عن انفعاله ، والتفكير في القافية ، وسرعان ما تفيض الحالة الشعرية وتهمد فورتها ويمضي الشاعر يصف الكلمات ويرص القوافي دونما حس . ولذلك قلما نجد في أدبنا القديم قصائد موحدة الفكرة ، يسيطر عليها جو تعبيرى واحد منذ مطلعها الى ختامها . فالشاعر يضطر الى مصانعة القافية ، وأنا أعرف شعراء يختارون القافية ، ثم يكتبون البيت وفقا لها ، وهذا أبرز دليل على طغيان هذه الآلهة المعرورة^(٢) .

(١) مقدمة شظايا ورماد ص ١٠ ، ١١

(٢) مقدمة شظايا ورماد ص ١٢ ، ١٣

ولا يمتضى عامان آخران ، حتى تظالمننا قصيدة عبد الرحمن الشرقاوى ، التى طبعت بعنوان « خطاب مفتوح من أب مصرى الى الرئيس ترومان » وهى قصيدة جديدة فى صورتها من حيث اتخاذها أسلوب الخطاب وطريقته ، وعدولها نهائيا عن عمود الشعر العربى المعروف .

ومن أجل هذا أحدثت القصيدة ضجة أدبية ، ومن أجل هذا أيضا لقبه الدكتور لويس عوض بالشاعر الجور فى مقاله الذى نشر باحدى الصحف اليومية ، والذى عرض فيه الصورة الجديدة للقصيدة قائلا : « فى هذه الصورة قد تبلور تطور الحساسية الشعرية من جيل الأمس الى جيل اليوم . فلقد كان يمكن أن ينظم شوقى أو الزهاوى أو حافظ أو الرصافى أو العقاد أو رامى أو ناجى أو طه المهندس القريض فى السلام فيخرج لنا منهم قريض رفيع فى مادته رفيع فى صورته ، ولكنه قريض غير هذا القريض الذى تقرأ اليوم من جيل اليوم ... أما عبد الرحمن الشرقاوى فقد أنشأ لنا طريقة جديدة فى الأداء لم نألفها من قبل ، واستحدث لنا صورة للشعر ما كان يمكن أن تكون فى الماضى ، وما فعل كل ذلك افتعالا ولكنه فعله لأن الحساسية الشعرية والمفهومات الشعرية قد تغيرت من جيل الى جيل . فهو أولا قد اختار لنفسه اطارا عاما هو إطار الخطاب أو الرسالة ، فكان هذا أول خروج على قواعد الانشاء التى عرفناها فى القدماء ومن تأدبوا على القدماء . قال الشرقاوى :

يا سيدى^(١) .

اليك السلام وان كنت تكره هذا السلام
وتغرى صنائعك المخلصين لكى يبطشوا بدعاة السلام
ولكننى ، سأعدل عن مثل هذا الكلام
وأوجز فى القول ما أستطيع
فأنت معنى بشتى الأمور ، بكل الأمور .

ومن هذا ترى أن الاطار العام ، اطار الخطاب المفتوح الذى اختاره عبد الرحمن الشرقاوى ، قد فرض عليه اتجاهها فى الأداء والصياغة ، وهو أقرب

(١) خطاب مفتوح من أب مصرى الى الرئيس ترومان (نظم عبد الرحمن الشرقاوى : القاهرة - ١٩٥١) .

الى لغة النثر منه الى لغة الشعر . وقد أحدث « عبد الرحمن الشرقاوى » حدثا فى قواعد الانشاء الأدبى حين أثبت أن الشعر الرفيع يمكن أن يؤدي بلغة النثر المؤلف ... كان من الممكن أن يهرب عبد الرحمن الشرقاوى من اللغة التى يستخدمها الناس صباح مساء فى سنة ١٩٥١ ، وأن يستحلب الشعرية ، ولا أقول الشعر ، استحلابا من لغة الماضى البعيد بكل ما فيها من جلجلة لفظية سامية تنضح بالشاعرية لا لسبب الا لأنها بعيدة عن الحياة اليومية المتبدلة ، وتفيض بالسحر لا لسبب الا لأنها مرتبطة فى أذهان الناس بالقول الساحر الذى قاله الأولون كذلك كان فى امكان عبد الرحمن الشرقاوى أن يهرب من هذه اللغة الحيوية فى لفظها وفى معناها الى لغة روماتيكية سامية ليستحلب الشعر استحلابا من ضرع الخيال الذى يحيا فيه صاحبه ، ولكن الناس لا يحيون فيه ... لقد أثبت الشرقاوى كما أثبت « اليوت » أن الأداء الشعرى القديم قد أصبح مستهلكا غير ذى موضوع لا تربطه بحياة العصر رابطة أو سبب . كذلك أثبت الشرقاوى ، كما أثبت اليوت أن موت شوقى وحافظ كموت تنسيون وبراوننج ، لم يكن نهاية الحياة ، بل كان نهاية عصر انتهى^(١) .

وكأما كانت هذه القصيدة حقيقة بداية لحركة هائلة فى شعرنا المعاصر ، وصيحة تردد صداها فى منتدياتنا الأدبية ، وتتابعت بعدها دواوين الشعراء تسير على هذا النسق الجديد .

ففى عام ١٩٥٤ صدر ديوان « أباريق مهشمة » لعبد الوهاب اليباتى ، وفى عام ١٩٥٦ صدر ديوان « قصائد » لنزار قبانى ، وفى عام ١٩٥٧ صدر ديوان « الناس فى بلادى » لصلاح عبد الصبور ، وفى عام ١٩٥٩ صدر ديوان « مدينة بلا قلب » لأحمد عبد المعطى حجازى ، وفى عام ١٩٦١ صدر ديوان « أنشودة الطريق » لكمال نشأت . بل لقد أخذت الدوريات تهتم اهتماما كبيرا بذلك الشعر الحر ، حتى غلب هذا اللون على أشهر مجلاتنا الأدبية كالأديب والآداب وغيرها .

ولكن هذه الحركة الجديدة لم تجد الطريق أمامها سهلا ، ولم يهتف لها النقاد — كل النقاد — ولم تخل من بعض الأخطاء فى أول الأمر ، فقد غلب عليها

(١) جريدة المصرى ٢٦ مارس ١٩٥٤

نون سوداوى ، لا يصور بيئتنا بخصائصها المعروفة ، وان ادعى الشعراء أنهم واقعيون ، حتى شك بعض النقاد في أصالة تجاربهم ، وفي فهمهم لهذا الاتجاه ، حين لم يجدوا في قيثاراتهم غير وتر واحد حزين ، وحين وجدوهم يسرفون في التوقيع عليه ، ويسرفون في اختيار مادتهم من صور البؤس وحدها .

وفي ذلك يقول الدكتور عبد القادر القط : « والحق أن الواقعية لا تتمثل في اختيار الموضوع بقدر ما تتمثل في طريقة معالجته ، فالواقعية طريقة خاصة في ادراك الحياة ، والنظر الى الأشياء على اختلاف ألوانها ، وكل موضوع يصلح ليكون مادة لقصة واقعية أو لأخرى رومانسية ، وانما يتحكم في ذلك طبع الكاتب وثقافته ووعيه الاجتماعى ، وطريقة احساسه بالحياة . فالحاح كتابنا على تلك الصور المظلمة المتشائمة هو نتيجة فهم خاطيء عند كثير منهم لطبيعة المذهب الواقعى ، وتضييق لدائرة ابداعهم ، ينتهى بالقارئ في كثير من الأحيان الى السقم ثم الى الشك في صدق ما يقرأ^(١) .

هذا من ناحية المادة أو المضمون ، وأما من ناحية الشكل ، فقد دارت معركة بين العقاد وطه حسين من ناحية وبين المدافعين عن هذا المذهب الجديد ، وجمع حصادها في كتاب « فى الثقافة المصرية » لمحمود العالم وعبد العظيم أنيس . ويؤثر عن العقاد فى النوادى الأدبية — وهو رئيس لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب — أنه كان يحول كل قصيدة ترد اليه من هذا الشعر الحر ، الى لجنة النشر للاختصاص ، دلالة على عدم اعترافه به .

وربما اعتبر النقاد المهاجمون أيضا أن هذا الشعر الحر وسيلة ميسرة لكل شاعر عاجز ، فهو غير مقيد بوزن ، وغير مقيد بقافية . ومن الحق أن المتطفلين قد كثروا ، وأن الأديباء قد ملأوا الصحف بشعرهم المسف ، ولكن بوتقة الزمن لم تبق الا الجيد منه ، كما لم تبق من الشعر العربى القديم الا أصلحه للبقاء فى أكثر الأحيان . ولكن من الحق أيضا أن الشعراء الأصلاء أصحاب هذا الاتجاه الجديد — الذين ذكرنا دواوينهم — كلهم قد بدأوا حياتهم ينظمون بالطريقة التقليدية ، ثم عزفوا عنها حين وجدوا أن الشعر الحر يتيح لتجاربهم أبعادا أكبر ، وتعبيرا أكثر دقة وأشد انطلاقا من الشعر التقليدى .

والنقاد الذين دافعوا عن الشعر الحر رأوا أنه بعيد عن شعر المناسبات التي كان ينظم فيها شوقي وحافظ وغيرهما ، وإنما هو ارتباط تام بين الشاعر والمجتمع . صحيح أنه يعالج القضايا العامة ، ولكن من خلال التجارب الذاتية ، وفي ذلك يقول «العالم» : « فهو لا يعرض القضايا العامة كما كان يفعل حافظ وشوقي ومحرم عرضاً تقريرياً ، بل انه يتمثل هذه القضايا العامة خلال تجاربه الذاتية . وهكذا جمع الشاعر الحديث بين ظاهرتين متعارضتين في التعبير الشعري السابق ، جمع بين التعبير التقليدي العام والتعبير الذاتي ، جمع بين التجربة الشخصية والقضية العامة ، فخلص القضية العامة من الجمود والتقريرية ، وخلص التجربة الذاتية من الخصوصية والانزغال » . ويدلل على رأيه هذا بأبيات الشرقاوى التي تعرض لقضية السلام عرضاً ذاتياً بعيداً عن التحليل والتقرير ، وإنما يقول في بساطة ويسر :

فدعنى أقل لك أنى أبك
وأنت أب وكلانا حنون
ولى طفلة كائتلاق الصباح
كحلم الربيع ، كهمس القبل
كنوارةٍ فى اخضرار الحقول ينغنج فى شفتيها الأمل
كعصفورةٍ فى المروج الفساح

ومن خلال هذه الرابطة الانسانية يتحدث الشاعر عن ابنته وهى تحاول أن تسير ، وكلما ترنحت قامت بعزيمة جديدة :

تحاول جاهدة أن تسير وكانت لعهدى لم تقعد
فحينما تلوذ الى حائطٍ فإن لم تجد فالى مقعد
ويا ربما رنحتها الحطى ويا ربما وقعت ضاحكه
لتنهض عازمةً من جديدٍ كذلك تمضى بنا المرکه
تدربها عشرات الطريق وتدفعها خبرة التجربه

(١) فى الثقافة المصرية ص ١٢٦ (تأليف محمود العالم وعبد العظيم انيس
بيروت - ١٩٥٥) .

وهكذا أخذ الشاعر ينتقل انتقالا يتمثل فيه تجربته ، انتقالا من الحدث الخاص الى الحدث العام ثم يخلص الى قوله :

ألسن تصون حياة ابتك ؟

فهل تصنع الموت للأخريات ؟

وانى لأدعوك باسم الأبوة باسم الحياة وباسم الصغار

لتعقد حلقا يصون السلام ويرعى المودات بين الكبار

فأنت أب قد صنعت الحياة ولن تصنع الموت بعد الحياة

وهكذا تبيض القضية العامة بلمسات قريبة الى القلوب ، أشد ما تكون ألفة وحياء . فالحقائق السياسية العابرة التي تنتهى بانتهاى مناسبتها لن تكتب للشعر البقاء ، والحقائق الفردية التي لا تتصل بالحياة والتي يترنم بها الشاعر فى برجه العاجى لن تعيش طويلا فى الأذهان .

« وجيلنا الحاضر فى الغالب يميل بطبعه ومزاجه العلمى التقدى الى الشعر الهادف الذى يتحدث عن كرامة الانسان ، ويؤمن بوجود تحرره المادى والمعنوى ، ولا يميل الى الشعر الصافى الذى يرمى الى مجرد الطرب والمتعة ... ويؤثر الشعر ذا المعانى المحددة على الشعر ذى المعانى والفكرات المطلقة »^(١).

ومن الحق أن نظرة الدكتور عبد القادر القط كانت صائبة حين قالها منذ سنوات ، فالذى يقرأ مثلا ديوان « المجد للأطفال والزيتون » لعبد الوهاب البياتى ، يجد طعما مرا شديدا المرارة ، ولكن الواقع أيضا أن هذا الاتجاه الجديد قد أخذ يتجه الى الطريق الصحيح ، طريق التعبير الصادق عن مجتمعا ، وبدأت الشخصية العربية تفرض نفسها على شعر أصحاب هذا الاتجاه ، حتى لننظر الى الى آخر ديوان صدر فى عامنا هذا ، وهو « أنشودة الطريق » لكمال نشأت ، فنجد ريفيا حتى فى غزلياته ، عائليا حتى فى وطنياته ، يداعبه الأمل ، وترتد جذور تاجه الى يبتنا دائما .

ولنأخذ مثلا قصيدته « أحلام عذراء » ، فالشاعر يخط بريشته الخطوط الأولى للمنظر الذى سيحيط بدقائق تجربته ، فلا يجد أجمل من صغار حمام

(١) شعر اليوم ص ١٧ (تأليف مصطفى السمرتنى : القاهرة - ١٩٥٧) .

تاقت في البرية ليعبر عن الأحلام الوردية الشاردة لفتاة الريف في ليلة من ليالي القمرية . وهي ليلة صيف قمرية ، لأنها من الليالي التي تغرى بالسهر ، ويطلق وراءها الأحلام ، أما ليالي الشتاء فتغرى بالنعاس والدفء ، وتطفىء الخيال ، وتقعده بالحلم ، ثم هو ينطلق وراء خيال الفتاة ويتبع خطوات أمانها ، فيبرز ملامح الصورة في شخص رجل أحلامها (فتى القرية) وهو يختال فتى الخطوات: والشال على كتفه ، كالبدن الذي تراه ، ويطلق أحلامها ترعى ، ولكنها لا تراه بعين الحقيقة ، فقد توشح بغمام الخيال . وتكتمل الصورة بدقات الطبول ، ضوؤ العرس وهي تعانق أنغام الأرغول ، وتعالى الزغاريد ، وتموج الدار بالزوار ، ولكنها ترى أمها وسط الجمع الحافل وهي ترش الملح لتقيها من حسد العيون . وتلك عادة مصرية ، ومن تقاليد الريف عندنا في الأفراح . وبين هتاف الزوار وضجيجهم ، ينفذ الشاعر بعينه الفاحصة إلى أغوار نفس الفتاة ، ويبين عن أسرارها التي احتضنتها خلف جناحها ، فيرى نشوتها الكبرى والغيرة في صدور الصبايا من حولها وعلى وجوههن ، ثم زهوها وهي تتيه بثوبها (اللماع الأخضر) الذي يعجب فتاة الريف لأنه من لون الحقول المخضرة ، وهو جدير بالاعجاب لأنه صنع (البندر) وليس من صنع الريف ، فتغض طرفها حياء ، وتضم جناحها على الأسرار ، حتى لا تظهر في مقلتها أفراح العرس ، ولا يعرف سرها إلا قلبها الطروب (١) .

أليست هذه الصورة منتزعة من بيئتنا الخاصة ؟ ثم هل نجد لها مثيلا في شعرنا التقليدي الحديث ؟

ان الصراع بين النقاد ما زال يدور حول الشعر الحر ، ولكن التيار يسير دون أن يعوقه كثيرا ذلك الصراع .

وقد أثار هذا الصراع كما قلنا من قبل طه حسين والعقاد . أما طه حسين فيرى أن اللغة هي صورة الأدب ، وأن المعاني مادته ، بينما يرفض ذلك نقاد هذه الحركة الجديدة ، ويرون أن الحديث عن اللغة حديث عن الأسلوب لا عن الصورة واللغة أداة من أدوات الصورة التي هي تجسيم لمنظر حسي أو بصري وسيلته اللغة والحركة واللون والموسيقى . أما مادة الأدب أو مضمونه فلا يمكن أن تكون هذه

(١) راجع انشودة الطريق ص ٦١ (نظم كمال نشات : القاهرة - ١٩٦١) .

المعاني المتحجرة - كما يقولون - وإنما هي في الوحدة العضوية التي رسمتها الصورة . بمعنى أن تكون اللوحة التي أمامنا لا تعنى هدفا عاما وحسب وإنما هي صورة لفرد معين في وضع معين لهدف معين ، عملت الأصباغ والظلال عنها المتشابه مع أبعاد الصورة وملاحظها ، بحيث إذا تغير شيء منها بالنسبة للوضع أو الخطوط أو الأصباغ ، لم تعد نابضة بالحياة التي منحها إياها الفنان ، بل تغير الوضع كله بالنسبة للمنظر . وفي ذلك يقول العالم : « نحب أن نقرر أولا أن ما نتهم به حركتنا النقدية من تغليب للجانب الاجتماعي ، إنما يرجع إلى ما أشاعه هؤلاء الأدباء القدامى من فهم قاصر لهذه العلاقة بين صورة الأدب ومادته ، إلى ما يتميز به أدبهم من جمود وانفصال عن حركة الحياة ، وإلى ما رسبوه في وجداننا القومي من قواعد فجة لا تقضى بالابداع الفنى إلا إلى أزمة متقلبة ، ولهذا فعندما نتقدم لتحديد موقفنا من هذه القضية ، فإننا نحدد موقفنا كذلك من المدرسة القديمة ، سواء في النقد أو الابداع . هكذا عرض عميد الأدب للقضية ، وهكذا اهتدى إلى حل لها (أن اللغة هي صورة الأدب ، وأن المعاني هي مادته وأن صورة الأدب ومادته شيئان لا يفترقان أو هما شيء واحد إن شئت ، وأضاف إليهما عنصرا ثالثا إن صح أن يستعمل العدد في مثل هذا الموضع ، هذا العنصر يلزمهما لزوما لا فكاك منه وهو عنصر الجمال) . ومن هذه المقومات الثلاثة : اللغة والمعاني والجمال الذي لا فكاك منه ، يتضح الموقف النقدي للمدرسة القديمة .

إلا أننا نرى أن قصر الصورة على اللغة ، وقصر المادة على المعاني لا يكشف عن ادراك سليم لحقيقة الظاهرة الأدبية ، ذلك أن اللغة أداة من أدوات الصورة . فإن قصرنا الصورة على اللغة ، فقد تحدثنا لا عن الصورة بل عن الأسلوب . إن الأسلوب الشائق الرائق الذي يحسن موقعه عند سامعه ليس صورة للأدب ولا صياغة له ، بل هي مظهر خارجي أو أداة من أدوات الصورة . وكذلك شأن المعاني ، فليست مادة للأدب بل إحدى أدواته كذلك . فلو قدمت لنا جملة جميلة رائعة شائقة تحفل بمعنى لم يسبقه إليه أحد ، لما كان في هذا وحده دافع إلى أن تعدها من الأدب ، فالمعاني كالألفاظ سواء بسواء ، وسائل وأدوات لما هو أجل وأعظم .

ولو راجعنا تاريخ النقد العربي القديم ، لوجدنا أنه لا يخرج في مجمله عن البحث الجاد عن اللفظة الرائقة للمعنى الفريد ، ولو تأملنا ما يقوله عميد الأدب

اليوم في قلب القرن العشرين ، وبعد أجيال من التطور الثقافي والتجارب النقدية التي لا حصر لها ، لما وجدناه يخرج عن ترديد هذا الموقف النقدي القديم ، المسرف في القدم . والحق أن أزمة التعبير الأدبي تقوم الى حد كبير على هذا الاحتفال البالغ بالأسلوب ، وهذا الوقوف الجامد عند حدود المعاني المنفردة المتناثرة ، نجد هذا في الحكم النقدي ، وفي التعبير الأدبي ، ثره وشعره على السواء ، وكما كان نقاد العرب القدامى يعدون بيتا من الشعر أبلغ ما قالته العرب وبيتا آخر أهجى ما قالته العرب ، وبيتا ثالثا أصرح ما قالته العرب ، والى غير ذلك من أفعال التفضيل ، لا يزال نقادنا وأدباؤنا من المدرسة القديمة يحتفلون كذلك بهذا المعنى الواحد أو اليبس المفرد لما فيه من أسلوب رائق ومعنى شائق ،

فهذا الشاعر الفحل - أمير الشعراء أحمد شوقي مثلا - يؤلف القصيدة من ثلاثمائة بيت في الحرب أو في التنفى بآثار مصر القديمة مثلا ، فلا يعالج الموضوع معالجة أدبية بحيث يكون له مضمونه المصوغ أو مادته المصورة ، بل هي أبيات متناثرة لمعان لا رابط بينها غير وحدة القافية أو وحدة الوزن أو وحدة الموضوع من قريب أو بعيد ... ان مضمون الأدب في جوهره أحداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية ، والصورة الأدبية أو الصياغة عملية لتشكيل هذا المضمون وابرار عناصره وتنمية مقوماته (١) .

أما « العقاد » فهو كما ذكرنا لم يعترف بهذا اللون من الشعر ولم ير فيما أتى به نقاد هذه الحركة جديدا بالنسبة للوحدة العضوية ، ورأى أن ذلك لا يعدو أن يكون ترديدا لما قاله هو من زمن طويل ، فجاء رد « العالم » مبينا وجهة نظرهم في أن هذه الوحدة العضوية ليست من ابتكار العقاد ، وإنما هي قديمة قدم أرسطو ، ولكن العقاد حين قرأها لم يتمثلها ولكنه فهم أنها وحدة الموضوع وحسب . وضرب لذلك الأمثلة من دراساته لشوقي وابن الرومي ، وأتى بشواهد من شعره هو صنع بها ما صنعه العقاد بشوقي حين غير من أبيات القصيدة وبديل في نظامها . واستنتج العالم من هذا أن شعر العقاد لا تربطه غير وحدة العنوان والوزن والقافية ، وهذا دليل على تفسخ العمل الأدبي وبعده عن الوحدة العضوية (٢) .

(١) في الثقافة المصرية ص ٤٢ ، ٤٩

(٢) في الثقافة المصرية ص ٥٧ ، ٦٤

على أن عدم اعتراف بعض النقاد بالشعر الحر لتخلصه من القافية واستناده الى التفعيلة الواحدة بدلا من البحور العربية ، لا يعنى أن نفض أيدينا منه ، وأن نعض أعيننا عما حولنا لأتينا غير واقعيين . فالشعر الأوربي قد عرف هذا اللون وهو ما يسمى بالشعر الحر Free verse .

وأوزان الشعر هي موسيقاه ، فهل ما زالت موسيقانا هي موسيقى الجاهليين؟ لماذا نقبل أن تتطور كل فنوننا من عمارة وموسيقى وغناء ، بل نقبل أن تتطور حياتنا الاجتماعية وأن تتبدل بالقياس الى العصور العربية القديمة ، ثم تقف حجر عثرة في سبيل تطور موسيقى الشعر ؟ يبدو أن الصراع بين الشباب والشيوخ أو بين الجديد والقديم سيبقى دائما سنة الحياة النامية المتطورة ، فالعقاد وطه حسين وأكثر شيوخ الأدب الآن كانوا من زعماء التجديد في شبابهم ، ولكن هذا الصراع على أى حال يجنبنا الطفرة ويجعلنا نسير بخطوات معتدلة في مسيرنا .

ان الاستناد الى التفعيلة الواحدة « قد نوع موسيقى الشعر في نغماتها ، وتآلفها مع أفكار التعبير وانفعالاته ، فلم تعد تؤنسنا موسيقى الكلاسيكيين الرنانة ولا موسيقى الرومانتيكية المخدرة ... نظام يلحظ فيه التركيز والاقتصاد في الاستطراد ، نظام تتحرك فيه الصور ولا تجمد » (١) .

والتعبير بالصور هو أخطر أدوات الصياغة الجديدة شأنا ، لأن الأسلوب التقريري مهما كان قويا هو مثل الصرخة ، قد تلفت سمع العابر ، ولكنه لا يلبث أن ينصرف عنها بعد حين ، ولكن المنظر هو الذى يستقر فى النفس الى أمد بعيد. ولنضرب على ذلك مثلا أتى به مؤلفا فى « الثقافة المصرية » . فشوقى وحافظ وغيرهما من شعراء هذه الطبقة قد نظموا فى حادثة دنشواى . فشوقى يعرض لحادثة دنشواى بهذه الأبيات الوصفية :

السوط يعمل والمشاقق أربع	متوحشات والجنود قيام
والمستشار الى الفظائع ناظر	ترمى جلود حوله وعظام
وعلى وجوه الثاكليين كآبة	وعلى وجوه الثاكلات رغام

أما الشاعر الجديد « صلاح عبد الصبور » فيتلقف الحدث خلال شئق « زهران »^(١) أحد أبناء دنشواى فيتمثله ويفيض تعبيره من خلال الحدث نفسه فى صور يصوغ منها وحدة فنية متكاملة . فبدأ قصيدته بداية راح يبرز فيها زهران فى ملامحه الخارجية :

كان زهران غلاما
أمه سمراء والأب مولد
وبعينيهِ وسامه
وعلى الصدغ حمامه
وعلى الزند أبو زيد سلامه
مسكا سيفا وتحت الوشم نبش كالكتابة
اسم قره
دنشواى

ومن هذه المعالم الخارجية راح يتعمق حياته الباطنية ، وحياته الذاتية ،
تمهيدا لاستقبال الحدث الرهيب :

شب زهران قويا
وتقيا
يطأ الأرض خفيفا
وأليفا
كان ضحاكا ولوعا بالغناء
وسماع الشعر فى ليل الشتاء
ثم عاد يرسم الملامح الخارجية للحدث :
مر زهران بظهر السوق يوما
واشترى شالا منضم

(١) الناس فى بلادى ص ٤٨ (نظم صلاح عبد الصبور : بيروت - ١٩٥٧) .

ومشى يخال عجباً مثل تركى معمم
ويجبل الطرف ما أحلى الشباب
عند ما يضح جبا
عند ما يجهد كى يصطاد قلبا
كان يا ما كان أن زفت لزهرا ن جميله
كان يا ما كان أن أنجب زهران غلاما وغلاما
كان يا ما كان ان مرت لياليه طويله
ونمت فى قلب زهران شجيره
ساقها سوداء من طين الحياه
فرعها أحمر كالنار التى تحرق حقلا
عند ما مر بظهر السوق يوما
ورأى النار التى تحرق حقلا
ورأى النار التى تصرع طفلا
كان زهران صديقا للحياه
ورأى النيران تجتاح الحياه
مد زهران الى الأنجم كفا
ودعا يسأل لطفا
ربما سودة حقد فى الدماء
ربما استعدى على النار السماء
وما زال حتى أبرز الشاعر الحدث نفسه :
وضع النطع على السكة والغيلان جاءوا
وأتى السيف « مسرور » وأعداء الحياه
صنعوا الموت لأحباب الحياه
وتدلى رأس زهران الوديع
وسارع الشاعر مرة أخرى الى المعالم العامه لقرينه يبرز حزنها وشكلها .

قريتى من يومها لم تأتدم الا الدموع
قريتى من يومها تأوى الى الركن الصديع
مات زهران وعيناه حياة
فلماذا قريتى تخشى الحياة

على أن التعبير بالصور وحده لا يمكن أن يكون له وحده كل هذه القيمة ،
وانما هنا عامل جوهرى هو البناء الدرامى . فاذا نظرنا الى القصيدة السابقة
« شفق زهران » وجدناها تشتمل على عدة لوحات : الأولى صورة زهران ،
والثانية حياته ، والثالثة موته ، والرابعة صورة قريته الشكلى .

ولكنها ليست لوحات منفصلة ساكنة ، ولكنها تتحرك فى شريط مترابط
متتابع يعتمد على البناء الدرامى الذى يتركب من التجسيم والحركة والتشويق
والمونولوج الداخلى فى بعض الأحيان .

فزهران فرد له ملامح خاصة ، وهى ان تكن ملامح قروية ، ولكنها متميزة
ثم تبدأ الصورة فى التحرك فى المنظر الثانى تحركا نعرف به نفسيته بعد أن
رأينا ملامحه الخارجية ، نعرف به قلبه الطروب ونعرف به ثقته بنفسه ، ونعرف
به حبه للحياة ، ونعرف به رغبته فى صنع حياة أفضل له ولقريته ، ويدفعنا
الشوق الى اللوحة التالية ، فاذا بها مفاجأة قاسية لم نكن نتوقعها للفتى النقى
الطروب الذى أحب الحياة ، ومن أجل هذا كان الأثر قويا فى المنظر الأخير .

فهذا البناء الدرامى اذن قد حقق هدفين ، حقق عنصر التأثير القوى
الناضب الذى يأتى من التأثير فى أكثر الحواس لا فى الذهن وحده ، كما هو
الحال فى الشعر التقليدى ، وحقق الوحدة العضوية فى بناء القصيدة بحيث
يستحيل أن نبدل فيها كما كنا نضع فى قصائد الشعراء السابقين .

بعد أن عرضنا نشأة الشعر الحر وخصائصه ، نحاول أن نجيب عن
ذلك السؤال الذى طالما تردد . لم كانت هذه الثورة الأدبية ؟ والواقع
أن كل الثورات فى وطننا العربى ترجع الى ايمان العربى بذاته .
كانت هذه الحقيقة متوارية خلف حجاب كفيف من التيارات السياسية ، ثم

كانت فترة ما بين الحربين كافية لأن تختمر فيها هذه الحقيقة ، فتوالى الثورات في كل البلاد العربية ، ومن الواضح أن تلك الثورات لم تحقق أكثر الآمال التي كانت معتودة عليها ، ولكن من الواضح أيضا أنها كانت نقطة البداية . لم يعد العربي بعد ذلك يخشى أن يجابه نفسه أو غيره في شكل ثورة .

« هذا الوعي والاحساس العميق ، بل وإيمان العربي بذاته ، كان الدافع الى انطلاقه فلم يعد يطيق الجمود ، وشعر بالطاقة الكامنة تدفعه الى التحرك . فالتفكير العربية التي انطلقت في أيامنا هذه قوية جارفة ، كان لا بد لها من مظاهر التعبير عنها في مختلف الميادين ، فكانت الثورات العسكرية هي التعبير السياسي ، وكان التطور الصناعي هو التعبير الاقتصادي ، وكان الشعر الحر هو التعبير الأدبي . وتقبل الناس له كما ذكرنا ، واقبالهم عليه ، يؤكد احساسهم بحاجتهم الى لون أدبي جديد » (١) .

وقد ظهرت الموشحات في الأندلس منذ قرون ، وخرجت على عمود الشعر العربي لتعبر عن الحياة الجديدة بما فيها من مرح تعرفه أوروبا ، وبما فيها من طبيعة ضاحكة ، ولم يتقبله المشاركة ، ولكنه أدى دوره في الأندلس .

وبعد أن تبلغ انطلاقتنا غايتها ، ونبنى آمالنا ، ونقف لنستريح ، وتنظر الى الوراء ، أغلب الظن أن الشعر العربي سيعود مرة أخرى الى تراثه الموروث ، لأن التقاليد العربية ، عميقة الجذور في حنايانا ، ولكن هذا الشعر الحر سيبقى دائما ، ليسجل واقعا عشناه في أيامنا هذه .

(١) القومية العربية والشعر المعاصر (تأليف دكتور ماهر حسن فهمي : القاهرة - ١٩٥٦) ص ١٢٢ ، ١٢٦

العلاقات الإنسانية في تربية النشء

للدكتورة فحمة سلجانه

عميدة الكلية ورئيسة قسم التربية وعلم النفس

لا أظن أن هناك اختلافا في الرأي في أن مشكلة الانسان في هذا العصر انما هي مشكلة العلاقات الانسانية التي تربط بينه وبين غيره من البشر والتي تربط بين الجماعات والدول المختلفة بعضها وبعض ، ولقد وضحت هذه الحقيقة منذ زمن بعيد على أن الوسائل التي عولجت بها الأمور كانت وسائل مبنية على افتراضات معينة كان العالم يتخذ منها دليلا ورائدا له في تصرفاته حتى وصل العالم الى حالة التوتر التي بلغها الآن والتي تنذر بالانفجار بين الحين والحين . أما هذه الافتراضات فانها مبنية على بعض النظريات العلمية مثل نظرية الصراع في سبيل البقاء اذ أن البقاء للأقوى ، وقد أدى التمشي مع مثل هذه النظريات الى التنافس بين الأفراد والى احتدام النزاع بين الدول والى استغلال القوى للضعيف واستعمار الدول الكبيرة للدول الصغيرة والى استعمال الاكتشاف العلمي وتسخيرها لصناعة الأسلحة الرهيبة التي تهدد الجنس البشري بآبادته وبالقتل على كل ما بلغه من حضارة .

والآن ونحن على حافة الهاوية — هاوية الهلاك للمجتمع الانساني — يجب علينا أن نعيد النظر في اتجاهاتنا نحو تربية النشء بحيث نجد الطرق والوسائل الكفيلة بتنمية علاقات انسانية أفضل بين الصغار وبين المجتمع حولهم حتى يشبوا وقد تخلصوا من شوائب النظريات القديمة التي مجدت القوة والقسوة والصراع وقد تكون هذه وسيلة لتدعيم السلم ونشر المحبة والتسامح بين الناس . على أننا قبل أن نبحث عن طرق تنمية العلاقات الانسانية السليمة في النشء ينبغي أن نبحث عن طبيعة هذه العلاقات وعن الأسس البيولوجية والسيكولوجية التي يمكن أن توجهنا الوجهة العلمية السليمة كما يكون تفكيرنا مرسوما وهاذفا .

أنا ان حاولنا اليوم أن نجد قيما جديدة للسلوك الاجتماعى ودوافعه واتجاهاته وأساليب تكوين العلاقات بين الناس ، فانتا لن نكون مجددين فى هذا الميدان ، فقد حاول العلماء والمفكرون - منذ أقدم العصور - ايجاد الأسس التى ينبغى أن تبنى عليها العلاقات بين الأفراد التى تفسر السلوك الاجتماعى . فقد ذكر أفلاطون الفيلسوف اليونانى القديم فى كتابه المسمى « الجمهورية » رأيه عن علاقة الفرد بالمجتمع وعن علاقة طبقات المجتمع بعضها ببعض وكيفية تنظيم هذه العلاقات بحيث تستكمل العدالة فى المجتمع ، ويصبح مجتمعا فاضلا لا شروق فيه ولا ظلم ، وتبع أفلاطون غيره من الكتاب والمفكرين محاولين سبر غور السلوك الاجتماعى كى يتمكنوا من وضع نظام للعلاقات الانسانية تتفق ، وما ينادون به من مذهب فلسفى أو اتجاه علمى .

فى عصر النهضة نجد « توماس هوبز » Thomas Hobbs يفسر السلوك الاجتماعى والعلاقات الانسانية على أساس مادى قوامه الأنانية وحب الذات ، وذلك لأن « هوبز » رأى أن دوافع الانسان الجسمية وخوفه ورغبته فى التعالى وهروبه من الألم ، كل هذه رآها أساسا تحدد العلاقات بين الأفراد ، وأن المجتمع البشرى لم يجتمع أفراده الا لاشباع حاجاتهم الفردية ، أو لتجنب الأخطار التى تحيط بهم .

وجاء بعد ذلك «جان چاك روسو» فى القرن الثامن عشر بفكرته التى بينها فى كتابه « اميل » والتى توضح عقيدته فى أصالة الخير فى طبيعة الانسان ، ذلك الخير الذى ينبغى أن يسان ويحفظ ، وذلك بمنع الصغير من الاختلاط بالناس ، وهكذا نادى روسو بتربية الصغير فى معزل عن المجتمع وبعيدا عن مؤثرات السوء الموجودة فى البيئة الاجتماعية ، فألقى بذلك العلاقات الانسانية من حياة الصغير حتى لا تتلوث طبيعته الخيرة بشروق المجتمع .

وأتى القرن التاسع عشر بعدد من المفكرين والعلماء يعتبر أكبرهم خطرا من ناحية بحثنا هذا - « تشارلز داروين » C. Darwin إذ كان لنظريته العلمية الشهيرة أعمق الأثر فى توجيه الفكر الانسانى وتعريفه بأصل الانسان بصفة عامة ، وبطريقة سلوكه بصفة خاصة ، ذلك لأن نظرية «داروين» المعروفة والتى قالت بأن الانسان - الذى هو أرقى أنواع الحيوان وأعلاها فى سلم التطور - لا يفهم

سلوكه الا اذا قورن بسلوك الكائنات الأخرى . وقارن « داروين » بين الفرائز في الحيوانات وبينها في الانسان مينا أوجه التشابه . ومن أهم ما جاء في كتابه المسى « أصل الأنواع » Origin of the Species الفقرة التالية :

« ان الصراع في سبيل الحياة ذلك الصراع الذى يتميز به سلوك جميع الكائنات الحية في هذا العالم ، لا بد من وجوده بسبب زيادة اعداد هذه الكائنات زيادة بنسبة المتواليات الهندسية . ان كل نوع من الكائنات الحية يتكاثر بأعداد كبيرة يعجز الكثير منها عن البقاء ، ولهذا فان هناك صراعا يكاد يكون دائما في سبيل الحياة . فاذا اختلف كائن من الكائنات عن غيره بأن اختص بميزة أو صفة تزوده بما يفيد في ظروف الحياة المعقدة والمتغيرة ، فان هذا الكائن سوف يحظى بفرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة ، وهكذا يصبح نوعا منتقى بطبيعته . ولما كان للوراثة أثر كبير في نقل صفات الكائنات من جيل الى آخر فان هذا النوع المنتقى سوف يولد كائنات من نفس نوعه المنتقى ذى الصفات المميزة » .

وكان لآراء « داروين » هذه — أى فكرته عن كون البقاء للأصلح ، والأصلح عنده هو الأكثر قدرة على الصراع والاحتمال — كان لها أثر بالغ في شتى نواحي الحياة والمعرفة . وجاء بعده « توماس هكسلى » Thomas Huxley بكتابه المسى « الصراع في سبيل الحياة وأثره على الانسان » الذى ظهر عام ١٨٨٨ ، وقد ذكر فيه أن دنيا الحيوان تشبه ساحة لمصارعة الحيوانات اذ أن الكائنات الحية تعامل معاملة لا بأس بها فتطعم وتربى ثم تحفز على الصراع فيما بينها ، ذلك الصراع الذى يؤدى الى غلبة الكائن الأسرع والأكثر دهاء ، فيبقى حيا ليصارع في اليوم التالى :

وكان لمثل هذه الآراء — عند تطبيقها في عالم الانسان — مغزى خطير ، فان الصراع البيولوجى بين الكائنات الحية يمكن أن يترجم الى التنافس بين الأفراد في المجتمع الواحد ، والى الصراع والحروب بين الدول بعضها وبعض ، ويمكن ترجمته أيضا الى معنى أخطر وهو استغلال الشعوب القوية للشعوب الضعيفة ، هذا المعنى الذى هو حجر الزاوية في البناء الاستعمارى .

ويمكننا القول ان هذه الفلسفة حتى الآن هى التى لا تزال تسيطر على مجتمعا الانسانى ، فكل واحد لنفسه ، واذا لزم الأمر فانه لنفسه وعلى أعدائه ، فالبقاء

للاقوى وللاكثر قدرة على الصراع . لذا تسابق الافراد على التنافس والمنازلة في جميع ميادين الحياة . وتسابقت الشعوب والدول للوصول الى القوة عن طريق التسليح والتكتل فتكونت الاحلاف والمنظمات ، وصنعت القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة والاقمار الصناعية ودبرت المؤامرات الدولية لمنع الشعوب المستعبدة من الخلاص والتحرر من الاستعمار والاستغلال .

ان هذه النظرية القاسية التي تحددت على ضوءها معظم العلاقات بين الافراد والجماعات ، والتي بنيت على نظرية « داروين » البيولوجية لاشك انها نظرية خاطئة . ان الحقائق البيولوجية تفسر لنا بعض أوجه السلوك الانساني ، الا أن هذه الحقائق — كما نعرفها اليوم ، وكما كشفت عنها أحدث التجارب العلمية — قد بينت لنا نواحي أخرى في سلوك الكائنات الحية لم يبرزها « داروين » في كتاباته الأولى الا أنه ذكر بطريقة عابرة في كتابه المسمى *The Descent of Man* ناحية من هذه الحقائق اذ يقول « وكلما تقدم الانسان في طريق الحضارة ، وتجمعت العنصر مكونة جماعات كبيرة فان أبسط مفهوم لهذه التجمعات يدل على أنه في مقدور كل فرد أن يوسع نطاق غريزته الاجتماعية ، فتشمل أفراد المجتمع الأكبر — الذين هم أبناء الوطن الواحد — بالعطف والمحبة ولو أن هذه القدرة قد تكون خافية على الفرد نفسه . فاذا كان هذا ممكنا فان الحوارج والموانع التي تحول بين الفرد وباقي أبناء الجنس البشرى على الاطلاق تكون موانع زائفة ومصطنعة » .

من هذه العبارة يتضح أن « داروين » فطن الى وجود ظاهرة مهمة تميز السلوك الانساني ، وهي ظاهرة حب التجمع التي اعتبرها طبيعية ، وفي مقدور الافراد .

ان في نشاط الكائن الحي نواحي كثيرة تبين أنه لا بد له من أن يصارع ويناضل في سبيل البقاء ، الا أن هذه النواحي لا تمثل كل أنواع النشاط التي تميز السلوك العام للكائن الحي . ان سلوك هذا الكائن — في الواقع — يظهر أن للتعاون بين الكائنات الحية أهمية لا تقل عن أهمية التنافس بينها والصراع في سبيل البقاء وان هاتين الظاهرتين التنافس والتعاون لا تتناقضان بل تكملان بعضهما البعض . ان علماء القرن التاسع عشر وعلى الأخص علماء الاجتماع مثل

هربت سبسر وأتباعه — أهملوا ظاهرة التعاون في سلوك الانسان وتجاهلوهما ولم يبرزوا الا ظاهرة الصراع والنضال في سبيل البقاء .

وفي نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت عدة مقالات علمية للأمير « بطرس كروبوتكين » Prince Petr Kropotkin جمعها عام ١٩٠٢ في كتاب أسماه « التعاون المتبادل كعامل في التطور » Mutual Aid, a Factor in Evolution وفي هذه المقالات حاول « كروبوتكين » أن يبين أن هناك قوة لا شعورية تعمل في عالم الكائنات الحية ، وأن هذه القوة تتضح في تبادل المنفعة بين هذه الكائنات ذلك التبادل الذي يساعد الكائنات على الحصول على فرص أكبر للبقاء ، وأن الكائنات تدرك أدراكا — ولو غامضا — أن سعادة الأفراد مرتبطة بسعادة الجماعات ، وأنه اذا كان للفرد حقوق فان للآخرين حقوق أيضا . وقد كانت مقالات « كروبوتكين » هذه عبارة عن أضواء سلطت على ظاهرة التعاون في حياة الكائنات الحية فلم يكذب ينتصف القرن الحالى حتى بلورت البحوث العلمية المختلفة التى أجريت في مملكة الحيوان — بلورت أهمية ظاهرة التعاون بين الأفراد وفائدتها كعامل مساعد على البقاء سواء للأفراد أو للجماعات .

ففى أبسط أنواع الكائنات الحية — وهى الحيوانات وحيدة الخلية — لوحظ ان التكاثر يحدث بالانقسام المباشر للخلية فتصبح الخلية خليتين وهكذا . وقد يحدث التكاثر بأن تنقسم بعض الخلايا الى عدد كبير من الخلايا الصغيرة (الجاميطات) التى يتجمع كل اثنين منها فيلتصقان ويندجان فتكون خلية واحدة (الزيجوت) وهذا هو أبسط أنواع التكاثر الجنسي . وفيما بعد يبدأ الزيجوت فى التكاثر بالانقسام المباشر لخلية الزيجوت .

وسواء أكان التكاثر بالانقسام المباشر أو بتزاوج الجاميطات فان العملية — أى عملية التكاثر — هى عبارة عن عملية تفاعل بين الخلية الأم والخلية الجديدة أى الوليدة المكونة للكائن الحى الجديد . فالخلية الأم هى التى تمد الخلية الوليدة بالمادة الحية كما أنه — أثناء عملية انقسام الخلية — تحدث عدة عمليات بنائية وأخرى فيسيولوجية فى بروتوبلازم الخلية قبل أن تنفصل الخلية الجديدة من الخلية الأصلية لتصبح كل منهما مستقلة عن الأخرى . وهذه الظاهرة

— أى ظاهرة الاتصال الحيوى — بين الخلية الأصلية (الأم) والكائن الجديد (الخلية الوليدة) هى الطابع المميز لعملية التوالد فى الكائنات الحية .

يقول الدكتور « آشلى مونتاجيو »^(١) Ashley Montagu فى كتابه عن « صفات البشر » ان الطابع الاجتماعى الذى يميز الكائنات الحية على الاطلاق تمتد جذوره الى العلاقة الفسيولوجية التى تربط بين الأم والكائن الوليد ، وذلك لأن الأم والوليد يكونان متصلين اتصالاً حيويًا فترة من الزمن ، وأد حياة أحدهما تترتب على حياة الآخر أثناء هذه الفترة ، وعلى ذلك فان ظاهرة التوالد يمكن أن تعتبر أساساً للعلاقات الجماعية فى مملكة الحيوان والتى تسمى بالعلاقات الانسانية فى عالم الانسان ، هذه العلاقات المبنية على التكافل والتعاون بين الأفراد ، والتى تتمثل — فى أبسط أطوارها — فى العلاقة الفسيولوجية بين الخلية الأصلية (الأم) والخلية الجديدة (الوليد) المتكونة من الانقسام المباشر للخلية الأصلية . على أنه كلما تقدمت الحيوانات فى سلم التطور فان فترة هذه العلاقة الفسيولوجية بين الأم والوليد تطول فتصل فى حالة الانسان الى تسعة شهور كما أن فترة طفولة الانسان — تلك الفترة التى يكون فيها الطفل معتمداً على أمه اعتماداً تاماً — فى أول الأمر — ثم جزئياً — فى السنوات التالية — هى أطول فترات الطفولة فى عالم الحيوان ، وتزداد هذه الفترة أو تقل أيضاً وفقاً لما بلغ المجتمع الذى يوجد به الطفل من حضارة تسبب فى تعقيد الحياة وتعقيد العلاقات الانسانية معها .

وعلى ذلك فان أصل الميل نحو التجمع الذى يميز الكائنات الحية يمكن ربطه بالطريقة التى ينشأ بوساطتها الكائن الحى . ان كل خلية تنشأ من خلية أخرى ولا يمكن أن تنشأ الا بهذه الطريقة ، وكيفما كانت طريقة التوالد — سواء أكانت بالانقسام الخلوى البسيط المباشر أو بتزاوج الجاميطات — فان العملية فى كلتا الحالتين عملية اعتماد متبادل وتكافل بين الأم والجنين . والاعتماد المتبادل والتكافل شرطان لا غنى عنهما فى الحياة .

ان كل خلية فى جسم الكائن الحى تعتمد فى عملياتها الحيوية على الخلايا الأخرى المكونة للكائن الحى ، أى أن الكائن الحى يعمل كوحدة وليس

Ashley Montagu, on Being Human p. 29. (١)

كمجموعة من الخلايا المستقلة ، فهو وحده لأنه يحيى بطريقة التعاون الخلوى القائم فيه . وبالإضافة الى هذا فانه لا يوجد كائن حى منفرد أو مستقل بنفسه (من الناحية البيولوجية) فى نشأته ، كما أنه لا يوجد كائن حى يعيش بمفرده اللهم الا فى حالات نادرة . وكما جاء فى كتابات العالم « و.م. ويلر »^(١) W. M. Wheeler انا نجد أن الكائنات الحية — نباتية كانت أو حيوانية — تعيش عادة عيشة تجمعية فى قطعان أو مستعمرات أو جماعات ويندر أن توجد كائنات تعيش معيشة انفرادية ، وان وجدت فانها تعتبر غير طبيعية بالرغم من أن أفرادها قد يكون بسبب الأخطار التى قد تتعرض لها لو عاشت وسط الجماعات .

ولقد دلت البحوث التى أجريت فى نصف القرن الأخير تقريبا على الطبيعة الجماعية للأحياء على اختلاف مرتبتهم فى سلم التطور على أن للأحياء ميلا اجتماعيا فطريا فمثلا فى عام ١٨٩٤ وجد العالم « وليام روكس » William Roux المتخصص فى علم الأجنة أنه عند ما فرق خلايا بيضة الضفدع — وهى فى أولى مراحل نموها — وباعد بين هذه الخلايا فى الماء ، وجد أنها أخذت تتقارب من بعضها شيئا فشيئا حتى تم التلاصق بينها . كذلك فان تجربة أخرى على بعض يرقات الفراش بينت أنه اذا بوعد بين يرقة واحدة وبين مجموعة من اليرقات فان اليرقة المنفردة تسعى بنشاط الى صحبة اليرقات الأخرى .

وفى عالم البكتيريا وجد « تاكستر » Thaxter عام ١٨٩٢ أن تعاون هذه الكائنات الدقيقة وحيدة الخلية واضح ومنظم ، ففى نوع من أنواعها يسمى « الميكسوبكتيريا » لاحظ تعاون الخلايا تعاونا يهدف الى توزيع العمل فيما بينها ، اذ وجد أن بعض الخلايا يلتصق ببعض مادة لزجة لتكوين عنق وتوجد مجموعة من خلايا بكتيرية أخرى يلتصق بعضها ببعض أيضا وتكون كتلة تختص بعملية التكاثر .

هذه هى بعض الأمثلة القليلة التى توضح ميل الكائنات الحية الطبيعى للتجمع الذى أسماه بعض العلماء بغيرزة التجمع ، والذى يشاهد فى الكائنات الحية على اختلاف طبقاتها .

(١) W. M. Wheeler, The Social life of Insects.

ان ظاهرة الميل للتجمع هذه تفسر لنا نشأة الكائن الحى المتعدد الخلايا من الكائن وحيد الخلية ، فان دوافع الكائنات الوحيدة الخلية نحو التجمع قد تكون السبب فى دوام تلاصق عدد منها بعد تكاثرها بالاتقسام وعدم انفصال الخلايا الجديدة من الخلايا الأصلية (كما سبق أن ذكر فى وصف التوالد البسيط لهذه الكائنات) وبالتدرج زاد تبادل النشاط الفسيولوجى بينها فتكونت الأنسجة المختلفة التى اختص كل منها بوظيفة وتبادلت هذه الأنسجة النفع فيما بينها أيضا فتكون بذلك الكائن المتعدد الأنسجة والخلايا . وعلى نفس النمط نجد أن أى تجمع حيوانى أو أى مجتمع انساني قد تكون بطريق أو آخر ضمن تبادل المنافع والتكافل بين أفراده أو مجموعاته .

ولقد جاء فى مؤلفات كثيرة للعالم « و.س.ألى » ^(١) W. C. Allee ما يبرهن على أن فى تجمع الكائنات الحية فائدة حيوية لها ، اذ أن فرصها فى البقاء حية تزداد وهى متجمعة عما هى فى حالة انفرادها . ويذكر العالم على سبيل المثال أن تجربة أجريت على نوع من الديدان البحرية ، عرض بعضها وهى متجمعة وبعضها وهى منفردة للأشعة فوق البنفسجية ، فكانت نسبة الهلاك فى الديدان المتجمعة أقل منها بكثير فى الديدان المنفردة . كما ذكر نفس العالم أن تجربة أخرى أجريت على بعض أسماك الزينة فوضعت مجموعات منها فى محلول سام ووضع بعضها منفردا فى أوان أخرى تحوى نفس المحلول فهلكت الأسماك المنفردة أما الأسماك المتجمعة فلم تهلك كلها بل نجا بعضها . وذكر أيضا أنه فى أبحاثه الخاصة على القنفاذ البحرية وجد أنه كلما كان بيض القنفاذ متكاثرا فى مجموعات زادت سرعة نموه ، وكلما بوعد بين البيض قلت سرعة نموه . أما تجاربه على بعض أنواع النورس ، وهو طير بحرى يعيش فى جماعات فانها برهنت على أنه كلما ازدادت أعداد الطير فى الجماعات فان نسبة التوالد فيها تكون أسرع منها فى الجماعات التى يقل عدد أفرادها .

W. C. Allee, (a) Animal Aggression.

(١)

(b) The Social Life of Animals.

(c) Principle of Animal Ecology.

من كل ما سبق يمكن استخلاص عدد من الحقائق أهمها :

أولا - ان الكائنات الحية - حتى أصغرهما وأبسطها تركيبا - تحيا عادة حياة جماعية أو اجتماعية (في حالة الانسان) ، وأنه لا يوجد أى نوع من أنواع الحيوان - على اختلاف مراتبه - يحيا منفردا الا اذا كان في اجتماعه بالحيوانات الأخرى ما يجلب له الخطر .

ثانيا - ان الحياة الاجتماعية تكسب الحيوانات المتجمعة فوائد حيوية هامة ، وخصوصا من ناحية اكساب هذه الحيوانات فرصا أكبر للبقاء .

ثالثا - ان أهم ظاهرة تميز الحياة الجماعية في مملكة الحيوان ليست ظاهرة الصراع والنضال في سبيل البقاء بل ظاهره التعاون في سبيل البقاء .

رابعا - ان الحياة الجماعية في مملكة الحيوان معاصرة للحياة نفسها ، فقد بدأت الحياة الجماعية مع بدء الحياة في هذا العالم .

خامسا - ان الحياة الجماعية في مملكة الحيوان تمتد جذورها الى الدوافع العضوية والعلاقات الحيوية التي تربط بين الأم والجنين أثناء عملية التوالد ، وان لهذه الظاهرة مغزى هاما ، فعملية التوالد التي تخلق بوساطتها الأحياء ، هي الأساس الذي تستند عليه العلاقات الجماعية في الأحياء .

والمجتمع الانساني هو أسمى أنواع التجمعات في مملكة الحيوان ، وانما يمتاز هذا المجتمع بالعقل البشرى باستعداداته وبمروته وقابليته الهائلة للتعلم ، وبتخلصه من السلوك الحيوى الجامد . ولأن الانسان هو أرقى الحيوانات جميعا فان له حاجات أساسية (كما للأحياء الأخرى) لا غنى عنها لحياته كالتنفس والغذاء والخراج والتوالد ، كما أن له حاجات أخرى لا بد من حصوله عليها كي ينمو نموا طبيعيا ، كحاجته الى الاتصال بالناس وحاجته الى الاعتماد على الغير .

والطفل عند ولادته يكون مزودا بدوافع غريزية تجعله يشعر بالحاجة الى حب أمه له وعنايتها به ، وتعتبر عملية اشباع حاجته الى حب أمه من أهم عمليات

التعاون بين الأحياء . يقول الأستاذ « آدلر »^(١) A. Adler في بعض كتاباته ان أول عملية نشاط يقوم بها الطفل الحديث الولادة هي الرضاعة من ثدى أمه ، وان في هذا النشاط لمتعة لكل من الأم والطفل على حد سواء لأنه مصحوب بشعور لطيف ومحجب لكل منهما .

من كل ما تقدم يتضح أن الأم هي أول فرد يتصل به الوليد ويتعاون معه سواء في أثناء الحمل أو بعد الميلاد ، لذلك فان للأم أكبر الأثر في بدء تكوين العلاقات الانسانية بين الطفل والمجتمع حوله ، وان في يدها تقوية هذه العلاقات — وهي في أول مراحل تكوينها — أو اضعافها ، وذلك يترتب على المساعدة والعناية التي تمنحها للطفل الذي لا يملك من أمره شيئا والذي يحتاج حاجة غريزية الى محبتها وعطفها . فاذا فشلت الدوافع الغريزية للطفل في الحصول على الحب والحنان من أمه (أو ممن يقوم مقامها اذا لم تكن موجودة) فان هذا الفشل يكون سببا لا في شعور الطفل بالاضطراب وعدم الاستقرار فحسب ، بل قد يتسبب هذا الفشل أيضا في اضطرابات عملية الهضم عند الطفل . ولقد وجد أن الطفل الذي يبكى ويترك دون أن يستجيب أحد لبكائه فان التوتر العصبى الذى يصيبه كثيرا ما يسبب اصابة الطفل بمرض الربو^(٢) . هذا وقد ثبت علميا أن عددا كبيرا من الأمراض العضوية يرجع سببها الى اضطرابات عصبية تكون قد حدثت في السنوات الست الأولى من حياة الصغير .

ومهما نقل عن أهمية الحب والحنان في حياة الطفل في تنمية علاقاته الاجتماعية فانا لا نوفي هذه الأهمية حقها ، وقد تبين هذه الأهمية اذا نحن استعرضنا الموضوع الآتى^(٣) :—

انه حتى منتصف القرن الأخير كانت احصاءات الوفيات في الأطفال تدل على أن ما يقرب من حوالى نصف عدد المواليد في العالم يموتون في السنة الأولى بعد ولادتهم ، وأن موت الأطفال في هذه السن كان يرجع في غالبية الأحيان الى مرض كان يسمى «مرض الهزال» Marasmus . فلما قام الباحثون بتجاربههم لاكتشاف

(١) A. Adler, Social Interest : A challenge to Mankind.

(٢) F. Alexander Psychogenic factors in Bronchial Asthma Part I, Psychomatic
Medicine Monograph IV, 1941 p. 58.

(٣) Ruth M. Backwin & H. Backwin Psychologic Care During Infancy and Child-
hood.

سر هذا المرض الخطير وجد أن أكثر الأطفال إصابة به هم أبناء أغنى الطبقات والأطفال في المستشفيات والمؤسسات كاللقطاء واليتامى ، أى الأطفال الذين يحصلون عادة على أوفر قسط من العناية الصحية ، بينما وجد أن أطفال الطبقات الفقيرة التى تقوم أمهاتهم بتربيتهم بأنفسهن يكونون أكثر قدرة على مقاومة مرض الهزال بالرغم من الظروف غير الصحية التى يعيشون فيها . وهكذا استنتج الباحثون أن حنان الأم وعطفها — الذى يحرم منه أبناء الطبقات الثرية لتعهد الخادومات بتربيتهم ، والذى يحرم منه اللقطاء واليتامى ، والذى يتمتع به أبناء الطبقات الوسطى والفقيرة — هو العامل الذى يسبب فقده وقوع الطفل فريسة لمرض الهزال .

وكان اكتشاف هذه الحقيقة سببا فى أن معظم مستشفيات العالم المتحضر ومؤسسات الطفولة فيه تحاول أن تعيد الأطفال الى أمهاتهم ، وفى حالة عدم وجودهن يعطى الأطفال لحاضنات يقمن مقام الأم . ولقد جاء فى كتاب الدكتورة « روث باكوين »^(١) وزوجها وهما من مشاهير أطباء الأطفال الأمريكيين — عن العناية بالنواحي السيكولوجية فى تربية الأطفال — جاء ما يفيد بأن إقامة الأطفال بالمستشفيات وما فى حكمها من مؤسسات للأطفال اليتامى واللقطاء وأبناء النساء العاملات ، هذه الإقامة لفترة طويلة تسبب أعراضا طيبة واضحة تظهر على هؤلاء الأطفال ، ومن أهم هذه الأعراض عدم قدرتهم على النمو السليم بالرغم من تناولهم الأغذية التى تكفل النمو السليم للأطفال المقيمين فى منازلهم ، وعدم قدرتهم على النوم العميق لفترات طويلة كافية ، كما أنه لوحظ أن هؤلاء الأطفال قلما يتسمون أو يصدرون الأصوات التى يصدرها الصغار فى الشهور الأولى من حياتهم (المناعة) . أما شهيتهم للطعام فهى فاترة ويأكلون غذاءهم دون اهتمام به ، وكثيرا ما يصاب الأطفال بنزلات البرد التى تصاحبهم أسابيع وشهورا بينما تزول عن الأطفال المقيمين فى منازلهم فى ظرف يوم أو يومين . ولقد لوحظ أنه بمجرد عودة هؤلاء الأطفال الى منازلهم أو الى حاضنات يقمن مقام الأمهات تتحسن حالتهم الصحية بسرعة عجيبة .

Ruth M. Backwin & H. Backwin Psychologic Care During Infancy and Child-hood. (١)

هذا كما أن حرمان الطفل من أمه في الفترة التي تعقب ولادته وحرمانه بالتالي من حبا ورعايتها تسبب أضرارا كبيرة لا بصحة الطفل الجسمية فحسب بل بصحته النفسية أيضا، وتدل أبحاث العلماء في هذا الصدد على أن هؤلاء الأطفال المحرومين — كأطفال المؤسسات والمستشفيات — يتصفون عادة بشخصية انفرادية تتميز بسلوك أناني عدواني تجاه المجتمع ، كما أن هؤلاء الأطفال يجدون صعوبة كبيرة في تقبل الحب والعطف وتبادله مع أفراد المجتمع ، هذا بالإضافة الى شعورهم دائما بعدم الاطمئنان والى تصرفاتهم العشوائية العدمية الهدف والغاية . وبالاختصار فان هؤلاء الأطفال غير قادرين على تكوين علاقات انسانية سليمة مع أفراد المجتمع حولهم . يقول الأستاذ « و. جولد فارب » (١) Goldfarb ان جميع العلاقات العائلية بشتى اتجاهاتها لا وجود لها عند طفل الملاجيء والمؤسسات ، لأن طفل الملاجيء لا يكون أية علاقات اجتماعية مع الناس . ولذا فان تكوين شخصيته يكون غير متكامل . ولقد اهتمت الهيئات الدولية بدراسة السلوك الاجتماعي للأطفال الذين يربون في المؤسسات ، فقامت هيئة الصحة العالمية بإجراء عدد من التجارب تحت اشراف « ج . بولى » (٢) J. Bowlby على مجموعات من أطفال دول أوروبا والولايات المتحدة دلت كلها على أن أهم دعائم الصحة النفسية عند الصغار هي تبادل علاقة الحب والعطف مع أمهاتهم في السنوات الأولى من حياتهم . وهكذا فان غالبية هذه الدول الآن تسعى الى استعاضة المؤسسات والملاجيء التى يربى فيها الصغار اليتامى واللقطاء بيوت تشبه بيوت الأسر يعيش فى كل منها عدد صغير من هؤلاء الأطفال مع أم (بالتبنى) أو حاضنة ، وسيدات أخريات يمثلن الأقارب ، ويعيش الأطفال معيشة شبيهة بالمعيشة العائلية ، فيذهبون الى المدارس العامة ويعودون الى بيوتهم كما يعود الأطفال الآخرون . وهكذا تحاول هذه الدول تربية هؤلاء الصغار فى أجواء تشبه بقدر المستطاع الأجواء العائلية العامة .

William Goldfarb, (a) «The Effects of Early Institutional care on Adolescent (١) Personality», Journal of Experimental Education, Vol. 12, 1943 p. p. 106—129.

(b) Psychological Privation in Infancy & Subsequent Adjustment, American Journal of Orthopsychiatry, vol 15, 1945, p. 254.

J. Bowlby, Maternal care & Mental Health. (٢)

ان الاعتماد المتبادل أو التكافل الذى يحدث أثناء الاتصال الفسيولوجى بين الأم والجنين قبل ميلاد الطفل ، والذى تكون حياة كل منهما معتمدة فيه على حياة الآخر — هذا التكافل الفسيولوجى يترجم فى حياة الفرد الى تكافل بين الفرد والمجتمع يبدأ بتكافل بين الجنين والأم فى السنوات الأولى لحياته ، وأن الانسان يجد فى هذا التكافل معنى لحياته ولعلاقاته مع الآخرين ، فاذا أهمل الطفل الوليد ولم يعن أحد بأمره فانه يذبل ويموت ، واذا أهمل الفرد ولم يعن أحد فى المجتمع بأمره فان شعوره نحو الناس يفتر وتموت فيه ميوله الاجتماعية كما تمرض نفسه وقد ينتهى به الأمر الى الموت ، وقد قال « اريك فروم » (١) Eric From « انه اذا لم يشعر الشخص بأنه يتسمى الى جماعة ، واذا لم يشعر بأن لحياته معنى وهدفا فانه سوف يشعر كأنه ذرة من تراب ، وسوف يقضى عليه شعوره بعدم جدواه . ان مثل هذا الشخص لا يمكنه أن يتسمى مع أى نظام اجتماعى يبرز معنى واتجاها لحياته ، وسوف تنتابه الشكوك التى تصيب قدرته على النشاط بالشلل ، وسوف يفتنى فى النهاية » .

ويقول أ. أدلر (٢) A. Adler فى هذا الصدد أيضا ، «ان النمو الطبيعى للفرد لا يمكن أن يحدث الا اذا عاش الفرد وكافح كجزء من كل (يعنى المجتمع) ... ويمكننى أن أذهب الى أبعد من هذا لأبين أن جميع وظائفنا الحيوية مهيأة بشكل يربط الفرد والمجتمع ... فعملية الابصار عملية استقبال العين لكل ما يسقط من صور على شبكتها حتم تتم الرؤية ، ثم ترجمة هذه الصور الى أشياء يدركها العقل ويفيد منها ، هذه العملية ليست عملية فسيولوجية محضة ، بل انها عملية تبين أن الفرد جزء من الكل وأنه يأخذ ويعطى ... والابصار والسمع والكلام عمليات كلها تتطلب الربط بين الأفراد . ان جميع وظائفنا الجسمية والعقلية لا تتم ولا تنمو نموا سليما وصحيحا الا اذا كان ذلك فى جو اجتماعى مبنى على التعاون ... واتنا اذا تكلمنا عن الفضيلة فالتنا نعنى أن الفرد يؤدي ما عليه للمجتمع ، واذا تكلمنا عن الرذيلة فالتنا نعنى أن الفرد لا يؤدي ما عليه للمجتمع وأنه يعارض التعاون مع أفراده . ان ميلاد الانسانية لم يكن ممكنا الا بفضل

(١) Eric From, Escape From Freedom, p.p. 21—22.

(٢) A. Adler, Social Interest.

الطبيعة الاجتماعية للجنس البشري . وكما وضع العالم « و . جولد »^(١) في كتاباته أن الوحدة الأساسية للسلوك الاجتماعى ليست للفرد بل للجماعة ؛ فان الطفل يولد بمجموعة من الاستعدادات الفطرية والحاجات ، أما الذات الشعورية « الـ Ego » فانها تكون نفسها من احتكاك الصغير بالعالم الواقعى الخارجى والذوات الشعورية الأخرى للأفراد حوله ، التى تكيف استعداداته وحاجاته . ان السلوك التعاونى عند الطفل الحديث الولادة — كما سبق أن تبين — سلوك طبيعى ، وأن لهذا السلوك التعاونى أهمية أكبر وأعظم أثرا فى حياة الطفل من السلوك التنافسى . ان السلوك التنافسى — كما تقول « شارلوت بوهرلر »^(٢) — لا يظهر فى الطفل الا ابتداء من السنة الثالثة من عمره ، وان هذا السلوك الذى يتم بالعبء يزداد كلما كبر الطفل . وهذا السلوك العدائى — فى رأى كثير من الباحثين فى ميدان علم نفس الطفولة — هو عقدة نفسية تكونت للطفل نتيجة للحرمان أو الاخفاق اللذين قد يتعرض لهما الطفل فيسببان التناقض فى بناء شخصيته^(٣) .

ان الطفل يتعلم بالتدريج أنه اذا أراد أن تجاب رغباته وتشبع حاجاته فلا بد أن يحرص على اجابة رغبات الآخرين وتلبية طلباتهم . واذا أراد أن يكون محبوبا وأن تجاب مطالبه فعليه أن يحب من حوله ويتعاون معهم ، وهكذا بالتدريج يبنى الطفل علاقته مع من حوله ، تلك العلاقات التى تبدأ بالمحبة بينه وبين أمه والتى تشعره بأنه فى مأمن وأنه ينتمى الى أمه ، وعن طريق المحبة والتعاطف أيضا بينه وبين أفراد أسرته يشعر باطمئنان أوسع لأنه ينتمى الى أسرة لها عليه حقوق وله عليها حقوق ، يجب أن يقوم بأدائها كل منهما حتى تظل العلاقات الطيبة قائمة بينه وبينها ، فاذا ما بدأ يخرج عن نطاق الأسرة الى نطاق المجتمع فانه يحصل على حب أفرادهم وتقديرهم اذا تمشى مع تقاليدهم وتعاون معهم ، وتمشيا مع تقاليد المجتمع يتحتم عليه القيام بواجباته نحو هذا المجتمع نظير انتمائه اليه . ولا بد من أن يمر الفرد بعدة صعوبات أثناء عملية التكيف هذه ، اذ أنه سوف يقابل

W. Galt, «The Principle of Cooperation in Behaviour», Quarterly Review of (١) Biology», Vol. 15, 1940, p.p. 406—410.

C. Buhler, «Spontaneous Reactions of Children in the First Two Years», Proceedings & Papers of the 9th International Congress of Psychology, 1929, p.p. 99—100.

L. Bender, «Genesis of Hostility in Children, American Journal of Psychology. (٢) Vol. 105, 1948, p.p. 241—245.

مواقف تضطره للصراع مع رغباته ونزعاته لحفظ حقوق الآخرين ، وانه اذا اعتدى على أحد فسوف يعتدى عليه ، واذا أخذ فانه لا بد أن يعطى ، وبالاختصار فانه سوف يجد أن حياته كلها جزء من حياة الآخرين ، وأن كل فرد في المجتمع مسئول عن الأفراد الآخرين حتى لقد قال « دستويفسكى » Dostoevski « ان كلامنا مسئول عن كل شيء لكل فرد في المجتمع » .

لقد بينت لنا التجارب والأبحاث العلمية والسيكولوجية أن التعاون صفة أصلية في الأحياء وانه بدونها لا يحدث توالد ولا تستمر الحياة ، فالتعاون والمحبة — اذن — ضرورتان للحياة لا تقلان في قيمتهما عن التنفس والغذاء ، وهنا يجيء دور التربية ، ان الفرد وهو في سن التكوين — يمضى الغالية الكبرى من ساعات أيامه في المدرسة لسنوات عدة ، وان هذه الفترات الطويلة من عمر الصغير يجب ألا تستخدم للتعليم فقط ، بل يجب أن تستخدم في توجيه وتنمية العلاقات الانسانية بين التلميذ وبين أفراد المجتمع في المدرسة ، فان تم هذا على وجه سليم فان التلميذ سوف يكون قيما يمكنه — بناء على هديها — أن يكون علاقاته مع الناس خارج المدرسة .

يقول الأستاذ « آشلي مونتاجيو »^(١) A. Montagu ان أهم واجبات المدرسة تنحصر في تعليم القراءة والكتابة والحساب أو كما يسميها الغريون الـ Three R, s وهي « Reading, Writing & Arithmetical » ويرى أن تضاف R رابعة تمثل العلاقات الانسانية Human Relations فتصبح وظيفة المدرسة الأولى توجيه وتنمية العلاقات الانسانية بالاضافة الى تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وهذا لا يعني أن الأطفال في المدرسة لا يتعلمون الآن شيئاً عن السلوك الاجتماعي أو بمعنى آخر لا تكون قيمهم عن العلاقات الانسانية في المدرسة . ان الطفل يتعلم في المدرسة كيف يتعامل مع الآخرين ولكن هذا التعلم يحدث بطريقة غير منظمة أو مدروسة . وذلك لأن الصغار يتعلمون كيف يسلكون مع الغير من الطريقة التي يتعامل بها الأفراد في مجتمعهم المدرسي ابتداء من ناظر المدرسة الى بوابها ، وانه دون أن نجحف بدور المجتمع المنزلي في تشكيل انماط العلاقات الانسانية للنشء ، فان المدرسة تعتبر أهم مكان لتشكيل هذه العلاقات

(١) Ashley Montagu, on Being Human, p. 106.

لذلك ينبغي أن توضع هذه العملية — أى عملية تشكيل العلاقات الانسانية للنشء — فى المرتبة الأولى من الأهمية فى وظائف المدرسة ، اذ لابد من تدريب النشء تدرييا يكفل أن تخرج المدرسة أفراداً آدمين قبل كل شئ ، يتصفون بأنبيل الصفات الانسانية وهى المحبة والتعاطف والتعاون ، ذلك لأنه لا يكفى أن تقع المدرسة بتزويد النشء بالعلم مهما بلغت قيمته ، فما لم يكن هذا العلم مقترنا بالانسانية الرفيعة ، وما لم يستعمل هذا العلم لخدمة الانسانية فى أنبل صورها فانه لا فائدة ترجى منه ، بل انه يصبح خطرا داهما على المجتمع .

ان التعلم عن طريق المثل الذى يحتذى به أسرع وأجدى من التعلم النظرى ، اذ أن التقليد العملى طريقة تعليمية أكثر مباشرة من ترجمة الكلمات المسووعة أو المقروءة الى معان عملية ، فانه من السهل على المدرس أن يقول للتلميذ يجب أن تحب زملاءك وتتعاون معهم ، أو أن يعطيه درسا مكتوبا عن المحبة والتعاون ، الا أنه لن يكون للارشادات أو الدروس أثر مجد الا اذا كان سلوك المدرس مع من حوله يمثل المحبة والتعاون ، أما اذا كان سلوكه منافيا لما يدعو اليه فلا فائدة ترجى من وعظه وتعليماته . مما سبق يتضح أن قيمة المعلم — من حيث أثره على تشكيل أتماط السلوك الاجتماعى للنشء — كبيرة جدا . ان التلميذ يضى أكثر النهار لأكثر أيام السنة فى صحة المعلم ، وعلى ذلك فان المعلم يشغل أخطر وظيفة فى المجتمع ، فهو الذى يشكل عقول الصغار ويمدهم بالمواد الثقافية ويزودهم بالقيم والاتجاهات التى تشكل على هديها أتماط سلوكهم الاجتماعى . وبالاختصار فان المعلم هو الذى يعد مواطنى المستقبل .

ولما كانت للمعلم هذه الأهمية فان من واجبنا — كمجتمع عربى ناهض راغب فى المحافظة على السلام العالمى ، يدين بتقوية روابط المود والتعاون بينه وبين مختلف الشعوب للمحافظة على هذا السلام — من واجبنا أن ندقق فى اختيار المعنمين الصالحين للقيام بأخطر مهمة فى الدولة ، وهى تشكيل شخصيات النشء وهم فى مراحل حياتهم المرنة القابلة للتشكيل والتكيف . انه لا يكفى أن يكون معلم النشء مثقفا و متمكنا من مادته ومن طرق تدريسها ، ولا يكفى أن يكون ملما بالنظريات التربوية قديمها وحديثها ، ولا يكفى أن يكون نشيطا ومحببا للعمل ، ولا يكفى أن يكون دارسا لظروف الوطن العربى الاجتماعية والاقتصادية ولمشاكله فى شتى نواحي الحياة ، الى آخر ذلك من الصفات المرغوب فيها فى المعلم

في عالمنا العربي ، ذلك لأنه — قبل كل هذا — لا بد وأن يكون انسانا متسما بالصفات الانسانية الرفيعة التي يتوجها الحب والتعاطف والتعاون .

فبالإضافة الى قيامه بتقديم العلم والمحبة للصغار و تثقيف عقولهم فإنه سوف يكون المثل الذي يحتذى به في الطريقة التي يتعامل بها مع أفراد المجتمع المدرسي، تلك الطريقة التي لا بد أن تكون مبنية على الحب والتعاون ؛ فاذا ظهر للصغار أن مدرسهم الذي يعاملهم بحب وعطف والذي يتعاون معهم في ايجاد الطرق والوسائل التي تجعل الدراسة مجدية ومحبوبة ، والذي يساعد التلميذ المتأخر حتى يتقدم ويعاون التلميذ المتقدم فيزداد تقدما ، والذي يتعاون مع زملائه المدرسين بروح طيبة تبغى الصالح العام ، ومع رؤسائه لنفس الغرض — اذا ظهر للصغار ذلك فإنه بالتدريج وعن طريق الاعجاب سوف يكون هذا المعلم هو المثل الأعلى لديهم فيقلدونه ، وهكذا سوف يتسم سلوكهم الاجتماعي بظاهرتي الحب والتعاون .

لقد ألقى البحث التربوي خلال الأعوام العديدة الماضية الكثير من الأضواء الكاشفة على السلوك الانساني وعمليات التعليم . ففي السنوات الأخيرة أجريت عدة تجارب لتقييم المعلم كان ضمنها استفتاءات عديدة عملت في الولايات المتحدة على آلاف التلامية بالمدارس تبحث عن أسباب اعجاب التلاميذ بالمدرسين وأسباب نفورهم منهم . وقد دلت هذه الاستفتاءات على أن أكبر عدد من التلاميذ أبدى الأسباب الآتية للاعجاب بالمدرس بالترتيب كالاتي :

١ — يتعاون في العمل المدرسي ويشرح الدروس بوضوح .

٢ — مبتهج — سعيد — طيب — طروب .

٣ — انسان — صديق رقيق — « واحد منا » الخ ..

أما استفتاءات أسباب النفور فجاءت كما يأتي بالترتيب كذلك .

١ — مشبط — كثير التأنيب — ساخر — سريع الغضب — غير متعاون في

العمل المدرسي .

٢ - متعال - متكبر - لا يعرفك خارج الفصل .

٣ - قاس جدا - يجعل الحياة تعسة .. الخ .

وبالنظر الى الصفات التي يستحسنها التلاميذ في مدرسيهم نجد أنها كلها صفات للسمات الشخصية للمدرس ، وأن هذه السمات تتميز بالانسانية الرفيعة كالعطف والصدقة والطيبة والبشاشة وغيرها ، وكلها أوجه مختلفة للمحبة والتعاون الانساني . هذا بينما نجد أن التلاميذ ينقرون من المدرس السريع الغضب الساخر المتعالي القاسى ، وكلها صفات لا تمت للانسانية الرفيعة بصلة . وهكذا يتضح أن السمات الانسانية للمدرس هي التي تقربه لقلوب النشء ، ومتى وصل المدرس الى قلوب التلاميذ فمن السهل عليه أن يصل الى عقولهم وتصبح مهمة التعليم والتعلم مهمة سهلة محببة .

ولم تفت هذه الحقيقة كتابنا وفلاسفتنا ومريينا المسلمين والعرب ، فقد خصوها بالاهتمام منذ أقدم العصور ، وان كتاباتهم تؤكد ضرورة اقامة أوامر الود والتعاطف والتعاون والاحترام المتبادل بين المعلم وتلاميذه وبين الأستاذ ومريديه ، بل وبين الفرد ومن حوله من الناس سواء في بيته أو في المجتمع ، ولقد ذهب بعض هؤلاء الكتاب الى بيان ما يجب أن تكون عليه هذه العلاقات بالتفصيل ، فنجد مثلا أن عددا من كتب الغزالي - الامام الدينى المتصوف - تشمل أبوابا طويلة عن العلاقات التي يجب أن تقوم بين المعلم ومريديه وبين الأفراد بعضهم وبعض ، وقد وضع أن كل هذه العلاقات لا بد وأن تبنى على المحبة والاخلاص والأمانة والتعاون .

فان كان كتابنا القدامى قد بدأوا - منذ قرون مضت - يخصصون هذا الموضوع بالاهتمام ، فحرى بنا - وقد هبت الشعوب العربية مناضلة من أجل قوميتها والدفاع عن حقوقها - أن تتبع خطوات من سبقونا من الحكماء والفلاسفة العرب والمسلمين ونؤكد ضرورة اعتبار العلاقات الانسانية من أهم الأمور التي يجب أن تولى عناية كبيرة في تربية النشء ، وذلك لما لهذه العلاقات

من خطورة في جميع الميادين الاجتماعية والدولية ، ونحن ان أكدنا اليوم ضرورة غرس روح التعاون في الصغار أثناء تربيتهم فانما تؤكد ضرورة العناية بعامل أساسي في بناء مجتمعا الاشتراكي الديموقراطي التعاوني . فان شب النشء وقد آمن بأن المحبة والتعاون هما أساس العلاقات الانسانية السليمة بين الأفراد فسوف يتكون في وطننا جيل مؤمن بهذه الظاهرة الاجتماعية التي هي أساس السلم وأساس النجاح والدعامة التي يمكن أن تقوم عليها العلاقات بيننا وبين اخواننا في مجتمعا الصغير ثم بيننا وبين اخواتنا في الوطن العربي بل بيننا وبين دول العالم جمعاء .

12

مجالات الصحة النفسية بالمدرسة^(١)

للكنوزة سميرة أحمد فهمي

أستاذة علم النفس المساعدة

مفهوم الصحة النفسية :

الصحة النفسية فرع من فروع علم النفس التطبيقي. فينما يدرس علم النفس سلوك الكائنات الحية في تفاعلها مع البيئة ، ومصادر هذا السلوك وعواقبه ، تهتم الصحة النفسية بتقييم عواقب السلوك من حيث كونها مرضية أو غير مرضية للشخص . وتكون عواقب السلوك مرضية أو غير مرضية للشخص وفقا لنوع الأهداف التي يحققها أو يقصر عن تحقيقها .

وإذا كان من المسلم به أن الناس يختلفون فيما بينهم ، فمن المسلم به أيضا أن البشر يشتركون في بعض المميزات النفسية العامة. يترتب على ذلك أن على الرغم من أنه قد يكون لكل شخص أهداف خاصة في الحياة ، إلا أن الباحثين تمكنوا من اكتشاف أهداف عامة أساسية للحياة البشرية — أهداف ذات قيمة في حد ذاتها ، يجب تحقيقها الرضا والسعادة للبشر .

فما هي هذه الأهداف العامة التي اكتشفها علماء الصحة النفسية ؟ الغرض الأساسي من الحياة من وجهة نظر الصحة النفسية هو أن يصبح الفرد شخصية ناضجة . وبناء شخصية ناضجة عملية تطور خلاق يقتضى تعبئة جميع امكانيات الانسان ، ولا بد من أن تختلف من شخص لآخر ، لأن كل واحد منا شخصية فريدة لها تاريخ خاص بها . ومع ذلك فهناك مبادئ أساسية يمكن أن يهتدى بها الشخص الذي يسعى الى النضج النفسى ، ونلخصها فيما يلي :

الشخصية الناضجة :

١ — تحقق الاستقلال النسبى والاعتماد على النفس .

(١) بحث قدم الى الحلقة الدراسية لاسس التربية في العالم العربى - يونيو

سنة ١٩٦١

- ٢ — تكون علاقات اجتماعية طيبة وتستمتع بها .
 - ٣ — تعرف نفسها بأمانة وتقدرها حق قدرها .
 - ٤ — مستعدة لمواجهة الحقائق الواقعية .
 - ٥ — تعنى عناية متزنة بكل ناحية من نواحي طبيعتها فتنهم بالعمل واللعب والحب والعبادة وغيرها .
 - ٦ — تنظم اتجاهاتها المتنوعة المتضاربة في وحدة متكاملة متسقة .
 - ٧ — تبنى لنفسها مقياسا من القيم والمثل العليا وترجمه الى خطة عملية تعينها على مواجهة مشاكلها ، والتعيز بين السبل المختلفة لحلها ، والتبصر في عواقب الأمور ، وتقييم النتائج .
- هذه هي الأهداف الأساسية التي يرى علماء الصحة النفسية أنها ترضى الانسان وتسعده ، اذا سعى الى تحقيقها في حدود النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه . وهذا ما نسميه في علم الصحة النفسية بالتكيف أو الملاءمة .

توضيح معنى التكيف :

يتضمن التكيف تفاعلا مستمرا بين الشخص وبيئته ، فللشخص حاجات وللبيئة مطالب ، وكل منهما يفرض مطالبه على الآخر . ويتم التكيف أحيانا عندما يرضخ الشخص ويتقبل الظروف البيئية التي لا يقوى على تغييرها . ويتحقق التكيف أحيانا أخرى عندما يعبئ الشخص امكانياته البناءة فيعدل الظروف البيئية التي تقف في سبيل أهدافه . وفي أغلب الأحيان يكون التكيف حلا وسطا بين هذين الطرفين . وينشأ سوء التكيف عندما يفشل الشخص في تحقيق مثل هذا الحل الوسط فتسوء صحته النفسية .

فالصحة النفسية السوية اذن تمثل القدرة على التكيف ، قدرة الشخص على التوفيق بين رغباته وأهدافه من جهة ، وبين الحقائق المنادية والاجتماعية التي يعيش في وسطها من جهة أخرى . فاما أن يلائم بينه وبين المطالب التي يفرضها عليه الواقع ، واما أن يهتدى الى طرق يعدل بها هذه الوقائع بحيث تصبح مستساغة اليه .

فإذا أردنا أن نعنى بصحتنا النفسية علينا أن نتوضح أولاً رغباتنا وأهدافنا في الحياة ، وثانياً المطالب التي يفرضها علينا الواقع . أما أهدافنا العامة فلقد أوجزتها في النقاط السبع السابقة . واما بخصوص الشروط التي يفرضها علينا الواقع فيمكن تلخيصها كالآتي :

الحياة الواقعية تتطلب منا أولاً التغير والتطور . فالتكيف لا ينتهي أبداً ، بل يجب أن يستمر من يوم لآخر ومن مرحلة نمو إلى أخرى في حياة الشخص . فكل خطوة في النمو تتطلب تكيفاً جديداً ، ولا يمكن التثبيت بأساليب التكيف القديمة دون تغييرها وتطويرها إلا على حساب صحتنا النفسية .

ثانياً : تفرض علينا الحياة الواقعية مطلباً آخر مضاداً للمطلب الأول ، ألا وهو الثبات والمثابرة ، ومواصلة الكد والجهد في أعمالنا لكي نحقق النجاح فيها . والتكيف يتطلب توازناً سعيداً بين التطور والمثابرة . ولعل أحسن تعبير عن هذا التوازن السعيد هو وصف التكيف بأنه القوة المرنة . فالأشخاص الجامدون هم الذين يفتقرون إلى عنصر المرونة . أما الذين لا يحتملون الأزمات الكادحة ولا يتجددون أمام الصعاب فهم الضعفاء . والشخص الذي يتمتع بصحة نفسية سوية هو الذي يستطيع أن يسلك بمرونة أو بقوة وفقاً للظروف . ومواجهة التطور بالنسبة للأطفال لا تقل صعوبة عن تعلم المثابرة .

المطالب التي تفرضها المدرسة على الطفل :

ينتقل طفل السادسة من مجتمع الأسرة إلى مجتمع المدرسة ، ولا شك في أن الاختلاف الكبير بين المجتمعين يتطلب من الطفل أشكالاً جديدة من التكيف . فلنتبصر إذن فيما تتطلبه الحياة المدرسية من الطفل :

١ - التكيف الدراسي : تتطلب المدرسة أن يتعلم الطفل القراءة والكتابة والحساب والعلوم وغيرها من فروع الفنون والمعرفة ، وأن يؤدي الواجبات التي يعطيها المدرس ، وأن يصل إلى مستوى معين من التقدم في نهاية كل عام ، وأن ينجح في الامتحان ، الخ .

٢ - التكيف الاجتماعي : الحياة المدرسية تتطلب من الطفل أن يندمج في مجموعة أكبر من مجموعة الأسرة ، مجموعة منظمة تنظيمياً يخالف تنظيم الأسرة . عليه أن يكون الأصدقاء ، وأن يستعد لهجمات المعتدين ، وأن يقيم لنفسه مركزاً

اجتماعيا مرضيا بين زملائه. لم يعد الطفل محور الانتباه والرعاية كما كان في أسرته، بل عليه أن يشارك زملاءه انتباه المدرس ورعايته ، وأن يتعاون معهم في العمل واللعب . سوف يتعرض لحكم الزملاء والمدرسين عليه مما يؤثر على تقديره لذاته تأثيرا عميقا .

٣ - التكيف الخلقى : سوف يكتشف الطفل بعض التعارض بين قيم المنزل وقيم المدرسة ، مما يحتم عليه التوفيق بينهما اذا أراد أن ينعم براحة البال . فقد ينظر الوالدان اليه نظرة اعجاب وتقدير ، وقد يعتبره المدرس غيبا طائشا . أو قد يتحير في أمره لأن بعض التلاميذ يمارسون أفعالا هي من المحرمات في أسرته ، أو لأن بعضهم يحتالون للتوصل من مسؤولياتهم ، دون أن يكشف أمرهم أحد ، فيتساءل عن قيمة الأمانة . ولا شك في أن التلميذ يواجه تعقيدات خلقية كثيرة في الحياة المدرسية ، تعقيدات تفرض عليه وطأة الموازنة والاختيار ، وضرورة التكيف لمواقف كل قرار يتخذه .

وهكذا نلاحظ - لو دققنا النظر - أن ما يتطلبه المجتمع المدرسي من التلميذ لا يخرج عن المطالبين اللذين سبق أن أوجزناهما في : التطور من جهة والمثابرة من جهة ثانية . فالمجتمع المدرسي يتطلب من التلميذ أن ينمو ويتطور ، كما يتطلب منه تعلم الثبات والمثابرة .

مطالب التلميذ من المجتمع المدرسي :

يجدر بنا أن نتذكر دائما أن التكيف في المدرسة يتضمن طرفين : المجتمع المدرسي من جهة وشخصية الطفل النامية من جهة أخرى . واذا كان للمجتمع المدرسي مطالبه فان لشخصية الطفل طبيعتها ومميزاتها . وكما يجب مراعاة نظام المجتمع المدرسي ، يجب كذلك مراعاة قوانين نمو شخصية الطفل ، وطبيعة حاجاته ودوافعه وقدراته ، ونوع الخبرات التي تأثر بها قبل دخوله المدرسة . ولا ينعم التلميذ بصحة نفسية سوية الا اذا أرضيت مقومات شخصيته وتحققت في نفس الوقت مطالب المجتمع المدرسي . وينشأ سوء التكيف عند ما تتعارض نظم المدرسة مع طبيعة قوانين النمو النفسى ، فيعجز الطفل عن مواجهة هذه النظم بطريقة تتلاءم مع طبيعة نمو شخصيته .

فاذا أردنا بناء المجتمع المدرسي بناء يكفل تحقيق مبادئ الصحة النفسية السوية للتلميذ ، وجب علينا أولا أن نتعرف على طبيعة النمو النفسى ، وأن نفهم

كيف تتكون شخصية الطفل وكيف تتكامل وتنضج . ثم تتجه بعد ذلك ، ونحن مزودين بالمعرفة والفهم ، الى بناء المدرسة التي نرعى ولا نتخنى ، توجه ولا ترغم ، تسعد ولا تشقى .

ولا يتسع المجال هنا لوصف نمو شخصية الطفل منذ الولادة حتى مرحله دخوله المدرسة . وسأكتفى بالقاء الضوء على أهم العوامل التي تشكل نمو شخصية الطفل وكيف يظهر أثرها في تكيفه المدرسي .

العوامل التي تشكل نمو شخصية الطفل :

سوف أتناول بالدراسة النواحي الآتية :

- ١ — موقف الوالدين وخبرات الطفل في البيئة المنزلية قبل دخوله المدرسة .
- ٢ — خواص الطفل الشخصية عند دخوله المدرسة : بنيته ، سماته المزاجية ، قدراته العقلية ، استعداداته الخاصة الخ .
- ٣ — دور العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي في نمو الشخصية .
- ٤ — تكوين الضمير والمثل العليا التي توجه السلوك وتضبطه .

أما منهجى في العرض فيتلخص في وصف النمو الطبيعي في كل ناحية ، ثم كيف يحدث التكيف السليم ، وكيف ينشأ سوء التكيف ، وكيف يؤثر هذا وذلك على تكيف التلميذ في المدرسة .

١ — موقف الوالدين وخبرات الطفولة قبل دخول المدرسة :

ان طفل السادسة الذى يواجه المدرسة لأول مرة ، يحمل معه تاريخا خاصا حافلا بالأحداث . ولا نبالغ اذا قلنا ان الاتجاهات الأساسية لشخصية الطفل تكون قد وضعت خلال السنوات الست التى عاشها بين أسرته . ولعل المدرسة النابهة الحنون تستطيع أن تفهم بعض هذه الاتجاهات ، اذا هى لاحظت سلوك الطفل ملاحظة دقيقة خلال الأسابيع الأولى من حياته المدرسية .

يولد الطفل مزودا بذخيرة من الحاجات والدوافع الفطرية التى تحفزه الى النشاط من أجل اشباعها . كذلك هو مزود بقدرة واسعة على التعلم . هذان العاملان — الدوافع والقدرة على التعلم — وتفاعلها مع البيئة المحيطة ، تشكل نقطة البداية فى نمو النفسى . ويحتل الوالدان مركزا رئيسيا فى بيئة الطفل ،

فمعاملتها له وموقفها منه من أهم العوامل التي تؤثر في تكوين شخصيته . ويتجلى ذلك بالنسبة لبعض الميول الفطرية أكثر من غيرها ، نظرا لأنها بطبيعتها تتصادم بالضغوط الاجتماعية التي يتعرض لها الطفل في الأسرة، من هذه الميول : (١) ميل الطفل الى الاعتماد على الغير . (٢) وميله الى الفردية المطلقة والتحرر من القيود ، (٣) وميوله العدوانية . وسوف نتناول كلا منها وتبصر في مشاكل التكيف التي قد تنشأ من عدم نموها نموا صحيحا ، وعدم انسجامها في وحدة الشخصية المتكاملة .

اعتماد الطفل : يعتمد الرضيع اعتمادا يكاد يكون تاما على الآخرين لتفريغ متاعبه وارضاء حاجاته . وبإطراد نموه يصبح أقل عجزا ، ويتطلب منه المجتمع مثلا في شخص الأم ، أن يضطلع بنصيب أكبر من النشاط لاشباع احتياجاته . وكلما تفتحت قدراته بالتدرج نلاحظ أن اتجاهه نحو خدمة نفسه يحل محل اعتماده على الآخرين .

وبينا توجد دوافع كثيرة تحث الفرد على التحول عن اعتماده الطفلي ، فإن العملية مع ذلك ليست يسيرة التنفيذ . ذلك أنها تعنى الانتقال من طريقة سهلة في اشباع الرغبات الى طريقة أكثر صعوبة . ولكي يتعلم الطفل الطريق الأصعب لا بد أن يكون مجزيا ، بل من الضروري أن يكون الجزء الذي يحصل عليه الطفل من الاستقلال النسبي أكبر من ذلك الذي يحصل عليه لو بقي معتمدا على الآخرين . ومن حسن الحظ بالنسبة لنمو الطفل ، فإن خدمة الذات مجزية ومرضية في حد ذاتها . فالطفل يفرح بقدرته اذا استطاع أن يقضى بعض حاجاته . ولكن الاستقلال يتضمن بعض الأعمال الصعبة التي يقتضى تعلمها حافزا اضافيا مثل مدح الوالدين الجنونين للطفل وتشجيعهما له .

وينشأ سوء التكيف المدرسي عندما لا يكون الطفل قد نجح بدرجة معقولة في التطور من الاعتماد الى الاستقلال النسبي عند دخوله المدرسة . ويمكن أن نصف مثل هذا الطفل بأنه متشبث أو متعلق بميوله التوكلية الطفلية . وقد يرجع ذلك في بعض الحالات الى عوامل فطرية في تكوين الطفل تساعد على تثبيت الاعتماد على الغير . الا أن موقف الوالدين واتجاههما يلعب دورا هاما . فهناك اتجاهان متعارضان يمكن أن يسببا تثبيت الميول التوكلية : الأول هو

الافراط في تدليل الطفل والمبالغة في حمايته . والثاني هو اهمال الطفل والاعراض عنه والاحباط المبتسر لرغباته .

الطفل الذي يذهب الى المدرسة دون أن يكون قد تخلى بدرجة معقولة عن اعتياده الطفلي سوف يواجه صعوبات متعددة في تكيفه للسنجيم المدرسي . ففي لعبه يتوقع أن يسلبه الآخرون ، وفي عمله يريد أن يساعده المدرس في كل صغيرة وكبيرة ، وفي علاقاته الاجتماعية يتميز بالسلبية دون المشاركة والتبادل . كل هذا سوف يعرضه لحية الأمل والاحباط المستمر لأنه لا يعقل أن يستجيب الزملاء لميوله التواكليه ، كما أن التلميذ الذي يكون عالة على زملائه لا يحوز احترامهم وتقديرهم .

النزوع الى الفردية : بجانب الاعتماد المتناهي على الآخرين ، يكون الطفل في نفس الوقت ذاتيا الى أقصى الحدود ، متحررا من جميع القيود والأنظمة التي ينصاع لها البالغون . الا أن تقدمه في النمو يحتم عليه أن يتخلى تدريجيا عن انطلاقه وتلقائيته . فبدلا من أن يعمل ما يروقه ، في الوقت الذي يروقه ، وبالكيفية التي تروقه ، عليه أن يتعلم مراعاة الآخرين ، وأن يعمل وفقا لبرنامج معين بحيث تتسق أفعاله مع أفعال باقي أعضاء الأسرة . هذه هي عملية التكيف الاجتماعي ، ومعناها بالنسبة للطفل التخلى تدريجيا عن امتيازات الطفولة والتلقائية الفردية .

وتبدأ عملية التطبيع الاجتماعي خلال السنة الثانية والثالثة من عمر الطفل ، فيبذل الوالدان الجهود المتواصلة لحملة على ذلك . ويستجيب الطفل للضغوط الواقعة عليه ، فيتعلم أن يفصل يديه وأمنائه ، وأن يرتب ممتلكاته ، وأن يشارك الأطفال الآخرين في لعبه ، وأن يتحكم في عمليات التبول والتبرز ، الخ .

ولكى يتطور الطفل تطورا سليما نحو التطبيع الاجتماعي ، يجب أن يراعى الوالدان توقيت مطالبهم توقيتا دقيقا بالنسبة لنمو الطفل ، بحيث يكون في وسعه القيام بما يطلب منه . فمن الحق أن تتوقع نجاح التدريب على الاخراج المعوى قبل أن ينضج الجهاز العصبي والعضلي النضج الكافي الذي يؤدي الى التحكم في العضلات الشرجية العاصرة . كذلك اذا تذكر الوالدان أن تعلم القواعد الاجتماعية عملية بطيئة ، لما ضجرا لأخطاء الطفل أو انتكاسه في أثناء تعلمه . الا أن العامل الجوهرى في اقبال الطفل على تعلم التطبيع الاجتماعي هو موقف

الوالدين منه . عندما يكافئان نجاحه بالاستحسان والاحترام الصادق ، ويفقدان عليه المحبة والحنان عن طيب خاطر في جميع الأوقات ، سوف يشعر الطفل أن الامتثال لرغباتها صفقة رابحة ، فينتقل القيود حبا في والديه . ومن هذه المرحلة الأولية في التكيف الاجتماعي سوف يتقدم في يسر الى المرحلة التالية حيث يدرك المنافع الحقيقية التي تعود عليه من ملاءمة سلوكه مع سلوك الآخرين ، ومن تعاونهم معهم في شتى أنواع النشاط . فمثلا قد يرضى الطفل أن يشاركه الأطفال لعبة استجابة لنصيحة والديه ومن أجل حبه لها ، ولكنه سوف يكتشف عاجلا أو آجلا أن استمتاعه باللعب الجماعي يفوق استمتاعه باللعب الفردي .

وينشأ سوء التكيف عندما يتشبث الطفل بميوله الفردية المطلقة . وينتج ذلك من اتباع الوالدين لأحد اتجاهين : الأول هو الايغال في التسامح واللين حيث يفتقر الوالدان الى الحزم في طلب الانتظام من الطفل . وعواقب هذا التهاون هو تأجيل مسألة التطبع الاجتماعي ، ومضاعفة أعباء المدرسة ، حيث لا يمكن أن تتوقع من المدرسين والزملاء أن يتصفوا بالصبر الجميل ازاء طفل في السادسة أو السابعة يسلك سلوك طفل في الثالثة ، فيرفض التقيد بالقواعد الأولية للحياة المدرسية ، ويستهنر بحقوق الآخرين .

أما الاتجاه الثاني الذي يؤدي الى تثبيت الميول الذاتية المطلقة فهو تدريب الطفل على التطبع الاجتماعي في الأسرة بالاكراه والاجبار ، والتهديد والتكيل والاذلال . ان استخدام هذه الوسائل قد يضطر الطفل الى الانصياع لأوامر والديه ، ولكن طاعته مشوبة بالنقمة والحقد ، وكلما سنحت له الفرصة ارتد الى عمل ما يروقه بعيدا عن الأنظار . واذا تسمت منابع السلوك الاجتماعي والمشاركة بهذه الكيفية في مراحل النمو الأولى ، تعذر على الطفل أن يتقدم الى المرحلة التي يكتشف فيها فائدة التعاون الاجتماعي وما فيه من خير للجميع .

مما تقدم يمكن أن تتصور المشاكل التي سوف يقع فيها التلميذ الذي لم يتدرب في أسرته تدريبا سليما على الالتزام بقواعد الحياة الاجتماعية . مثل عذا التلميذ قد يرفض الذهاب الى المدرسة لأنهم العلل ، أو يترأخي في تأدية واجباته المدرسية ، أو يتحدى نظام المدرسة . سوف يصعب عليه الاندماج مع الجماعة ، ويعجز عن الأخذ والعطاء في نشاطه الاجتماعي ، ولا يستمتع بحقوق الزمالة والتزاماتها .

الميول العدوانية : توصلت الأبحاث العلمية المستفيضة الى أن العدوان هو استجابة للاجباط ، أى أن الاجباط هو الذى يستثير العدوان . ويتولد الاجباط من احداث خارجية تعوق الشخص من اشباع حاجاته ، أو تقيد حريته ونشاطه ، أو تؤذى جسده أو تجرح اعتباره لذاته . اذا أجبط الشخص لأى سبب من هذه الأسباب استولى عليه الغضب واندفع الى تدمير العوائق المحبطة . وان لم يستطع التعبير عن عدوانه وكراهيته بصورتها الطبيعية الصريحة ، فان هذه الميول تتماز بقدرتها على تغيير أشكالها وأهدافها ، كما يمكن تأجيلها أو كبتها ، ثم لا تلبث أن تظهر من جديد فى صور مقنعة متعددة . فقد يتكرر اجباط الطفل فى الأسرة مثلا ، ثم يذهب الى المدرسة فيعصب غضبه هناك : يكسر الأشياء وي تلف الأدوات ويمزق الملابس ويهاجم زملاءه ويضربهم ، لا لشيء حدث فى المدرسة وانما بسبب الاجباط المزمع فى المنزل .

وسواء فى الأسرة أو فى المدرسة أو فى المجتمع الأكبر ، فان الميول العدوانية تزعجنا ، وآثارها المدمرة تحملنا على بذل جهود جبارة لتقييدها وقمعها وحماية المجتمع من اخطارها . الا أن مبادئ الصحة النفسية ترشدنا الى ضرورة تصريفها وتوجيهها . وذلك أولا بفهم طبيعتها فهما صحيحا . فكما سبق أن أشرت ، أن الطفل لا يغضب جبا فى الغضب ، ولا يدمر جبا فى التدمير ، بل هو يدمر لازالة العوائق المحبطة . وثانى ما ينبغى أن نفهمه هو أنه مادام الاجباط فى حياتنا محتم الوقوع ، فلا مناص اذن من استثارة العدوان والغضب . ولتوضيح ذلك تبصر فى حياة الطفل فى الأسرة حيث تتعقد العلاقات الانسانية باختلاط الحب بالكره . فالطفل يعتمد على والديه ويحبهم ، والوالدان يشبعان حاجاته ويفقدان عليه المحبة ، ولكنهما فى نفس الوقت يفرضان عليه مطالب تستثير غضبه وحفيظته . فالأم تمنح الطعام والحب والعناية ، ولكنها مسؤولة أيضا عن الفطام والتدريب على عمليات الاخراج وعلى التطبع الاجتماعى ، فضلا عن أنها تحب باقى أعضاء الأسرة وتعنى بهم مما يستثير غيرته وحقده . أخوته هم حلفاؤه وزملاء لعه ، ولكنهم فى نفس الوقت منافسوه فى علاقته بوالديه . على الطفل أن يجاهد للتغلب على هذه الانفعالات العدوانية التى تجتاحه . عليه أن يتعلم مهادة منافسيه ، وأن يكتشف المزايا التى يمكن أن يجنيها من التضامن معهم فى سلام ،

كيف اذن يحقق الطفل ذلك ؟ يتطلب التوجيه السليم للبول العدوانية التدريب على التنفيس المعتدل والضبط المرن . ونقصد بالتنفيس مواجهة الغضب والكراهية والتسليم بوجودها واخراجها الى النور . أما الضبط فمعناه التحكم في الثورة والهيجان بحيث يتسنى للشخص التفرغ لازالة أسباب الغضب بكفاية لا يمكن توفرها في حالة الهياج. هذا النظام المرن من عادات التنفيس والضبط، يمكن أن يكتسبه الطفل اذا نشأ في جو عائلي يتم بالتسامح والحزم في نفس الوقت . أما التسامح فمعناه التسليم بالاحباط المحتوم الذى يتتاب الطفل ، وتقبل مظاهر الغضب والكراهية التى ييديها أحيانا ومواجهتها بصراحة . وأما الحزم فيعنى الأخذ بيد الطفل لتدريبه على ضبط ثورته ، ومعاوته على تعلم الوسائل التى يزيل بها أسباب احباطه . فمثلا قد يشعر الطفل بالغيرة من أخيه الرضيع وقد يعبر عن عدائه بشتى الطرق . وللوالدين الحق في حماية الرضيع من الأذى ، ولكن لا يجوز لهما تأنيب الطفل لغيرته ، واشعاره بالذنب ، وتهديده بحرمانه من الحب اذا هو عبر عن غيرته . فقد يكبت الغيرة لينال رضى الوالدين ، ولكن الكبت يؤدى الى ظهور العداء في صور أخرى ملتوية مقنعة ، ويسبب للطفل مشاكل متنوعة مثل الفرع الليلي والعناد والتبول الليلي .. الخ .. ويمكن معاونة الطفل على التغلب على الغيرة بأن يقدر الوالدان موقف الطفل ، وأن يؤكدوا له بالقول والعمل ودون ملل أنها لا يزالان يحبانه ، وأن يهيئا له الفرص لكى يقوم بدور الأخ الأكبر في خدمة الرضيع ، وأن يمتدحاه على معاوته . وبالتدرج سوف يشعر الطفل أنه أقوى من الرضيع وأنه يستمتع باللعب معه .

ويرجع الفشل في تكييف الميول العدوانية اما الى تهاون الوالدين في ضبطها أو الى التشدد الصارم في قمعها . أما التهاون في وضع الحدود والضوابط فيؤدى الى تمادى الطفل في الغضب والتهور والاعتداء على الآخرين بلا حساب . ولا شك في أن مثل هذا الطفل يعجز عن الاندماج في المجتمع المدرسى . اما القمع المتناهى الذى يمنع الطفل من التعبير عن غيظه ، والذى يرغمه على الادعاء بأنه لا يشعر باتفعالات الكراهية وان الحب فقط هو الذى يسود في الأسرة — ان مثل هذا الكبت يقضى على الطفل بالتوتر والقلق والصراع وكلها تحول دون تكييفه . ذلك أن كبت الغضب يعنى عدم تصفية المضايقات كلما هبت ، يعنى تراكم الحقد والحفيظة وتثبيت الغيرة والتشكك ، وهذه جميعها سوف تسم علاقات الطفل

الوجدانية فيما بعد في المدرسة ، وتقف حائلا في سبيل المحبة والصدقة والتضامن بين الزملاء ، وتضع التلميذ في موقف المغلوب على أمره الذي لا يستطيع الدفاع عن حقوقه اذا اتهمت . فضلا عن ذلك فان غايات الغضب المضمّر قد يصل فجأة الى درجة الانفجار ، فتصدر عن التلميذ أعمال عدوانية فجائية عنيفة دون سبب ظاهر معقول . فان العدوان اذا لجم عنوة اما أن يحطم توازن الشخص نفسه ، أو أن ينطلق في أشكال خطيرة على الأشخاص والأشياء الخارجية .

٢ - خواص الطفل الشخصية وأثرها في تكيفه المدرسي

ان صفات الطفل الشخصية ، بنيته، سماته المزاجية، قدرته العقلية، استعداداته الخاصة ، هذه جميعها تؤثر تأثيرا عميقا على تكيفه في المدرسة . هي تؤثر على تقدير الآخرين له ، وبالتالي على تقديره لنفسه . وفي مستهل هذا البحث ذكرنا أن معرفة الشخص لنفسه معرفة صحيحة وتقديرها حق قدرها من الأهداف الأساسية للصحة النفسية السوية .

أهمية الزملاء : اذا كان التشجيع أو التثبيط الذي يمنحه الوالدان والأخوة لمجهودات الطفل ، يلعب دورا حيويا في تكوين اعتباره لذاته ، فان المجال الحاسم لاثبات الجدارة الشخصية هو مجال الزملاء في المدرسة . ينتقل الطفل من جو المنزل المتهافت الى المجتمع المدرسي المشبع بالتنافس ، ويتمين عليه عندئذ أن يخضع لمعايير جد مختلفة عن معايير الأسرة، وان هذا الجهاد قاس بالنسبة لكثير من الأطفال . عليهم أن يكونوا جديرين بالاحترام، عليهم أن يظهروا ما لديهم من أقدام وشجاعة ومهارة وتودد ، وأن يقارنوا أنفسهم مقارنة مباشرة بأطفال آخرين من نفس سنهم ، واذا فشلوا فجزأؤهم التحقير والسخرية والنبذ من المجموعة .

يتطلب المجتمع المدرسي من التلميذ اذن أن يثبت جدارته الشخصية ، والا فعليه أن يعاني آلام الشعور بالنقص . وهذا يثير مسألة الفروق الفردية في الجدارة .

الفروق الفردية في البنية الجسمية : تلعب الصفات الجسمية دورا مزدوجا في نمو الشخصية فهي أساس الجدارة المبنية على القوة والحيوية والجرأة الرياضية من جهة ، كما أنها موضوع الأحكام الاجتماعية المتعلقة بالجمال والجدانية الشخصية من جهة أخرى . ولا شك في أن هناك فروقا كبيرة بين الأفراد في الخواص

التركيبية للجسم ، ولا شك في أن الجسم ، سواء من جهة القوة والمهارة أو من ناحية الجمال والجاذبية ، يحتل مركزا هاما في نمو اعتبار الذات ولا سيما بين السنة الخامسة والسنة العشرين من العمر . وأى انحراف عن الشكل الطبيعي قد يولد شعورا حادا بالنقص ، اللهم الا اذا كان الى جانب الامتياز من حيث القدرة الرياضية عند البنين أو من حيث الجمال عند البنات .

ومن المشاكل التي تؤثر — ولو بطريقة مختلفة — على كلا البنين والبنات ، مسألة تقدم موعد النضوج الجنسي أو تأخره عن المتوسط . فالبنات اللاتي يسبقن زميلاتهن في النضوج الجنسي ، والأولاد الذين يتأخرون في النضوج الجنسي عن زملائهم المراهقين ، قد يصعب عليهم التكيف والاندماج في المجموعة ، فيتألمون لعدم تقبل الجماعة لهم .

الفروق الفردية في الصفات المزاجية : المقصود بالمزاج في علم النفس .
(١) المميزات الوجدانية للفرد مثل قوة خبراته الانفعالية وعمقها وسرعة استثارتها وسرعة تغيرها . (٢) الأسس الفسيولوجية المفترضة لمثل هذه الخبرات مثل الفروق الفردية في افراز الغدد الصماء . (٣) الخواص الحركية للفرد مثل طاقة استجاباته الحركية وضبطها وحركاته التعبيرية .

والصفات المزاجية تبدو بوضوح بين تلاميذ المدارس فهناك الطفل النشيط المتدفق الحيوية الذي يقدم على القيادة في جميع المشاريع . وهناك الطفل الودود الذي يقبل في يسر على الزمالة والصدقة . وهناك الطفل الخجول المشدود الحذر الحساس الذي يبقى على هامش الأحداث .

ومن المعروف أن هذه الميول المزاجية تتأثر الى حد بعيد بالخبرة الشخصية وموقف الوالدين بالنسبة للطفل ، ولكن العوامل الوراثية قد يكون لها وزنها أيضا في تكوينها . والأمر الذي يهنا في مجال الصحة النفسية هو أن تكيف الطفل في المدرسة سوف يتحقق بأسلوب يختلف باختلاف صفاته المزاجية . كما أن سوء التكيف سوف يحدث اذا أرغم التلميذ على اتباع أسلوب لا يتلاءم مع تكوينه المزاجي . كأن يجبر الطفل النشيط المتدفق الحيوية على الجلوس الساعات الطوال منكبا على القراءة . أو أن يدفع الطفل الهادئ الحذر المتأمل الى أن يكون

بطلا في الألعاب الرياضية . ان الأعمال التي لا تستند الى بعض الميول الفطرية تجلب السأم والصراع . ومن حسن الحظ أن معظم الأمزجة تكون متوازنة التكوين مما يسهل مهمة التوجيه التربوي الى حد ما .

الفروق الفردية في القدرات العقلية : معظم تعاريف الذكاء العام تؤكد الصلة بينه وبين مفهوم التكيف الذي أوضحناه في مستهل هذا البحث . فالذكاء متصل بالقدرة على التعلم وحل المشكلات والحكم والتفكير . واذا تصورنا أن عملية التكيف تتضمن ناحيتين : احدها معرفية والاخرى دافعية وجدائية ، فيمكن اعتبار الذكاء الناحية المعرفية من عملية التكيف الشخصي .

من الواضح أن الذكاء العالي يساعد على التكيف ، وأن الذكاء المنخفض يعوقه . فاذا ثبت أن نسبة ذكاء طفل دون ٥٠ ، فالمرجح أنه يعجز عن التكيف للعالم المحيط به . ولا يستطيع مسابقة المدارس العادية ، ويحتاج الى الوصاية في مؤسسات خاصة مناسبة . أما الأطفال الذين تتراوح نسبة ذكائهم بين ٩٠،٥٠ فانهم يقسمون عادة الى ثلاث فئات وفقا لدرجة نقصهم العقلي . ومشاكل التكيف المدرسي بالنسبة لهؤلاء أكثر تعقيدا . ذلك أن نقصهم العقلي قد يفوت على الملاحظة السطحية ، وقد يتوقع المدرس منهم أن ينجزوا أعمالا هي في الواقع أعلى من مستوى قدرتهم العقلية . واذا تبين للمسئولين في آخر الأمر ان طاقتهم العقلية محدودة ، فانهم يبقون مع ذلك في الفصول العادية ، ويعيدون السنوات الدراسية ، ويوصمون بالبلادة وبأنهم ميئوس منهم . وهذا بالطبع يدعم شعورهم بالنقص ويعرقل تكيفهم ، فاما أن ينجحوا الى أعمال غير مشروعة ، واما أن يعزلوا ويفرقوا في أحلام اليقظة . ويمكن علاج هذا الموقف بانشاء فصول خاصة أو مدارس خاصة ، يراعى فيها أن تكون طريقة التدريس والمناهج ملائمة لعقليتهم المحدودة . كما ينبغي تدريبهم على أعمال بسيطة نافعة يكسبون بها عيشهم .

أما الذكاء العالي فهو بوجه عام يعين صاحبه على التكيف السوي ، ولكنه بالطبع لا يمنع سوء التكيف . ذلك أن النجاح في التكيف المدرسي لا يتطلب قدرا معقولا من الذكاء فحسب ، بل يتوقف أيضا على نوع الدوافع التي تحفز التلميذ نحو التعلم وموقفه من المجتمع المدرسي . الا أن اتجاه الأبحاث السائدة لا يزال يرجح النتائج التي وصل اليها ترمان من أبحاثه المستفيضة عام ١٩٢٥ ، وهي أن الأطفال الموهوبين (نسبة ذكاء أعلى من ١٤٠) يتفوقون على المتوسطين

من نفس العمر الزمني ، في صحتهم وبنيتهم وسعة اهتماماتهم وتكيفهم الاجتماعي وازترانهم الوجداني ، وانهم يحتفظون بهذه الميزات بتقدم عمرهم .

الآن قد تنشأ مشاكل خاصة بهؤلاء القلة النابغين الذين يبلغ تفوقهم العقلي درجة قصوى يستحيل معها اتصالهم بمن حولهم من الزملاء والمدرسين ، فيؤدي ذلك الى العزلة الاجتماعية كما بينت لينا هلنجورث في دراستها الواسعة لأطفال بلغت نسبة ذكائهم ١٨٠ فأكثر .

وبجانب الفروق التي وصفناها في الذكاء العام ، فان الفروق الفردية في الاستعدادات الخاصة والمواهب تحتل أهمية عملية كبيرة في تكامل الشخصية بوجه عام ، والتكيف التربوي والمهني بوجه خاص .

قد يتفوق التلميذ في الألعاب الرياضية، أو في الفنون التطبيقية، أو في التحصيل المدرسي ، أو في الموسيقى ، أو في الفنون الجميلة ، أو في سياسة الجماعات ، أو في الفكاهة والتسلية أو في غيرها . وأي نوع من أنواع القدرات الخاصة العالية يعتبر عونا كبيرا على التكيف السوي ، ويمكن استخدامه محورا لبناء اعتبار الذات وتنظيم ميول الشخصية وتوحيدها . ذلك أن الأعمال التي يجيدها التلميذ يؤديها وهو مغتبط سعيد بصرف النظر عما تجلبه من التقدير الاجتماعي . لاشك في أن السخرية قد تضيد الاستعداد الجيد وأن المدح قد ينمي الاستعداد المتوسط . ولكن السلوك الذي يستند الى موهبة يكون سلوكا مرضيا في حد ذاته .

وليس ضروريا أن يملك التلميذ استعدادا خارقا لكي ينمي على أساسه اهتماما معينا . يكفي أن تكون لديه قدرة متوسطة لكي يكون على أساسها اهتماما خاصا . وقد ينشأ الاهتمام بطرق لا تتصل بالقدرة ، كأن يقلد صديقا يعجب به ، أو يلتقط الفكرة من كتاب أو من أحد أفراد الأسرة . ومهما كان مصدر الاهتمام الأصلي فانه ينمو ويتشعب ويؤدي الى مجموعة من المهارات والكفايات التي تلعب دورا حيويا في توحيد الشخصية وتكاملها . أخذ مثلا ولدا يشرع في الاهتمام بالراديو ، فيشتري أجهزة ويصنعها ويتبادلها ، ويقضى وقته في فكها وتركيبها والتجريب عليها . ويحصل بذلك على معلومات كثيرة ومهارات متصلة بموضوع اهتمامه ، وينتهي الأمر باكتسابه كفاية حقيقية لا يمكن أن تفرق بينها وبين الاهتمام والميل . ومتى اكتشف التلميذ ان ممارسته هذا العمل يجلب

له الرضى النفسى والتقدير الاجتماعى ، أخذ يوجه شخصيته على هذا الأساس ،
وينتقى الجماعات والاصدقاء التى تشاركه اهتمامه التى يعتر برأيها وتقديرها .

مركب النقص :

ان مفهوم مركب النقص الذى اهتدى اليه آدلى مفهوم قيم ، ينبغى الا تتلفه
باستعماله دون تمييز كما يحدث فى بعض الصحف اليومية . كل شخص ناقص
فى نواح كثيرة ، ومعظم الناس لا يعبأون بذلك ، فاعتبارهم لذاتهم يتوقف على
قدر محدود فقط من الكفايات . ولا خير من العجز فى مجالات متعددة اذا كنا
نموض ذلك بالنجاح فى مجال واحد محدد . ذلك أن الصحة النفسية السعيدة
تتحقق بالحصول على بعض النجاح فى أى مجال من مجالات الحياة . والشخصية
المتكاملة التى تستمتع بقدر معقول من التقدير والاعتبار فى أية ناحية لا تصاب
بالشعور بالنقص .

أما اذا كان الشخص لا يترك مناسبة تمر دون أن يقارن نفسه بالآخرين ،
ودون أن ينحسر على عجزه عن القيام بما يتقنونه ، عندئذ فقط يوجد مبرر للقول
بأنه مصاب بمركب نقص . ان ما يقلق راحة هذا الشخص فى الواقع ، هو أنه لا يجد
فى نفسه قدرة كافية من أى نوع لكى يكون منها نواة لاعتبار ذاته ويرضى
نفسه . ويتكون مركب النقص عندما تعمق الصعوبات الذاتية أو الخارجية نمو
نمط من الجدارة والكفاية يكفل مساندة اعتبار الذات . ومن العوائق الخارجية
عدم تقدير المجتمع لنوع القدرات التى يتفوق فيها الشخص . أما العوائق الذاتية
فأهمها افتقار الشخص الى القدرة حقا . وبجانب هذه العوائق العامة توجد
مواقف خاصة قد تسد الطريق أمام نمو الكفاية واعتبار الذات على الرغم من توفر
القدرات الجيدة فى الطفل . ومن أمثلة ذلك أن يتنافس أخوان متقاربان فى السن
على التفوق فى نفس الميدان الذى يقدره الوالدان دون سواه .

وتستطيع المدرسة أن تساعد على منع تكوين مركب النقص عند التلاميذ
أو التخفيف منه ، باتخاذ جميع التدابير المناسبة لتشجيع نمو الاهتمامات والكفايات
والهوايات ، بحيث يتذوق كل تلميذ معنى النجاح فى ناحية من نواحي الأعمال ،
ويحظى بالتقدير الاجتماعى . كما ينبغى التقليل من أهمية المنافسة ، وأن تنظم
المنافسة بحيث يتنافس كل تلميذ مع نفسه ، وألا يكون الحافز لبذل المجهود هو
الرغبة فى هزيمة شخص آخر .

٢ - التفاعل الاجتماعي ودوره في نمو الشخصية

لا ينتهي أثر التفاعل مع الزملاء عند الأحكام التي يصدرونها والتقدير الذي منحونه بل ان عضوية الجماعات تؤثر تأثيرا أعمق في تشكيل الشخصية وفي تنمية الوعي الاجتماعي كما سنبين فيما يلي :

تأثير عضوية الجماعة على الفرد :

بانتقال طفل السادسة من الأسرة الى المدرسة ، ينضم الى مجموعة من الزملاء الذين يتوقعون منه أن يظهر كفاءته ، وأن يبرهن على أنه جدير بالاحترام . ويسمى الطفل مع أقرانه الى ابتكار ألعاب أكثر جاذبية ، ومغامرات أكثر إثارة من تلك التي اعتاد عليها في المنزل . كذلك هو يحاول أن يكتشف مكاتته بين زملائه ، والأدوار التي يتعين عليه أن يقوم بها في الجماعة . وبحلول مرحلة المراهقة (١٢ - ١٨ سنة) تصبح وظائف المجموعة التي ينتمى اليها المراهق أكثر تعقيدا وأعظم أهمية . اذ تقوم مجموعة الرفاق بمهمة التأييد والتعضيد التي كانت تنفرد بها الأسرة حتى الآن . وتحل عضوية الجماعة محل الارتباطات العائلية . وهذا هو سر اعتماد المراهق اعتمادا بالغا على تقدير أئداده واستحسانهم .

وسواء أكان الناشئ طفلا أو مراهقا ، فان حياته تغنى وتزدهر عندما يصبح عضوا في مجموعة الفصل أو الشلة أو فرقة الكشافة أو غيرها . فقوته تزداد : لأن المجموعة تستطيع انجاز أعمال كثيرة ومقاومة ضغوط عديدة يعجز هو وحده عن مواجهتها . وشجاعته تزداد : لأنه يشارك الجماعة في مسؤولياتها ويحظى بتعضيدها . تصبح أهدافه مجسمة وشعوره بقيمته الشخصية مدعما في اطار أهداف المجموعة وقيمتها . يتبادل المودة والمساندة مع أعضاء مجموعته عن طيب خاطر ، وفي أوقات الشدة يتلهف الى مساعدتهم وتقبل العون منهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان عضوية الجماعات تفرض على الناشئ قيودا معينة . لم يعد في امكانه أن ينطلق كما يروق له . فقد تضرر تلقائيته لأن المجموعة تتفق على عمل شيء آخر بطريقة أخرى . فالمجموعة تحدد له عددا من الأدوار الممكنة . وتساعد على اختيار تلك التي تلائمه أكثر من غيرها . كما تزوده بمقياس من المعايير الخلقية ، وتوضح له عن طريق استحسانها أو استنكارها أنواع السلوك التي تعتبرها الجماعة صوابا أو خطأ ، خيرا أو شرا ، مخلصا

أو خائفة . هذه المعايير وتلك الأدوار هي بمثابة نظام اجتماعي أو دستور يجد الناشئ مكانه فيه كعضو من أعضاء الجماعة . فاذا جلبت له العضوية ما يرتضيه من سعادة وازدهار ، اندمج في الجماعة وتقبل قيود دستورها عن طيب خاطر وتعلم أن يأخذ ويعطى ، واستيقظ فيه الوعي الاجتماعي .

ولا تقتصر أهمية الجماعات على أثرها التربوي الذي شرحناه آتقا ، بل إن مشاركة الجماعة جزء جوهري من عملية التكيف ، ووسيلة ضرورية لمواصلة التكيف واستمراره ، ذلك أنها تظل مصدرا دائما للصدقة والتقدير والمساندة . وكما أن الشخص الصحيح المعافي يحتاج الى تناول الطعام يوميا وبانتظام ، فكذلك الشخصية السوية تحتاج الى مواصلة الاشتراك في عضوية الجماعات لكي تظل مستمتعة بمزاياها .

سوء التكيف وعضوية الجماعات : يمكن التمييز بين نوعين من احتمالات سوء التكيف . أولا : عدم الاندماج في الجماعات ، أو اندماج ضعيف يحرم الشخص من مزاياها ومن ازدهار شخصيته . ثانيا : المبالغة في الاندماج في الجماعات بحيث يتلون الشخص بلون كل جماعة يشترك في عضويتها على حساب كيانه الشخصي ونعته الخاص .

عدم الاندماج في الجماعة : تتضافر قوى عديدة لمنع الناشئين من تكوين علاقات اجتماعية سليمة . فقد تعوقهم بعض الصفات المزاجية الأساسية في شخصيتهم : كأن يكون التلميذ خجولا مشدودا يرهب كدمات زملاء . أو كان يحول عنفه الطبيعي المتدفق دون تقبله بسهولة في المجموعة . وقد يكون افراط الوالدين في حمايته بالمنزل عائقا دون اندماجه في الجماعة المدرسية . فالناشئ الذي اعتاد الصياح أو العدوان لينال رغباته قد يتعذر عليه الأخذ والعطاء مع أعضاء المجموعة الذين سوف يبنذونه بدورهم . وربما نشأت الصعوبات من المجموعة ذاتها ، فيلقى التلميذ منها الأعراض لأنه من طبقة اجتماعية مختلفة أو من دين مختلف عن أغلبية الجماعة . وقد ترجع العراقيل الى ظروف خارجية كأن ينتقل التلميذ كثيرا من مدرسة الى أخرى مما يجعله يشعر أنه غريب على الجماعة ويصعب عليه أن يشق طريقه اليها .

كيف يمكن أن يواجه التلميذ هذه الصعوبات ؟ قد يحل المشكلة بإحدى الطرق الآتية :

(أ) أن يسعى الى تكوين جماعة صغيرة خاصة ، متجانسة من حيث اتجاهاتها واهتماماتها . وهذه محاولة سليمة .

(ب) أن يظل منفردا منعزلا ، يكتفى بالأعمال التي يستطيع أن يقوم بها وحده ، مجروما من أنس الزمالة وتعاونها ، يعرض في الأحلام افتقاره الى تقدير الذات وازدهارها ، مترددا في فهم دوره ومكاته في الهيئة الاجتماعية . مثل هذا الناشئ يتعذر عليه الاستقلال من سند الأسرة عند المراهقة ما دام لا يحظى بتعضيد جماعة الانداد . واذا لم يسعفه الحظ خلال هذه الفترة بتنمية مواهب خارقة تعيده الى الاتصال بالزملاء من جديد ، فسوف يتزايد شعوره بالعزلة والتفاهة .

(ج) اما الاتجاه الثالث فيصطبغ بالثورة والتسرد . بدلا من أن يعترف الناشئ بأن ميوله الاجتماعية محبطة، يتخذ من الجماعة موقف الأزدراء، وينكر فكرة العضوية فيها ويصمها بالعباء ، ويضفي على نفسه أهمية الشخص الذي يستطيع تحقيق عظام الأمور اذا سلم من عرقلة الفوغاء . واذا كان من ذوي المواهب الخارقة فعلا ، فقد يستطيع أن يحقق شيئا . والا فصيره في أغلب الأحيان هو الاغراق في العزلة والتبرم المرير ،

الافراط في الاندماج : على الرغم من أن عضوية الجماعة تضي على الشخص منافع عديدة الا أن المغالاة في الاندماج قد تؤدي الى مشاكل في التكيف النفسى . فالشخص الأنيس الودود الذي يلتحق بشتى الجماعات دون تمييز، لا يلبث أن يجد نفسه في مأزق بسبب تناقض مبادئها وتصارع قيمها . عليه أن يلبى مطالب كل جماعة وهو معها . وهذا تكيف ، ولكنه تكيف على حساب تكامل شخصيته وتماسكها . وقد تتفاقم الأزمة عندما تصر كل جماعة على الافراد بولائه لها دون سواها ، فيشعر الشخص بالحيرة والضياع ، وينتابه التذمر والاستياء . ويستطيع أن يستعيد اطمئنانه وصحته النفسية بأن يعيد النظر في علاقاته الاجتماعية ، وأن يفحص بأمانة اتجاهاته ودوافعه وقدراته، وأن يستعرض مطالب الجماعات المتعددة،

وأن يزن القيم التي تستهدفها ، وأن يختار من بينها الجماعة التي تتلاءم أهدافها مع شخصيته الحقيقية . وبذلك يعود الى اكتشاف معالم نفسه التي كانت قد انطمت من جراء المغالاة في الاندماج الاجتماعي ، ويسمى الى استخدام شخصيته لتطوير الجماعة وتقديمها ، مع المحافظة على التوازن الدقيق بين تأثيره على الجماعة وتأثره بها . وهذه عملية دقيقة حاذقة يحتاج فيها الناشئون الى توجيه حصيف من المدرسين والمدرسات المؤهلين في الارشاد النفسى .

٤ - الضمير والمثل العليا واثرها في توجيه السلوك

من المعروف أن الدوافع التي تحفزنا لانجاز معظم أعمالنا هي تطلعا الى الحصول على المكافأة المباشرة أو المنفعة الشخصية أو التوافق مع أعضاء المجموعة التي تنتمي اليها . ولكن من الملاحظ أيضا ، أننا ، في كثير من المواقف ، نطرح هذه الاعتبارات جانبا في صالح مبادئ نعتقد أنها تخدم المصلحة الانسانية العامة . فبعض الأعمال الجليلة التي ينجزها الانسان ، يدفعه اليها ضميره ومثله العليا .

الا أن مفهوم الضمير قد تعرض في السنوات الأخيرة لهجوم شديد من قبل بعض العلماء . إذ اكتشفوا أن الضمير أحد أسباب الاضطرابات النفسية وانحرافات الشخصية . ومما يدعو الى الارتباك والبلبلة أن يكون الضمير أحد أسباب اضطرابات الشخصية ، وأن يكون في نفس الوقت الدافع الى الأعمال الانسانية النبيلة . ولا ضمير من أن نبدأ من هذا التناقض ما دام ينبها الى تحديد المعانى المختلفة التي تربطها بمفهوم الضمير . وأول ما ينبغى توضيحه أن للضمير والمثل العليا تاريخا في حياة الفرد . فالضمير ينمو ويتطور - شأنه في ذلك شأن أية ناحية من النواحي الشخصية . وقد ينحرف الضمير في نموه فيدخل في تكوين الاضطرابات النفسية ، دتجارة الحروب ، والاستبداد والقسوة المقنعة بقناع البر والتقوى . كما يمكن أن ينمو الضمير بطرق تجعل الأشخاص يكرسون مجهوداتهم لتقدم الحياة الانسانية . وتنشأ معظم المتاعب من أن الضمير ينبت في الطفولة ويبدأ تكوينه قبل أن يتمكن الطفل من فهم مغزاه .

مفهوم الذات العليا : يرى فرويد أن الطفل لا يولد بما يسمى الضمير . فالأطفال الصغار مخلوقات لا خلقية ، أى لا يملكون قوى نفسية تصدهم عن ارضاء نزعاتهم القطرية . وتقوم قوى خارجية - هي سلطة الوالدين - بدور الصد والمنع

في بداية حياة الطفل . وسيطر الوالدان على الطفل عن طريق بذل المحبة أو التهديد بالعقاب ، والعقاب عند الطفل هو حرمانه من المحبة والرعاية . هذه هي المرحلة الأولى في نمو الطفل الخلقى . ثم تأتي مرحلة ثانية حيث تبدأ الذات العليا تتكون ، وذلك بأن يتسلل الطفل القيود الخارجية ، ويستبطن قواعد التحريم والحظر التي يوجهها الوالدان إليه . وعلية الاستبطان هذه هي في الواقع عملية تعلم ، يتعلم الطفل أن يقمع السلوك الذي ارتبط بالعقاب ، وأن يقوى السلوك الذي ارتبط بالمكافأة . والذات العليا لا تشتمل على التحريمات والنواهي فحسب ، ولكنها تتضمن أيضا مثلا عينا مثل النظافة والاعتماد على النفس والكمال .. الخ . ثم يتقدم تكوينها فيستوعب الاتجاهات والميول التي يتخذها الطفل بالجملة من والديه خلال سنوات طفولته . وهذه الذات العليا تظل النسخة الطفولية للضير الذي يعتنقه الفرد فيما بعد كلما تقدم نضجه .

الا أن الذات العليا لا تكون دائما نسخة طبق الأصل لاتجاهات الوالدين . ففي بعض الظروف يختلط الأمر على الطفل بسبب طغيان وجداناته والحاحها فيستبطن صورة منوهة لدستور الوالدين ، كما أنه يسىء فهم المعايير الخلقية . وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، كما يجدر بالمربين أن يتصروا معنا في الاسئلة الآتية : كيف يفهم الطفل القواعد الخلقية والمثل العليا ؟ كيف تدرك عقلية لم تتضج بعد مفهوم الأخلاق وتحيط به ؟ .

دراسات «بياجية» للحكم الخلقى عند الطفل : للاجابة على هذه الاسئلة تلجأ الى الأبحاث العلمية التي أجراها «بياجية» عن تطور الحكم الخلقى عند الأطفل من خمسة سنوات الى سن المراهقة . وجد بياجيه أن للقاعدة الخلقية وجودا مطلقا في نظر الطفل الصغير ، فقواعد الألعاب مثلا شيء موجود فعلا وكان موجودا منذ الأول ، ولا سبيل لتغييره حتى ولو اتفق جميع الأفراد على ذلك . كذلك الحال بالنسبة للمعصية أو الذنب . فالمعصية في نظر الأطفال الصغار ثابتة مطلقة لا تتغير ، وتتفاوت شدتها بنسبة الضرر الذي أحدثته فعلا ، بغض النظر عما اذا كان الشخص قد أذنب عن قصد أو عن غير قصد . فالقصد لا يلعب دورا في حكم الطفل الخلقى . ويلقب بياجيه هذه المرحلة من النمو الخلقى بالواقعية الخلقية Moral-realism .

ثم وجد بياجيه أن الحكم الخلقى يتطور بتقدم الأطفال في السن ، الى وجهة النظر التي أسماها النسبية الخلقية Moral relativism حيث يدركون أن القواعد

مسألة اتفاق متبادل للمنفعة المتبادلة ، وأنه يمكن تعديلها بالاتفاق الجماعى . كما أنهم يفهمون أن القصد الذى يكمن وراء المعصية يجب أخذه بعين الاعتبار عند الحكم على خطورة الذنب المقترف .

على ضوء هذه المعلومات يتضح لنا أن الذات العليا التى تكونت خلال الطفولة الأولى سوف تتضمن النظرة الخلقية الواقعية . أى سوف تكون لا منطقية ومطلقة فى أحكامها ، وغالبا ما تظل الضمير اللاشعورى المترسب من الطفولة . وكأى وظيفة طفلية أخرى ، ينبغى أن تتطور الذات العليا وأن تسير النضج الذى يطرأ على باقى نواحي الشخصية . الا أنه فى كثير من الحالات لا يتحقق هذا التطور ، وتكون النتيجة أن يستمر مفعول الذات العليا بأحكامها المطلقة غير المعقولة .

نمو البصيرة الخلقية : مما يساعد الطفل على التخلص عن الواقعية الخلقية ، نمو قدرته على رؤية الأمور من وجهة نظر شخص آخر . أى قدرته على أن يدرك أن الأحداث تؤثر تأثيرا مختلفا على الأشخاص المختلفين . ان ما يسعده هو وصديقه مثلا قد يسيء طفلا ثالثا . وهذا يتوقف من جهة على النضوج العقلى ، ومن جهة أخرى على معاناة الطفل لنفس الخبرات التى نطلب اليه أن يقدرها بالنسبة للآخرين . ومن أهم المواقف التى تساعد على تقدير القواعد الخلقية ، تلك المواقف التى ينتهك فيها الآخرون القواعد فيصاب الطفل بضرر أو اجحاف . أن بخطيء الغير فى حقنا من الخبرات الحاسمة التى تبصرنا بطبيعة الخطأ .

يتبعى إذن أن يميز المربون بين الذات العليا والضمير الناضج . فالذات العليا ضمير طفلى مطلق لا منطقي ، يستمده الطفل مباشرة من قواعد والديه واتجاهاتهم ، دون تأمل أو تبصر ومع بعض التموية . أما الضمير الناضج فيبدأ تكوينه عندما تنشط المشاركة الوجدانية والانتبصار بحيث يدرك الطفل أن القيود والمثل العليا تطوى على غاية أبعد وأسمى من مجرد ارضاء الوالدين . ويستمر الضمير فى التطور والنضوج عندما ما يتعلم الناشئ أن يميز آفكار أعماله على الأشخاص الذين يتأثرون بها ، ويحكم عليها تبعاً لذلك ، ويتحرز من مجرد الطاعة العمياء للقاعدة . ويصف العلماء هذه العملية بأنها تكامل الذات العليا والذات المدركة المفكرة ، وكلما تحقق هذا التكامل ضعف مفعول الذات العليا وتحكمها فى الشخصية .

تثبيت الذات العليا : أما إذا لم يتم هذا التكامل ، فإن الضمير الطفلى - أى الذات العليا يتثبت ، ويظل متسلطاً على الشخصية ، ويسبب لها الاضطراب . والسبب فى تثبيت الضمير الطفلى يرجع الى تزايد قلق الطفل من فقدان حب والديه . فلا يجرؤ على مناقشة معايير الوالدين ، ويتولاه الفزع من الاقدام على أى سلوك يحتمل أن يفقد المحبة والرعاية . ولا شك فى أن هذا الرعب يعوق ازدهار المشاركة الوجدانية التى تجعله يحس باحساس الآخرين ويتفعل - لانفعالاتهم . كما يعوق ازدهار الاستبصار الذى يدفعه الى استخدام خبراته الشخصية وتفكيره لكى يفهم وجهة نظر الآخرين . وهكذا يتثبت الطفل المقلق بالمعايير الطفلية الغاشمة لأن التخلّى عنها يعنى المجازفة بمحبة الوالدين ومساندتها .

ومما يشجع الايغال فى تثبيت الضمير الطفلى تردد المجتمع بوجه عام ، والمجتمع المدرسى بوجه خاص ، فى السماح للتلاميذ والتلميذات بأن يفكروا تفكيراً منطقياً مستقلاً ولا سيما فى المسائل الخلقية . فتصور الفوضى الخلقية المزعومة التى قد تنجم من الحرية فى التفكير يجعل المربين يترددون فى تشجيع النضج الخلقى . قد يكون حفظ التلاميذ على نمط واحد أسهل ولكنه لا يساعد على تكوين شخصيات ناضجة سوية .

تطبيق مبادئ الصحة النفسية فى المدرسة

أوضحنا فى مستهل هذا البحث مبادئ الصحة النفسية بوجه عام ، ثم تناولنا بشئ من التفصيل أهم العوامل التى تؤثر على الصحة النفسية لشخصية انطلق ، ونختتم البحث باستعراض كيفية الاستفادة من هذه المعلومات فى المدرسة .

تستخدم مبادئ الصحة النفسية أصلاً فى ميدان العلاج النفسى . الا أن فى السنوات الأخيرة أدرك المهتمون بالعلاقات الانسانية أنه يمكن أيضاً الانتفاع بمبادئ الصحة النفسية للوقاية والارشاد فى ميادين التربية والزواج والصناعة والاجرام وغيرها ، والذى يعنىنا هنا هو كيفية تطبيق مبادئ الصحة النفسية فى ميدان التربية عامة والتربية المدرسية خاصة .

كانت الفكرة السائدة أن مهمة المدرسة الوحيدة هى تدريب عقل الطفل ، أى تنمية تفكيره ، وتعليمه القراءة والكتابة والحساب ، وتلقينه المعارف . أما المفهوم الحديث لأهداف التربية ، فقد انبثق من مبادئ الصحة النفسية، ويتلخص

في أن مهمة المدرسة هي تنمية شخصية التلميذ من جميع نواحيها ، لا تقتصر على تدريب تفكيره ولكنها تعينه أيضا على ارضاء حاجاته الوجدانية بأساليب أكثر نضجا ، وتعدده بوصفه كائن اجتماعي على الاضطلاع بدوره الكامل كمواطن . فهدف التربية من الناحية الايجابية هو تكوين شخصية سوية ، ومن الناحية السلبية هو وقاية الناشئين من اضطرابات الشخصية .

هذا عن الأهداف العامة للتربية . واتفق الآن بعض نواحي التربية المدرسية وأبين الأساليب العملية التي يمكن تطبيقها تحقيقا لهذه الأهداف .

التوجيه الاجتماعي في الفصل :

ينقسم الفصل عادة الى مناطق نفوذ ، ففي النواحي العلمية يدير المدرس أو المدرسة دفة الأمور ، أما في المسائل الاجتماعية فالتلاميذ هم غالبا الذين يحددون الاتجاهات . هذا التقسيم مؤسف ، لأنه يحرم الأطفال والمراهقين من حقهم في حكمة البالغين وخبرتهم وارشادهم في الناحية الاجتماعية .

إن التدريب الاجتماعي الذي يتبادله التلاميذ ، يميل الى تأكيد انحرافات شخصياتهم أكثر مما يعمل على تقويمها ، فالطفل المنزوي تتجاهله المجموعة فيغرق في انزوائه . والطفل العدواني يواجه مقاومة تدعم ميله الى الاعتداء . ويندر أن يستحث الزملاء كلا من القائد والتابع على تبادل ادوارهما ، وبذلك يدعم التدريب سيطرة القائد وخضوع التابع . وقليل ما يكشف الطفل المنبوذ السبب في نبذه بحيث يكيف سلوكه للمجموعة . هذه هي المواقف التي يجد فيها المدرسون مجالا لتطبيق بعض مبادئ الصحة النفسية . فهل ينتهز المدرسون في مدارسنا الفرص لممارسة التوجيه السليم ؟

لعل السبب في انصراف المدرسين والمدرسات عن هذا المجال من التوجيه ، هو افتقارهم الى الوسائل العملية الملائمة للتعرف على العلاقات الاجتماعية في فصولهم ، ولاكتشاف التلاميذ المنعزلين أو المنبوذين . فقد أسفرت الابحاث العلمية في هذا الموضوع ، أن الآراء الذاتية للمدرسين لا تتفق الا بدرجة ضعيفة مع تقديرات التلاميذ أنفسهم لعلاقاتهم الاجتماعية . وأقدم فيما يلي بعض الاقتراحات العملية ، يستطيع بها المدرسون والمدرسات أن يدرسوا التركيب الاجتماعي

للفصل الواحد ، وان يفهوا نظرة التلاميذ بعضهم الى البعض كما يراها التلاميذ أنفسهم .

الوسيلة الأولى مستقاة من مورينو Moreno . الغرض منها تعيين الصداقات الوثيقة الموجودة في المجموعة ، وتخطيط النتائج تخطيطاً بيانياً يوضح العلاقات بين أعضاء المجموعة . ويمكن الحصول على البيانات بطرق مختلفة فمثلاً يمكن أن نطلب من الأطفال أن يكتبوا قائمة لأحب أصدقائهم في الفصل . ويستحسن تحديد العدد المقدم من كل طفل الى ثلاثة أو أربعة أسماء على الأكثر . ويمكن اتباع طريقة أخرى ، وهي أن نطلب من التلاميذ أن يكتبوا اسم الزميل الذي يفضلون الاستذكار معه ، أو الذهاب معه الى السينما ، أو دعوته لتناول الطعام معه في المنزل .

ان تخطيط النتائج سوف يبرز أخطاء متعددة من التنظيم الاجتماعي فقد يظهر أن طفلاً معيناً محبوباً هو النواة التي يتجمع حولها الفصل ، وقد تظهر في الفصل تجمعات داخلية متعددة يختلف عدد الأفراد في كل منها ، وقد يوجد اتصال بين هذه المجموعات المتعددة ، وقد لا يظهر أي تنظيم محدد . وفي أغلب الفصول سوف يلاحظ المدرس ان بعض التلاميذ ذكروا أسماء الآخرين كأصدقاء ولكن لم يخرهم أحد كأصدقاء . هؤلاء التلاميذ المنعزلون هم الذين يحتاجون الى دراسة واهتمام من جانب المدرس . ففي بعض الحالات يؤدي الاستماع والملاحظة بالاضافة الى بعض الأسئلة الرصينة الى الكشف عن سبب العزلة ويكون الطفل المنبوذ أحياناً من مستوى نضوج مختلف عن بقية الفصل ، أو تكون ملابسه مختلفة ، أو يكون من طبقة اجتماعية مختلفة . وأحياناً أخرى قد يستغل قوته لايداء الضعفاء ، أو يستجدي الانتباه ، أو يببالغ في الاعجاب بنفسه ، أو يفتقر الى الكياسة واللباقة .. الخ . الخ . كل هذه وكثير غيرها قد تكون مصدراً من مصادر عرقلة الاندماج الاجتماعي ، ويمكن تلخيصها في عبارة ، أن التلميذ مختلف بشكل ملحوظ .

من وجهة نظر المدرس أو المدرسة قد يكون اختلاف التلميذ المنعزل في صالح التلميذ . الا أن هذا يدل دلالة واضحة على عجز البالغين عن فهم الصفات التي يعجب بها الناشئون في كل مرحلة من مراحل نموهم . ويستطيع المدرسون والمدربات أن يحصلوا على معلومات عن التقاليد السائدة في فصولهم عن طريق

اختبار « التخمين » . فيطلب من التلاميذ أن يخمنوا من زملائهم تنطبق عليه بعض الأوصاف ، مثل : من يحب القتال ويتعارك كثيرا ؟ من يرتدى دائما ملابس نظيفة منسقة ؟ وغيرها . ثم يعطى لهم الاختبار الذى سبق ذكره آنفا عن أحب زملاء اليهم . وبالمقارنة بين الاجابات فى الاختبارين ، يستطيع المدرس أن يتعرف على السمات التى تجعل التلميذ محبوبا من جماعته .

بعد التعرف على أسباب عزلة التلميذ ينبغى على المدرس أو المدرسة أن يفحص امكانية تعديلها أو تخفيفها . اذا وجد ان الاختلافات بين التلميذ وزملائه اختلافات حقيقية يتعذر ازالتها ، فيمكن تضيق الفجوات بينهم أو تدريبهم على التسامح . أما اذا كان الاختلاف مصطنعا أكثر منه حقيقيا ، فيمكن التخفيف منه باتاحة فرص أكثر للتعارف بين التلاميذ . فى بعض الحالات يمكن تعويض النقص فى طفل خجول مثلا بتعليمه مهارة معينة لا يجيدها الآخرون ، فيدعوهم ذلك الى التعرف عليه والاعجاب به بدلا من تجاهله . اذا كان الاختلاف فى مستوى النضوج ، فقد يحتاج الأمر الى نقل التلميذ الى مجموعة من الزملاء المقاربين له فى النمو . كذلك يمكن ابتكار وسائل عديدة لتهيئة الفرص أمام التلميذ المنعزل لكي يحصل على اتباه زملائه كأن يعاد نظام الجلوس فى الفصل ، ونظام توزيع الخدمات الخاصة بالصف ، وتنظيم لجانه المختلفة الخ . وعلى المدرس والمدرسة بوجه عام أن يستعمل الحكمة والكياسة لأن الصداقة لا يمكن غرسها بالقوة ولا بالأمر . أما اذا اشتد عدم تكيف التلميذ الاجتماعى فيستحسن إحالته الى العيادة النفسية التى تسدى خدماتها للمدرسة .

التوجيه العلمى فى الفصل :

التوجيه التربوى مجال واسع مترامى لا يمكن استيفاءه فى بضعة صفحات . ونقتصر على توضيح المعالم الرئيسية فى النقاط التالية :

١ - عملية توجيه الناشئين عملية قديمة تمتد جذورها الى الأسرة والقبيلة والمدرسة . وكل تنشئة للأطفال وكل تربية سواء آكانت حكيمة أو حمقاء تمثل محاولات البالغين لمساعدة الأطفال فى نموهم يصبغوا بالغين أضحاء ، متكيفين مع النظام الاجتماعى ، قادرين على أن يحتلوا مكانة شخصية ترضيهم . . .

٢ - ان أسمى وظيفة لكل من المنزل والمدرسة أن يزودا الطفل بتوجيه مستير في جميع مراحل نموه ومن مختلف نواحي النمو .

٣ - الوظيفة الأولى للمدرس والمدرسة هي الارشاد الحكيم لتلاميذه ، والصدقة المنبهة ، أكثر مما هي تلقين المعرفة والتدريب . وتتلخص وظيفة المدرس في تهيئة جو الفصل ومواقف التعلم بحيث تضمن النمو الصحيح للطفل ، وتوقظ مباداته وتلقائيته ، وتعزى قدرته على الابتكار ، وتنسى استعداداته الكامنة ، وتمنع نمو اضطرابات الشخصية ، وتتغلب على العوائق الدراسية والاجتماعية .

٤ - لا يستطيع المدرس أو المدرسة أن يؤدي وظيفته بكفاية دون أن يفهم شخصية كل تلميذ ككائن حي متكامل . المدرس الموجه يتعامل مع كائن حي مركب فكيف يستطيع توجيهه دون أن يعرف قدرته العقلية العامة ، وقدراته الخاصة ، وتفاصيل الخاصة وميوله واتجاهاته ، ومميزاته الجسمية والمزاجية ، وصراعاته الوجدانية ، والأساليب التي يتبعها لمواجهة مشاكله ؟ ان التوجيه الذي لا يبنى على تشخيص شامل أسوأ من عدم التوجيه ، بل أنه ضرب من الدجل . فكيف اذن يحصل المدرس على مثل هذا التشخيص العلمي الشامل للطفل ؟ يمكن معاونة المدرس بعدة وسائل متكاملة أذكر منها أولا : اعداد المدرس نفسه اعدادا فنيا لعملية التوجيه ، وسوف أتعرض لهذه النقطة في الفقرة التالية . ثانيا : تعيين اخصائي نفسى أكلينيكى مدرب على شتى أنواع القياس النفسى في كل مدرسة ، بحيث يأخذ على عاتقه قياس النواحي التي يمكن قياسها من شخصية تلاميذ المدرسة ، وتخصيص سجلات فردية لكل تلميذ ، يستطيع المدرس الرجوع اليها لاستكمال معرفته بتلاميذه . ثالثا : يمكن انشاء عيادة نفسية لعدد من المدارس المتجاورة بحيث تستفيد كل مدرسة من خدمات العيادة سواء منها التشخيصية أو العلاجية .

٥ - ان ارشاد الأطفال والشباب عملية أصعب من مجرد التدريس . ولا يمكن أن توقع من المعلمين والمعلمات أن يعملوا على مستوى عال في مجال التوجيه التربوى ، الا اذا أعدوا لذلك اعدادا فنيا أساسيا - سواء في ذلك من يوجهون الناشئين من ٦ - ١٣ سنة ، أو من ١٣ - ١٨ سنة . ونلاحظ هنا بأسف عميق ان مدرسى الأطفال من ٦ - ١١ سنة أقل المدرسين اعدادا لمهتهم الشاقة الأساسية .

وينبغي أن يتضمن هذا الاعداد الفنى أولا : دراسة نظرية لعلم النفس العام ،
وعلم النفس التربوى وعلم النمو النفسى ، وقياس الفروق الفردية المتعددة ،
وهذه تدرس حاليا فى كليات اعداد المعلمين للمرحلتين الاعدادية والثانوية ويجب
أن تدرس أيضا فى معاهد اعداد المدرسين للمرحلة الابتدائية التى لا تقل أهمية
عن المراحل الأخرى بل تعتبر المرحلة الأساسية . ثانيا : تدريبا عمليا على القياس
النفسى ، والقدريس العلاجى التشخيصى ، والتربية الخاصة لذوى العاهات ،
ومشاكل التوجيه التربوى والمهنى ، وتحليل الأعمال والمهن والحرف المختلفة ،
وتقدير حاجة المجتمع إليها ، ووسائل التوظيف والمتابعة . ثالثا : تدريب المدرسين
على تشخيص الحالات العادية ، وتبصيرهم بالحالات المعقدة التى يجب أن تحال
الى الاختصاصيين النفسانيين فى العيادات النفسية المختصة .

ان التوجيه التربوى الصحيح يحتاج الى بصيرة والى مهارات فنية خاصة
لا يمكن أن يكتسبها المدرس الا عن طريق التأهيل والاعداد النظرى والعملى
والأ أصبح التوجيه عملية تهريج .

٦ - اذا كان التوجيه التربوى هاما بالنسبة لنمو الأطفال العاديين وتكيفهم،
فانه لا يقل أهمية بالنسبة للأطفال ذوى العوائق المتنوعة ، وبالنسبة للأطفال
الموهوبين .

توجيه الأطفال ذوى العوائق :

ان مشاكل توجيه التلاميذ الذين يعرقل نموهم الطبيعى عائق ما ، سوف
يختلف باختلاف طبيعة العائق الذى يقيد تكيفهم . من هذه العوائق : الضعف
العقلى ، والعمى ، والصمم والشلل وغيرها . ولكن الأهداف الرئيسية لتربية
معظم المعوقين قد تكون متاشبهة وهى تربيتهم بحيث :

(أ) يصبحون قادرين على اعالة أنفسهم بالقيام بعمل مناسب .

(ب) يكونون مندمجين مع مجتمهم ومتعاونين ونافعين .

(ج) يصبحون متحررين من العادات المقلقة وانحرافات الشخصية التى تكون
قد تولدت اما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من نقائصهم ، والتى قد
تكون حاجزا دون تكيفهم الاقتصادى والاجتماعى .

(د) يكونون شخصيات راضية سوية متكاملة .

(هـ) يقدرون التزاماتهم تجاه المجتمع الذى وفر لهم تربية خاصة .

ماهى الاجراءات التى ينبغى اتباعها لتحقيق هذه الأهداف العريضة ؟ سوف نؤكد هنا ثلاث توصيات :

الأولى هى كما سبق أن ذكرنا التشخيص العلمى الشامل لكل نوع من أنواع العوائق بحيث يستطيع المدرس فهم احتياجات الطفل المعوق ودوافعه ، وقدرته العقلية العامة ، واستعداداته المهنية ، وطبيعة فقائصه ، والوسائل التى يستخدمها لحل المشاكل التى يخلقها له نقصه .

التوصية الثانية هى أن تزود ذوى العوائق فى مرحلة مبكرة بالتوجيه التربوى الحاذق والتعليم المستمر . فنضع لهم برامج خاصة غنية بالقنون الصناعية، والتدريب المهنى ، والتعليم الثقافى الملائم لاحتياجات كل مجموعة ، والاهتمام بتكيفهم الاجتماعى وامدادهم بالفرص الترفيهية .

اما التوصية الثالثة فهى أن تنظم للمعوقين خطة لتوظيفهم ومتابعتهم فى عملهم ، لكى نلاحظ من الواقع مقدار نجاح توجيهنا لهم .

توجيه الموهوبين :

ليس التعرف على التلاميذ الموهوبين فى سهولة التعرف على التلاميذ المتأخرين . فالمتفوقون يتقدمون بطريقة منتظمة مرضية ولا يعرقلون سير الروتين المدرسى . ويرتب على ذلك أننا لا نهتم بهم بينما يجذب انتباهنا التلاميذ المختلفون . الا أن اختبارات الذكاء قد بينت أن هناك من الأفراد من هم فوق المتوسط بقدر ما هنالك من أفراد هم دون المتوسط وتتضمن مجموعة من هم فوق المتوسط درجات متفاوتة متصلة من الذكاء . ولا تطلق عبارة « متفوق » الا على العشرين أو العشرة فى المائة العليا من التوزيع . وهم الذين يحصلون على نسبة ذكاء أعلى من ١٣٠

وينبغى تحديد درجة التفوق باختبارات الذكاء المقننة . الا أن هناك أدلة أخرى يستطيع المدرس والمدرسة استخدامها محكما للتفوق فى تلاميذه . منها أن الموهوبين يشغفون باكتساب المعرفة عن طريق الأسئلة والقراءة وأنواع كثيرة من الاستقصاء والمشاريع . كان الرأى السائد ان المتفوقين أضعف جسما وأقل

اقبالا على النشاط الاجتماعى ، الا أن الدراسات العلمية المستفيضة ، كما سبق أن ذكرت ، برهنت على خطأ هذا الرأى ، وبينت ان الموهوبين ييزون إقرانهم لا فى الصحة والنشاط فحسب ، بل فى جميع سمات الشخصية الأخرى ، وفى المميزات التى تؤدى الى النجاح فى العمل المدرسى وفى تكوين المواطن الصالح . كذلك بينت هذه الأبحاث أنه لا توجد فروق تذكر بين الجنسين فى هذه الناحية .

لم يستيقظ الوعى بعد فى بلادنا الى ضرورة بذل توجيه خاص مبكر للتلاميذ الموهوبين . حقا ان الدولة أخذت تشجعهم بالهبات المالية ، ولكن التشجيع المالى شىء ، والتوجيه التربوى المبكر شىء آخر . ان البنات والبنين الموهوبين هم أمل المستقبل — هم ثروة قومية يتوقف عليها رقى الأمة وتقدمها . لذا يجب التكبير فى العناية بهم ، وتوجيههم توجيها تربويا خاصا ، بحيث تتاح لهم الفرص للانتاج بما يتلاءم مع طاقاتهم الغنية . والقصور فى ذلك يعنى خسارة اجتماعية واقتصادية فادحة . وتوجد عدة طرق لمواجهة مسألة التلاميذ الموهوبين أذكر منها ما يلى :

(أ) افساح السبيل أمام الطفل الموهوب لكى ينتقل بسرعة من صف دراسى الى آخر دون التقييد بالسن . ومن مزايا هذا الاجراء أن يدرس التلميذ مع مجموعة من نفس مستواه العقلى ، فيتوفر له التنبيه العقلى الملائم . ومن نقائصه أن ينتقل التلميذ الصغير الموهوب الى مجموعة تكبره سنا وتختلف عنه فى النمو الجسمى والميول الاجتماعية ، كما يحدث لو كان هو غلاما فى العاشرة وفصله فى بداية مرحلة المراهقة ؟ وقد يؤدى هذا الموقف الى انسحابه من الحياة الاجتماعية وعرقلة تكيفه الوجدانى .

(ب) الخطة الثانية التى ابتكرت بعد استخدام اختبارات الذكاء هى انشاء فصول خاصة للتلاميذ الموهوبين تكون متجانسة من حيث المستوى العقلى والنضوج العام . وتمتاز هذه الخطة بإمكان تقديم مناهج غنية واستخدام طرق خاصة تتلاءم مع ميول المجموعة واستعداداتها . كما أن المنافسة بينهم تكون مناسبة . ومن أوجه النقد الموجهة الى هذا الاجراء ان باقى المدرسين والتلاميذ فى المدرسة يفتقدون الحماس والتشيط الذى يضيفه الموهوبون على الفصل .

(ج) الطريقة الثالثة هي استبقاء الموهوبين في الفصول المناسبة لعمرهم الزمنى مع تخطيط برامج خاصة متنوعة لهم بالإضافة الى البرامج العادية . وتتضمن هذه البرامج الاضافية رحلات تربوية ونوادي علمية وحلقات مناقشة الخ ، تنفذ في أوقات العمل المدرسى ، أو تحدد لها مواعيد أخرى تلائم ظروف التلاميذ الموهوبين والمدرسة .

ولقد وجد الذين مارسوا هذه الخطة انها خطة مرضية وعملية . ويمكن تنظيمها على أساس فردى أو بتكوين مجموعات من الموهوبين من الفصول المختلفة . ولما كان معظم التلاميذ الموهوبين يحتاجون الى وقت أقل لاستذكار دروس فرقتهم ، يمكن أن يستخدموا الوقت المتوفر لتنفيذ مشروعات شخصية مثل دراسة مرحلة من مراحل الحضارة الانسانية ، أو سير العظماء من مختلف ميادين الابتكار ، أو لغة أجنبية حديثة ، أو تنمية موهبة خاصة علمية كانت أو فنية .

وأخيرا اذا تذكرنا أن أطفالنا الموهوبين هم أنفس مواردنا القومية ، وأنهم قادة المستقبل في العلوم والفنون والآداب والاختراع ، لما ضننا عليهم بالتوجيه التربوى الذى يوفر لهم الصحة النفسية السوية . فبجانب تزويدهم بجميع مواردنا العقلية ، وتشجيعهم على اكتساب جميع أنواع المهارات الفنية والعقلية على حد سواء، ينبغى أن نغرس فيهم ان الابتكار والانتاج الحقيقى أهم من الشهرة، وأن نتجنب استغلالهم أو تشجيع الزهو والمباهاة فيهم ، وأن نتفادى تعريضهم للمواقف التنافسية ولا سيما تلك التى تخلق هوة بينهم وبين زملائهم من نفس السن ، وأن نشجع جهوداتهم التلقائية للخدمة الاجتماعية وأن نحترمهم وثق بأن الطفل الموهوب المتمتع بالصحة النفسية السوية سوف يكون البالغ الموهوب الذى يعتمد المستقبل على حكمته .

شخصية المدرس :

المعلم والمعلمة هما العمود الفقرى للمدرسة . واذا كان الهدف الأساسى من التربية المدرسية هو تكوين شخصيات سوية ، فلا مناص من أن تتطلب ان تكون شخصيات المدرسين والمدرسات شخصيات صحيحة . فالمدرس الذى تكون صحته النفسية مضطربة يضر تلاميذه ضررا بالغا . ذلك انه فى أثناء تعامله مع التلاميذ ينقل اليهم دون وعى منه قلقه النفسى وتوتره . ومن مظاهر عدم

التكيف الانفعالي في المدرس : تقلب مزاجه ، وعدم تحكمه في غضبه ، والتحيز لبعض التلاميذ ، وعدم التسامح ، والسخرية ، والتعبير عن وجهة نظر معوجه في الحياة بملاحظته العامة وعباراته .

ومن الانصاف أن تتساءل عن الأسباب التي تؤدي الى الاضطراب الوجداني في المدرسين والمدرسات . ويجدر بنا أن يكون بحثنا عن هذه الأسباب مبنيا على استقصاء موضوعي لأحوالهم في بلادنا . ما الذي يحبطهم ويقلقهم ؟ أهى مرتباتهم الزهيدة غير المناسبة ؟ أم هو عدم توفيقهم في الزواج ؟ أهو تدخل الادارة في حياتهم الخاصة والضغط عليهم ؟ أم شعورهم بأن مكاتبتهم في الهيئة الاجتماعية لا تتناسب مع أهمية مهنتهم ؟ أن الشخص المحبط المخيب الآمال غالبا ما ينضح مرارة ويشع نقمة على المحيطين به سواء أكان والدا أو مدرسا أو رئيسا . ويتفاقم الأمر اذا كان المحيطون به أصغر سنا وأقل خبرة وأضعف قوة . والضحية في أغلب الأحوال تكون الأطفال .

الا أنه بجانب الصحة النفسية السوية ينبغي أن يتوفر في المعلمين والمعلمات بعض الخواص اذا أرادوا أن ينجحوا في توجيه الناشئين . ومن هذه الخواص أن يكون المدرس محبا للأطفال والشباب وأن يهتم بشئونهم الخاصة كما يهتم بدرجاتهم ، وأن يتفهم مشاكلهم ، ويحترم الفروق الفردية بينهم ، وأن يساندهم في أزماتهم ويشاركهم أفراحهم في سر . فالمدرس الصديق أكبر عون لحسن تكيف الناشئين في الحياة المدرسية . وأعود فأتساءل : هل من الانصاف أن نطلب من المدرس أن يكون صديقا مستتيرا لفصل مزدحم بخمسين شخصية متطلعة الى توجيهه ؟ .

المنهج المدرسي :

يمكن أن يكون المنهج مجالا حيويا من مجالات الصحة النفسية لو كانت موادها تجسيما لقيم الصحة النفسية ومبادئها . فاذا كانت الصحة النفسية السوية هي التكيف السليم للحياة عن طريق ارضاء احتياجات الفرد في اطار النظام الاجتماعي الذي يعيش فيه ، ينبغي على المنهج الذي يساعد الناشئين على هذا التكيف أن يتضمن :

(أ) الاعداد للزواج وحياة الأسرة .

(ب) التدريب على حقوق المواطن ومسئوليته في مجتمع ديمقراطي اشتراكي .

- (ج) اعداد المستهلك على استعمال دخله للحصول على لوازمه بأحسن الوسائل بحيث لا يتعرض للاستغلال أو التضليل أو التبذير .
- (د) تنمية عادات مجدية في التعلم ، والتدرب على التعاون مع الآخرين .
- (هـ) الحصول على خبرات في استخدام أوقات الفراغ بطريقة خلاقة ابتكارية.

تنظيم برامج التوجيه وتنميتها في المدرسة :

في ضوء المبادئ التي أجعلناها في الصفحات السابقة يمكن مناقشة هـ إذا الموضوع في الحلقة . وأقتصر هنا على اقتراح نقط تتفتح في المناقشة .

لا يمكن تنظيم برنامج للتوجيه في مدرسة ما الا بعرفة هيئة التدريس واشتراكها وتعاونها . ينبغي ألا يكون البرنامج شيئاً مفروضاً على المدرسة بمرسوم ادارى بل يجب أن ينبع من احتياجات المدرسة ومواردها، كما أنه سوف يختلف في المدرسة الابتدائية عنه في المدرسة الثانوية . وأهم ضمان لنجاح البرنامج هو أن يفهم المدرسون المبادئ الأساسية للتوجيه وأن يتقبلوا فلسفته وأن ينتفعوا بجميع الوسائل والخدمات التي ابتكرت في هذا الميدان .

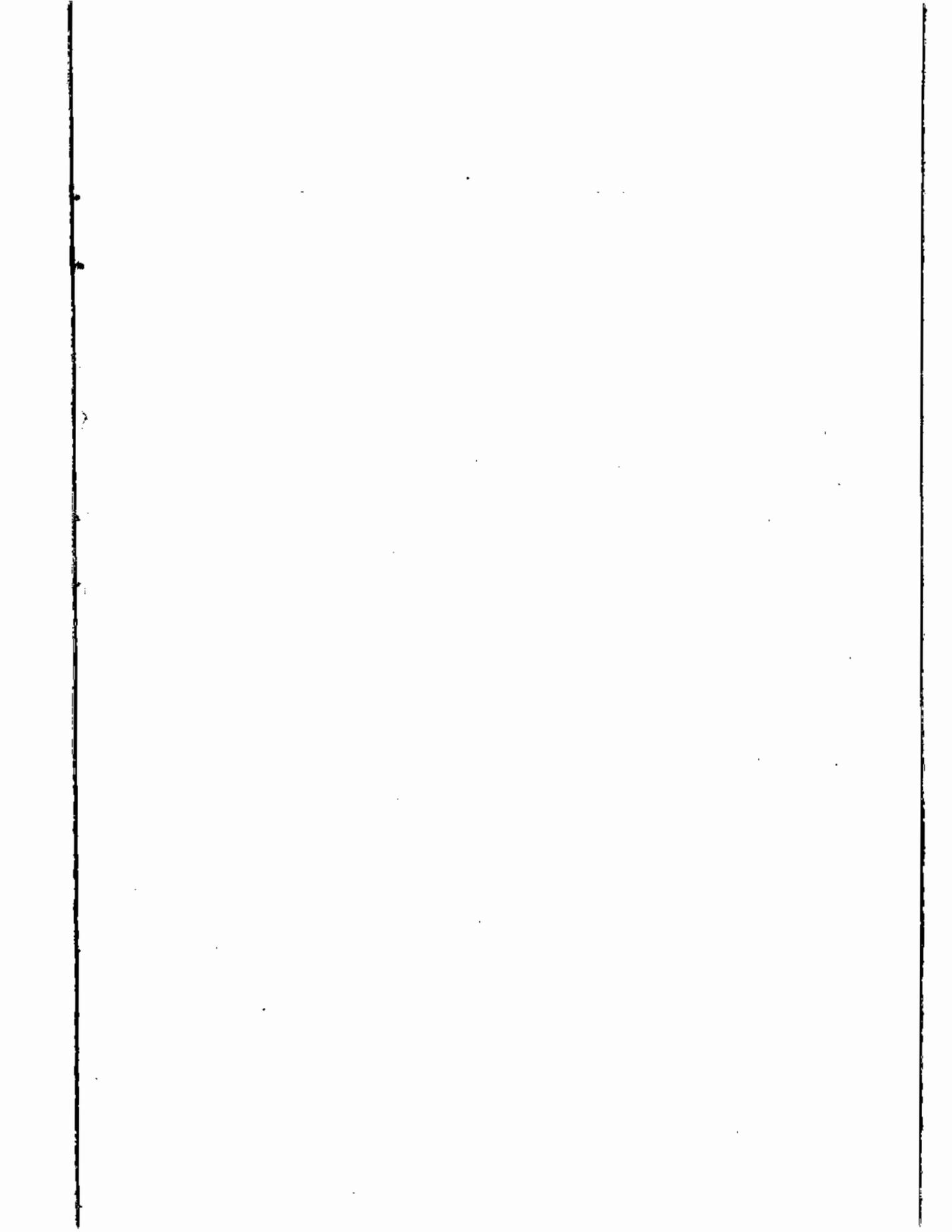
ويمكن أن يتضمن تنظيم برنامج التوجيه الأمور الآتية :

- ١ - اكتشاف الحاجات الحقيقية للتلاميذ ومشاكلهم . ونوع الوسائل المستخدمة لتحقيق ذلك .
- ٢ - استخدام المعلومات المتجمعة عن التلاميذ لملاءمة التعليم للحاجات الفردية .
- ٣ - الوسائل التي تسمى تفهم المدرسين لسلوك تلاميذهم وتمق هذا التفهم .
- ٤ - انشاء بعض الخدمات التوجيهية الخاصة مثل :
 - (أ) تنظيم سجل خاص بكل تلميذ تتجمع فيه جميع المعلومات عن شخصيته .
 - (ب) تنظيم الارشاد النفسى الفردى لمن يحتاج اليه من التلاميذ .
 - (ج) تنظيم التوجيه المهنى والتوظيف والمتابعة .
 - (د) تنظيم العمل الجماعى والافادة من الخبرة الجماعية .
 - (هـ) تنظيم الخدمات الصحية العضوية .

الراجع

REFERENCES

1. Cowell, C. C. A Suggested Index of Social Adjustment in High School. Educational Research Bulletin, XVII, Jan. 1938, pp. 10 — 19.
2. Dollard, J., Doob, L. W., Miller, N. E., Mowrer, O. H., and Sears, R. R., Frustration and Aggression. New Haren, Yale University Press, 1939.
3. Freud, S. New Introductory Lectures in Psychoanalysis. New York. W. W. Norton Co. 1933.
4. Hollingworth, L. S. Children Above 180 I. Q. Yonkers, world Book Co., 1942.
5. Mackinnon, D. W. The Structure of Personality. Chap. 1. in Hunt, J. Mc. V. (ed.) Personality and the Behavior Disorders. Vol. I.
6. Moreno, J. L. who Shall Survive ? Nervous and Mental Disease Publishing Co., 1934.
7. Piaget, J., The Maral Judgement of the child, New York, Harcourt, Brace and Co., 1932.
8. Symonds, P. M. The Dynamics of Human Adjustment. New York, D. Appleton Century Co., 1946.
9. Terman, L. M. et al. Genetic Studies of Genius. Vol. I. Mental & Physical Traits of a Thousand Gifted children. Stand ford University Press, 1925.



مفهوم النشاط في التربية الحديثة

للدكتور محمد جمال صفر

الأستاذ المساعد بقسم التربية وعلم النفس

ليس هناك مفهوم أثار الجدل والنقاش بين أنصار الحديث والقديم في التربية بل وبين أنصار الحديث أنفسهم مثل ما فعل مفهوم النشاط في التربية . ولقد تصدى لتفسير هذا المفهوم وتوضيح معناه وتحديد الغرض منه عدد غير قليل من فلاسفة التربية والمربين بقصد تصحيح الأخطاء التي وقع فيها البعض أو التي نسبها غيرهم الى بعض المربين أو عملوا على نشرها في ميدان التربية والتعليم دون ادراك عميق أو فهم حقيقي لمدلول هذا المفهوم .

والنشاط يعتبر بحق إحدى الدعائم الأساسية بل وحجر الزاوية في العملية التربوية بمفهومها الحديث . فالتربية الحديثة ، أو ما اصطلح على تسميته بالتربية الحديثة وما يتفرع عنها من أساليب وطرق ، قامت على أساس فهم خاص للنشاط ومضمونه ومظاهره حتى أن المدرسة الحديثة أصبحت تعرف « بمدرسة النشاط » وطرق التربية الحديثة بطرق النشاط *Méthodes actives* والتربية الحديثة « بالتربية عن طريق النشاط » .

ولعل من المتحسن — لأجل تحديد مدلول النشاط كما تحاول طرق التربية الحديثة تطبيقه في مختلف البيئات التربوية — في البيت وفي المدرسة وفي المجتمع — أن نبدأ باستبعاد ما لا يصلح أن نسميه أو نطلق عليه نشاطا بالمفهوم الجديد لهذا المصطلح . فقد يعتقد كثير من الناس أن « النشاط » صفة نضيفها على الشخص الذي يكثر من الحركة والتقل أو الذي يقوم بأداء عمل من الأعمال كالكتابة والقراءة مثلا — بدلا من أن ينصت أو يصغى — بل قد يتخيل المرء أحيانا أن الشخص الذي يبدي نشاطا هو الذي يأتي فعلا مرئيا يستطيع الغير أن يشاهده وأن يسجل مظاهره — ولكن الحركة الظاهرية ذات المظهر الخارجي لا تتضمن بالضرورة نشاطا تربويا بالمعنى الذي تقصده التربية الحديثة —

فالفصل الذى يسمع لتلاميذه صوت عن بعد ويدل ظاهره على حركة لا تقطع قد يوهم بأنه فصل يتصف بتلاميذه بمزيد من النشاط ، بينما قد تكون الحقيقة خلاف ذلك ، اذ أن كثرة الحركة والتنقل بين الأدراج بل وحركة الأيدي وأعضاء الجسم ليست دائما دليلا على النشاط الحقيقى لأن النشاط الحقيقى هو أولا وقبل كل شئ ذاتى وحركة داخلية أكثر منها خارجية ، بل وهناك من الجهود الفكرية ما قد تعوقها الحركة الظاهرية أكثر من أن تكون لها عونا . ثم ان كثيرا ما يكون السكون أو الهدوء دليلا على نشاط قوى وعميق . والفرد الذى يفكر فى مقعده دون أن يتحرك قد يكون أكثر نشاطا من الفرد الذى يقوم بترجمة نص من لغة أجنبية مثلا . والنشاط لا يكون تعليميا ولا يحقق الغاية التربوية المرجوة منه الا اذا قصد الى اخصاب الذات والعقل والى توجيه سلوك الفرد نحو هدف يسعى الى تحقيقه - كما أنه لا يكون ذا أثر فعال فى حياة الفرد وسلوكه الا اذا كان نشاط مرغوبا فيه ، وأدرك الفرد الغاية التى يسعى الى تحقيقها عن طريقه .

وقد يخلط البعض بين نوعين من النشاط - الأول هو النشاط الذى يصحبه التعبير بعمل أو أثر خارجى ، والذى يمكن أن نسميه « نشاط الانجاز » أو « نشاط التنفيذ » ، والثانى النشاط الذى يتولد عن الشعور بحاجة يراد اشباعها والذى يثيره أحد الدوافع التلقائية أو الطبيعية لدى الفرد ، والذى يطلق عليه « النشاط الوظيفى » .

ولأجل توضيح الفرق بين النشاط بمعناه الوظيفى وبين النشاط بمعناه التنفيذى نقول أن الانسان اذا سطر خطبا بدافع من نفسه وبرغبة منها فانه يبدى نشاطا بالمعنى الوظيفى وبالمعنى الانجازى معا ، أما اذا أجبر على أن يسطر خطبا، لا يهيمه فان نشاطه ينطوى على المعنى الانجازى فقط . والانسان اذا انتظر اجابة عن سؤال له أو حلا لمشكلة تعرضه فنشاطه من النوع الوظيفى . أما اذا قاده شخص الى سماع محاضرة ليس لديه ميل لسماها فنشاطه سلبى ، والفائدة التى تعود عليه من سماعها قد تكون ضئيلة ثم لا تلبث أن يزول أثرها بسرعة وبالتالي فان قيمتها التربوية لا تعد شيئا مذكورا .

أما النشاط الذى يحقق هدفا تربويا فهو الذى ينبعث من الطاقة الذاتية والقوى الحية الكامنة عند الطفل . وهذه الطاقة اذا ما انطلقت عن طريق أحد

الدوافع أو المثيرات سواء أكانت مشكلة تطلب حلا أم صعوبة يراد تخطيها أم حاجة تتطلب اشباعا - فانها تؤدي الى بذل المجهود والى الخلق والابداع ، ويكون من نتائجها الرغبة المتجددة في متابعة العمل والقبطة التي تملأ النفس والشعور بالرضا والارتياح كلما انتقل الفرد من خطوة الى أخرى وأخذ يسلك الطريق ويذلل الصعوبات التي تعترضه حتى يصل الى الحل الأخير أو النتيجة التي يرجوها ويحقق الغاية التي يسعى إليها .

والترية ليست في الواقع سوى عملية نمو ينبغي أن يتم في ظروف مواتية عن طريق تهيئة البيئة الصالحة التي تعمل على انطلاق القوى الكامنة في الطفل وهي القوى التي تتطلع الى التفتح والازدهار عن طريق اشباع الميول والرغبات . والطفل لا بد أن يمارس ألوان النشاط التي تساعد على تنمية ميوله واستعداداته وقدراته ، ولا بد له من أن يعمل لكي تتم عملية النمو ، لأن العمل نشاط ضروري ولازم لنمو الكائن الحي . والترية الحديثة بطرقها وأساليبها تقوم على أساس فهم النشاط بمعناه الوظيفي كما أوضحناه - ويمكننا أن تصور النتائج التي تترتب على هذا الفهم في عملية الترية . فلقد أصبح قانون الاهتمام أو قانون الحاجة هو المحور الذي تدور حوله عملية الترية في « مدرسة النشاط » ، وهذا القانون هو أساس النشاط لدى جميع الكائنات الحية . فالحاجة تبعث دائما الى النشاط والفعل الذي لا يرتبط باحدى حاجات الفرد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة يعتبر شيئا مخالفا للطبيعة ولا يأتيه الفرد الا مرغما أو كارها . وفي المدرسة التقليدية كان التلاميذ يطالبون بدراسة أشياء لا تشبع لديهم حاجة ما ، وكانوا يطالبون ببذل جهود لا تستجيب لقانون الحاجة . ومن ثم فكان لا بد للمدرسة التقليدية من اللجوء الى وسائل الترغيب والتهديد ، وألوان الثواب والعقاب، وغير ذلك من وسائل اثاره الأفعال والجهود عن طريق الدوافع غير الطبيعية مما يجعل العمل نفسه غير طبيعي لأنه غير وظيفي لا يستند على مبدأ الحاجة . فالحاجة هي التي تحرك الأفراد وهي التي تشحن الدوافع التي تثير النشاط وهذه ظاهرة واضحة في كل لحظة من حياتنا اليومية .

أما مدرسة « النشاط » أو المدرسة الحديثة فانها تتخذ المبدأ الوظيفي أساسا ودليل هدى لكل نشاط يمارس فيها ، وفي ذلك يقول المربي السويسري « كلاپارد »

Claparede « اذا أردت أن يعمل تلميذك فضعه في ظروف من شأنها أن تشعره بالحاجة الى القيام بالعمل الذى تنتظره منه » (١) .

ان المبدأ الوظيفى فى التربية يذكرنا بأن وظيفة العمل هى اشباع الحاجات العضوية أو العقلية لدى الكائن الحى ، كما أنه يوضح قيمة المعلومات التى نكتسبها أو نحاول اكتسابها ، فليس للمعرفة قيمة الا بالقدر الذى تستخدم فيه لتعديل سلوكنا ومساعدتنا على الوصول الى الغاية التى نسعى اليها ، واشباع الحاجة التى دفعتنا الى اتخاذ سلوك معين ، والمعرفة ليست غاية فى ذاتها ولا قيمة لها الا من الناحية الوظيفية . والتربية الوظيفية تقوم على أساس الحاجة الى المعرفة ، والحاجة الى البحث ، والحاجة الى المشاهدة ، والحاجة الى العمل . فالحاجة والاهتمام الذى يتولد عنها هما العاملان اللذان يصبح الفعل بفضلهما فعلا حقيقيا وبالتالي ذا قيمة تربوية .

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن الآن هو : كيف يمكن تزويد التلاميذ بالبواعث التى تدفعهم الى العمل ؟ وكيف نجعل التلاميذ يرغبون بكل قواهم فى دراسة الحساب والتاريخ والجغرافيا وقواعد اللغة وغيرها ؟ والجواب على هذا السؤال يتلخص فى أننا لا نستطيع تزويد التلاميذ ببواعث على العمل ما دامت المدرسة بمناهجها وأساليبها وطرقها بعيدة كل البعد عن الحياة ، وما دام بين المدرسة والحياة جدار لا تستطيع الحياة أن تنفذ منه . فيجب أن تنظم المناهج الدراسية فى ضوء أن المعرفة ينبغى أن تكون دائما فى خدمة العمل ، وأن رسالة المدرسة هى اعداد التلميذ للحياة عن طريق الحياة لأجل الحياة .

ان تفهم الوظيفى للتربية يحتم اتخاذ ميول الأطفال وحاجاتهم مركزا تدور حوله المناهج وألوان النشاط التى تمارس فى المدرسة ، وكذلك طرق التدريس التى تستخدم فيها . كما ينبغى أن تفهم التربية على أنها عملية تكيف وتلاؤم دائم مع البيئة التى يعيش فيها التلميذ سواء أكانت بيئة طبيعية أم بيئة انسانية . وهذا التكيف يتم تدريجيا عن طريق العمليات الذهنية والعقلية . والعملية التربوية لابد أن تكون بدايتها نشاط التلاميذ ذهنى واليدوى وميولهم ورغباتهم الملحة

التي تظهر في اتجاهاتهم ومحاولاتهم التعرف على الأحداث والظروف التي يعيشون فيها والتي تؤثر فيهم ويتأثرون بها ، أى يتفاعلون معها .

فالتربية ينبغي أن تبدأ من الواقع وبما هو موجود فعلا ، لكي تستطيع أن توجه وتقود نحو ما هو أفضل ونحو ما ينبغي أن يكون .

مدرسة النشاط :

لعل أهم عيب أخذه أصحاب « مدرسة النشاط » على المدرسة التقليدية هو أنها جعلت من التلميذ مجرد مستمع للدرس الذي يلقيه المعلم — ولعل الأثاث الذي زودت به المدرسة التقليدية وما يشمله من أدراج ومقاعد دليل له معناه في هذا الصدد .

فيحكى أن الفيلسوف المربي الأمريكي « جون ديوى » ذهب ذات يوم الى محل لبيع الأثاث المدرسى للبحث عن مناخد تصلح لمختلف الأشغال والأعمال التي سوف يارسها التلاميذ في مدرسته التجريبية . ولما لم يجد ما يبحث عنه قال له تاجر الأثاث : أخشى ألا يكون لدينا ما يلزمك فأنت تريد أثاثا يسمح للتلاميذ بأن يقوموا ببعض الأعمال ولكن ما عندنا صنع ليتمكنهم من الاستماع . ويقول « ديوى » ان هذا الجواب يمثل التربية التقليدية ، ويعطى فكرة عن طرق التعليم المتبعة فيها . حقا أن تلاميذ المدرسة التقليدية لا يكتفون دائما بالاستماع فهناك ساعات مخصصة للعمل الفردي ، بل يعترف أصحاب مدرسة النشاط بأن المدرسة التقليدية تتطلب من تلاميذها الكثير من الأعمال ، ولكن ليس من أتباع مدرسة النشاط هؤلاء الذين يفرضون على تلاميذهم دروسا يستظفرونها أو مجموعة من تمارين الترجمة والتعبير والانشاء — وليس من أتباع مدرسة النشاط هؤلاء الذين يعتمدون كثيرا على ما يحفظه التلاميذ عن ظهر قلب . ان المدرسة التقليدية لا تترك شيئا لاختيار التلميذ ، بينما العمل الجدير بالانسان والعمل المثمر حقا هو الذى يؤديه الفرد فى حرية تامة ، ولذلك يقول أنصار المدرسة الحديثة ان المدرسة التقليدية ليس فيها نشاط بالمعنى الحقيقى ، وخاصة فى مراحل التعليم الأولى حيث يكون تناول الأشياء وتداولها واختبارها من أهم وسائل تكوين عقلية الطفل فى هذه السن . كما أن الرغبة فى التعرف على الأشياء عن طريق الحل والتركيب تعتبر أحد ميول الطفل التلقائية والطبيعية . فالطفل يحب

الطبيعية ، ونحن نضعه في غرف مقفلة . والطفل يحب اللعب ، ونحن نتطلب منه أن يعمل . والطفل يود أن يرى نشاطه يستخدم لغرض ، ونحن نتصرف بحيث يبدو نشاطه بلا هدف . والطفل يحب الحركة ، ونحن نفرض عليه أن يبقى ساكنا . والطفل يحب الاتصال بالأشياء ، ونحن نجعله يتصل بالأفكار فقط . والطفل يود أن يستخدم يديه ، ونحن نجعله يستخدم ذهنه فقط . والطفل يحب الكلام ونحن نفرض عليه السكوت ، وهو يريد أن يفكر ، ونحن نطلب منه أن يحفظ ، وهو يود أن يبحث عن العلم ، ونحن تقدمه له « جاهزا » . وهو يود السير وراء رغباته ، ونحن نخضعه لرغبة الكبير . والطفل يود أن يتحمس لبعض الأعمال أو الأفعال ، ولكننا اخترعنا المقوبات ، والطفل يريد أن يقدم الخدمات في حرية ، ونحن نعلمه الطاعة العمياء .

أما مدرسة النشاط فعلى العكس من ذلك تشجع قيام جميع الأجهزة بوظائفها ، يستوى في ذلك الوظائف العقلية والعاطفية والعضوية . ففي مراحل التعليم الأولى يعمل التلميذ الصغير واقفا أو جالسا ، ولكنه حر يستطيع التحرك ليستفسر عن شيء ، أو يطلع على صورة أو كتاب . وفي مدرسة النشاط يتعلم الطفل القراءة والكتابة ومبادئ الحساب باستخدام يديه التي تساعد عينيه وعقله كما تساعد الأعمال التي يقوم بها والأشياء التي يتناولها والتي توضع أمامه وتحت تصرفه ، والنباتات التي يشاهد نموها والحيوانات التي يرببها ... الخ كل ذلك يساعد على تنمية الحواس وتقوية ملكة المشاهدة والملاحظة ، كما يعمل على تنمية المهارات اليدوية .

ثم أن التلميذ في المرحلة التي تلي المرحلة الأولى يتعلم إحدى الحرف التي تنمي لديه إحدى المهارات . كما تلقى عليه بعض المسؤوليات البسيطة التي تتصل بتنظيم سير العمل في المدرسة من نظافة ونظام ومراقبة احترام الأنظمة وغير ذلك كما يتعلم فن قيادة الجماعة التي تقوم بأداء عمل مشترك يؤدي الى تحقيق هدف معين . وتشكيل عقلية التلميذ في مدرسة النشاط لن يكون عن طريق الكتاب وحده كما في المدرسة التقليدية ، ولكن يدخل في هذا التكوين ناحية عملية وهي العمل المدرسي الذي يهدف الى اكتساب المعلومات والخبرات عن طريق المحاولات الفردية ، فتتخذ مدرسة النشاط من قول « جون ديوى » Learning by doing

« التعلم عن طريق العمل » . دليل هدى لها - (١) فالطفل في المدرسة الحديثة ينبغي أن يتحسس وأن يحاول قبل أن يصل الى النتيجة وتتم عملية تعليمه عن طريق هذا التحسس وتلك المحاولات لذلك نجده لا يجب أن يقوم أحد بأداء عمله بدلا منه ، ولكنه يرغب دائما في أن يقوم بالعمل بنفسه ولسان حاله يقول : « ساعدوني لأعمل وحدي » .

وظيفة المعلم في مدرسة النشاط :

وفي ضوء هذا الفهم الجديد للتربية والنشاط تغيرت وظيفة المعلم تغيرا كاملا . فلم يصبح ذلك الفرد الذي يعرف كل شيء أو الذي يدعى معرفة كل شيء ، كما لم يعد ذلك الفرد المكلف بتشكيل ذكاء التلميذ وحشو ذهنه بمختلف المعارف والمعلومات ، وإنما أصبحت وظيفته اثارة الميول وايقاظ الحاجات العقلية والأخلاقية والاجتماعية عند الطفل ، وأصبح بالنسبة لتلاميذه موجها وماعدا ومعاوننا أكثر منه ملقنا - - وبدلا من أن يكتفى بنقل المعلومات والمعارف الى تلاميذه سوف يقوم بمساعدتهم على اكتسابها بأنفسهم عن طريق العمل والبحث الشخصي - ولن يكون الدافع للتعلم الخوف من العقاب أو الطمع في الثواب وإنما يوجد الدافع في الميل العميق نحو الشيء المراد تمثله أو العمل المراد أدائه - فالتلميذ لا يعمل عملا أو يسلك سلوكا معيننا بقصد اطاعة أوامر الكبير أو ارضاء له وإنما لأنه يشعر في قرارة نفسه بالرغبة في هذا العمل أو اتباع ذلك المسلك . وبالاختصار يحل « الدافع الذاتي » في مدرسة النشاط محل الدافع الخارجي المفروض على التلميذ من المعلم أو من المناهج المقررة .

(١) كان الفيلسوف والمربي الأمريكي جون ديوى اول من أوضح هذا الاتجاه التربوي وحاول تطبيقه منذ عام ١٨٩٦ في مدرسته التجريبية الملحقة بجامعة شيكاغو حيث طبق فيها مبدأ التعلم عن طريق العمل - لأن التعلم كما يقول الفيلسوف « البراجماتسى » : « يتم عن طريق ايجاد حل لمشكلة حقيقية » ، وقد سار في نفس الاتجاه واستوحى من نفس المبادئ المربي النمساوى Kerchensteiner الذي بدأ منذ ١٩٠٨ بنشر فكرة مدرسة العملArbeitschule وفي سنة ١٩٠٩ أوضح الفرنسي Binet أهمية نشاط التلميذ في عملية التعلم واكتساب المعلومات . ومنذ سنة ١٩١٧ استخدم Bovet السويسرى مصطلح مدرسة النشاط ، الذى انتشر منذ ذلك الوقت في عالم التربية وميادين تطبيقاتها .

طرق النشاط في التربية :

لقد نجحت التربية الحديثة في ادخال طرق تربوية تهدف الى تربية الجسم والعقل وتكوين الخلق ، واعتمدت كلها أو أكثرها على حاجة الطفل الى بذل النشاط المحبب الى نفسه . وهذه الطرق بالرغم من تعدد صورها ومظاهرها فانها تتجه جميعها الى ميول التلاميذ في كل مرحلة من مراحل النمو ، وتعمل على تهيئة البيئة التربوية الصالحة التي تمكن التلميذ من الاتصال بمصادر المعرفة لكي يسهم بنفسه في تنمية ذاتيته ، وتجعل اكتساب المعلومات وتكوين عادات التفكير السليم من عمل التلاميذ أنفسهم عن طريق ايقاظ ميولهم وتشجيع اتجاهاتهم وتنمية رغبتهم في الاستزادة من المعرفة - وهي بذلك تحارب كل ما من شأنه أن يجعل موقف التلميذ سلبيا يتلقى المعلومات من غيره أو عن طريق الكتب كما تفعل طرق التعليم التقليدية . وهذا التعريف بطرق النشاط في التربية أو الطرق الفعالة يكفي لايضاح الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون من يعتقدون أن تطبيق أو استخدام طرق النشاط في الأعمال العقلية لا بد أن يصاحبه نشاط يدوي أو حسي حركي . والحقيقة أن استخدام الطرق التي تقوم على أساس من ميول التلاميذ الذهنية والعقلية لا بد أن تتخذ شكلا عمليا وبناء ما دامت عقلية الطفل في مرحلة معينة وفي سن معينة تتجه نحو هذا اللون من النشاط ، وما دام الطفل لا يستطيع أن يصل الى فهم الحقيقة الا عن هذا الطريق . ثم ان هذه الطرق تتطور وتصبح أكثر « عقلية » كلما اتجهت ميول التلميذ نحو الميول المجردة ، ثم الميول المنطقية ، وبذلك تعدل طرق النشاط في تطبيتها تبعاً لمراحل النمو العقلي ، وتبعاً لمرحلة التعليم ابتدائية كانت أم ثانوية أم عالية .

ويرجع أهمية طرق النشاط في التربية الى اعتبارات سيكولوجية واعتبارات انسانية بالاضافة الى الاعتبارات الاجتماعية مما جعلها وسائل فعالة في تكوين عقلية التلميذ الأخلاقية والاجتماعية . وهذه الطرق يمكن استخدامها في جميع المراحل الدراسية وفي مختلف المستويات - فينبغي أن يرى الطفل وأن يلمس ، وأن يتداول كل ما يريد أن يتعلمه . والمقصود هو الاتصال بالحياة ومشاهدتها مشاهدة مباشرة في كل تعقيداتها الحقيقية لا بعض عناصرها المبسطة - فالتعلم يجب أن يبدأ بالاتصال المباشر بالحقائق وبالبيئة المحيطة بالطفل وبالحياة ، وفي ذلك

يقول «دكرولى» «من الواضح لكل من يعرف الطفل عند دخوله المدرسة الابتدائية أن العمل الذى يفيد منه الطفل والذى يتلاءم مع وسائله وطرق تفكيره هو الذى يتم عن طريق اتصاله بالأشياء وبالعالم الخارجى»^(١). ان موقف التلميذ يشبه موقف الباحث الذى اعتاد أن يتصل اتصالا مباشرا بمصادر المعرفة ويحاول النفوذ الى أسرارها وقواعدها عن طريق نشاطه وتعبيره الذاتى، وسوف يحتفظ بهذا الموقف حتى اذا أصبح العمل أكثر تجريدا ، فقد اكتسب الطفل عادة المشاهدة والملاحظة بنفسه والتعلم عن طريق عمله ومجهوده الشخصى ، وأصبح يعمل على توسيع دائرة معلوماته باللجوء الى مصادر أخرى غير الكتاب المدرسى مثل زيارة المتاحف والأماكن الأثرية والاتصال بالطبيعة ، حيث يستطيع أن يرى الأشياء فى بيئتها الطبيعية ، وأن يرجع الى المطبوعات المختلفة التى تلقى ضوءا على موضوع الدراسة .

أما الحياة الاجتماعية فى المدرسة الحديثة فتقوم على أساس تنظيم الروابط والاتصالات التى تنشأ بين التلميذ وبين زملائه ، وبينه وبين المعلم ، ثم ان هذه الروابط من شأنها أن تثير حاجة الطفل الى العمل ، وبالتالي الى التعلم ، ولعل هذا من بين الأسباب التى جعلت للعب فى جميع مراحل النمو مزايا تربوية كثيرة وجعلت طرق النشاط تستغل اللعب فى العمل العقلى بجانب استغلاله فى تعلم أدب الأخلاق والخضوع لمقاييس آداب السلوك . وبذلك يتجنب المربي تقديم قواعد الخير والشر والحق والباطل وفقا لمفاهيم الكبار وبطريقة أساسها الوعظ والارشاد والأوامر والنواهي .

وفى مراحل النمو الأولى عند الطفل يكون اتخاذ الذات أساسا للحكم على الأشياء *égocentrisme* - لذلك نجد الطفل يسير وراء ميوله الذاتية . وعلى ذلك ينبغى أن يحاول المربي تنظيم العلاقات بين الأطفال بشئ من الحرص وحسن التصرف حتى لا تتضاءل شخصية الطفل النامية أو يعمل على محو ذاتيته . وعند ما يكبر الطفل تلعب العلاقات بين التلاميذ دورا هاما فى حياتهم الاجتماعية ويصبح استخدامها مبدأ تربويا هاما حتى تصل به الى مستوى التعاون والتضامن

(١) (دكرولى - Decroly) المربي البلجيكي صاحب طريقة مراكز الاهتمام فى التربية .

وتنمية الحساسية الاجتماعية والالتقاء الى جماعة واحدة . وفي هذه المرحلة من مراحل النمو أى حوالى سن الثامنة تقريبا يحاول الطفل التخلص تدريجيا من الضغط الخارجى ، فأفكاره وسلوكه يبدأآن فى أخذ شكل اجتماعى أو جماعى بالمعنى الموضوعى للكلمة . فهو يفهم الأشياء فى ذاتها ويتقبل وجهة نظر الغير ويصبح قادرا على أن يتعاون مع غيره لتحقيق هدف مشترك ، وبعبارة أخرى يرتفع الى مستوى تفهم وتبادل وجهات النظر التى تتحقق بين الأقران والزملاء . وتكوين الصلات الحرة وتوثيق الروابط بينهم فى هذه السن أثناء العمل أو اللعب له أهمية كبرى فى تنمية حياة التلميذ الاجتماعية ، والاتقال به من مرحلة « الذاتية » الى مرحلة « الاجتماعية » أو من « الأنية » الى « الغيرية » ، فيتدرج نحو الحكم على الأشياء حكما موضوعيا ، ويشعر بالتقدير والاحترام للقوانين والأنظمة التى يجب اتباعها ، ولا يتحين الفرص للخروج عليها لأنها أصبحت جزءا من حياته ومن تكوينه .

وتعتبر « طرق النشاط فى التربية » الطفل وحدة متكاملة وتهدف الى تكوين شخصيات متزنة ومتناسقة بعيدة عن الأثرة والأنانية وتشجع بذل المجهود والمثابرة على العمل لأن بذل الجهد المفروض لا يلبث أن يتحول الى « سخرة » والى عمل ليس له هدف واضح . وهذا تعريف سريع لبعض طرق التربية القائمة على نشاط الأطفال .

١ — طريقة دولتن Dalton Plan — استخدمتها Miss Helen Parkhurst فى أمريكا منذ أكثر من ثلاثين سنة وفيها يطلب الى كل تلميذ أن يتم عملا أو جزءا من العمل فى تاريخ محدد ويسمى هذا الجزء من المنهج « بالتعيين » ويحال التلاميذ بطريقة منظمة الى مراجع مصنفة بدقة — ويختار كل تلميذ عمله فى حرية ، ويقوم بإتمامه وفقا لقدراته الخاصة وامكانياته ووسائله ، ويرجع الى المعلم يطلب منه المعونة والمساعدة لتذليل بعض الصعوبات التى تقابله ، أو للوصول الى حلول للمشكلات التى تعترضه بعد أن يكون قد استنفد وسائله وتنبأت نفسه وعقله لتقبل ما يشير به المعلم — ويقوم المعلم من وقت الى آخر بتنظيم دروس جماعية لشرح بعض القواعد أو الصعوبات التى اعترضت الفصل بأجمعه ، أو مجموعة من المجموعات التى يتكون منها الفصل . وبهذه الطريقة

يمكن التوفيق بين ما يتطلب المنهج استيعابه من معلومات وبين الحرية التي تتركها للتلميذ ، وتنمية نشاطه الذاتي ، وتعويده الاعتماد على النفس ، واكتساب المعلومات عن طريق اسهامه في عملية التعلم .

٤
٢ — طريقة المشروع : طريقة المشروع هي بلا شك أكثر طرق التربية الحديثة انتشارا وتقوم على اعتبارات سيكولوجية واجتماعية معا . فالمبدأ الأساسي فيها هو أن الحياة قائمة على الأفعال الحقيقية ، لا على الأعمال التي تفرض على الفرد ، ولقد كان جون ديوى هو الذى أوحى بالطريقة وقام بتطبيقها ونشرها W. Kilpatrick سنة ١٩١٨ ، والطريقة توجه نشاط التلاميذ وأفكارهم نحو تنفيذ مشروع يختارونه في حرية تامة . وهذا النشاط يكون في الغالب نشاطا عمليا أى له هدف عملي Purposeful activity ، يوجه التلميذ ويحدد الأهداف التي يعمل من أجلها . فهو اذن نشاط غائي أى له غاية واضحة ، فادا اختار التلاميذ مثلا دراسة مشروع « بناء حظيرة في المدرسة » فانهم يعملون بأيديهم وأفكارهم من أجل تنفيذ المشروع ويتعاونون ويتعلمون الحساب والرسم واللغة ... الخ أثناء تنفيذ المشروع ، وتصبح مواد المنهج وسيلة لتحقيق المشروع وليست غاية في ذاتها ، ومزايا الطريقة وفوائدها الاجتماعية والعملية تعادل المعلومات الذهنية والعقلية التي يكتسبها التلاميذ وتكون معلومات وظيفية لأن اكتسابها كان عن طريق النشاط الوظيفي .

٣ — الدراسة بطريقة الجماعات : بدأ المربي الفرنسى R. Cousinet تطبيق الطريقة منذ سنة ١٩٣٠ وأساسها انطلاق النشاط الحر عند التلاميذ عند ما يسهمون في عمل جماعي فيختار التلاميذ موضوعا ويكونون جماعات لدراسته تكون من خمسة أو ستة ، ويختار كل واحد منهم نقطة معينة يتعهد بدراستها وعرضها على زملائه — ويستمر التعاون بينهم كل حسب امكانياته ، وينمو التضامن بينهم . وهذه الطريقة وسيلة للتربية عن طريق الحرية .

٤ — طريقة دكرولى أو طريقة مراكز الاهتمام : وتشبه الى حد كبير طريقة المشروع وأساسها تنظيم المعلومات التي نود أن يكتسبها التلميذ حول اهتمامه بما يدور حوله من أحداث ، وما يشبع حاجاته ورغباته — الأمر الذى يساعد على تعبئة قواه ونشاطه الذهني والعقلي ، ويدفعه الى بذل الجهود المحبب الى

نفسه — والطريقة تحاول التوفيق بين استيعاب المنهج والنشاط الحر للتلميذ ، كما تحاول التوفيق بين الحرية والنظام في العمل المدرسى .

هـ — التعاونيات المدرسية : وهدفها تنمية الناحية العملية عند التلاميذ وتنظيم الأعمال والمساهمة الفعلية في ادارة عمل جماعى ، وفيها يتولى التلاميذ جمع وادارة مبلغ من المال لتزويد المدرسة بمعدات وأدوات ، أو بتنظيم الرحلات واصلاح الأماكن وادخال التحسين عليها ... الخ . وهى وسيلة الى دراسة فروع المواد الدراسية عن طريق مجموعة من الأعمال التى تهدف الى تحقيق هدف تسعى الجماعة الى تحقيقه .

وهكذا نجد أن طرق النشاط هى أساليب تربوية تقوم على أسس من مميزات علم النفس وعلم الاجتماع وسائر العلوم الانسانية الأخرى . وطرق النشاط تأخذ بدايتها دائما من الطفل كما هو ، وتقدم له الغذاء الروحى الذى هو فى حاجة اليه لكى ينسى مواهبه واستعداداته وتعمل على تفتح وازدهار قدراته . وأخيرا فهى تنجه نحو الميول والدوافع التلقائية لكى تستخدمها فى عملية النمو عن طريق النشاط الفردى والجماعى . وهى باحترامها للفرد وكرامة الفرد تعمل للبناء ونشر التضامن والتعاون بين الأفراد فى المجتمعات وفى العالم .

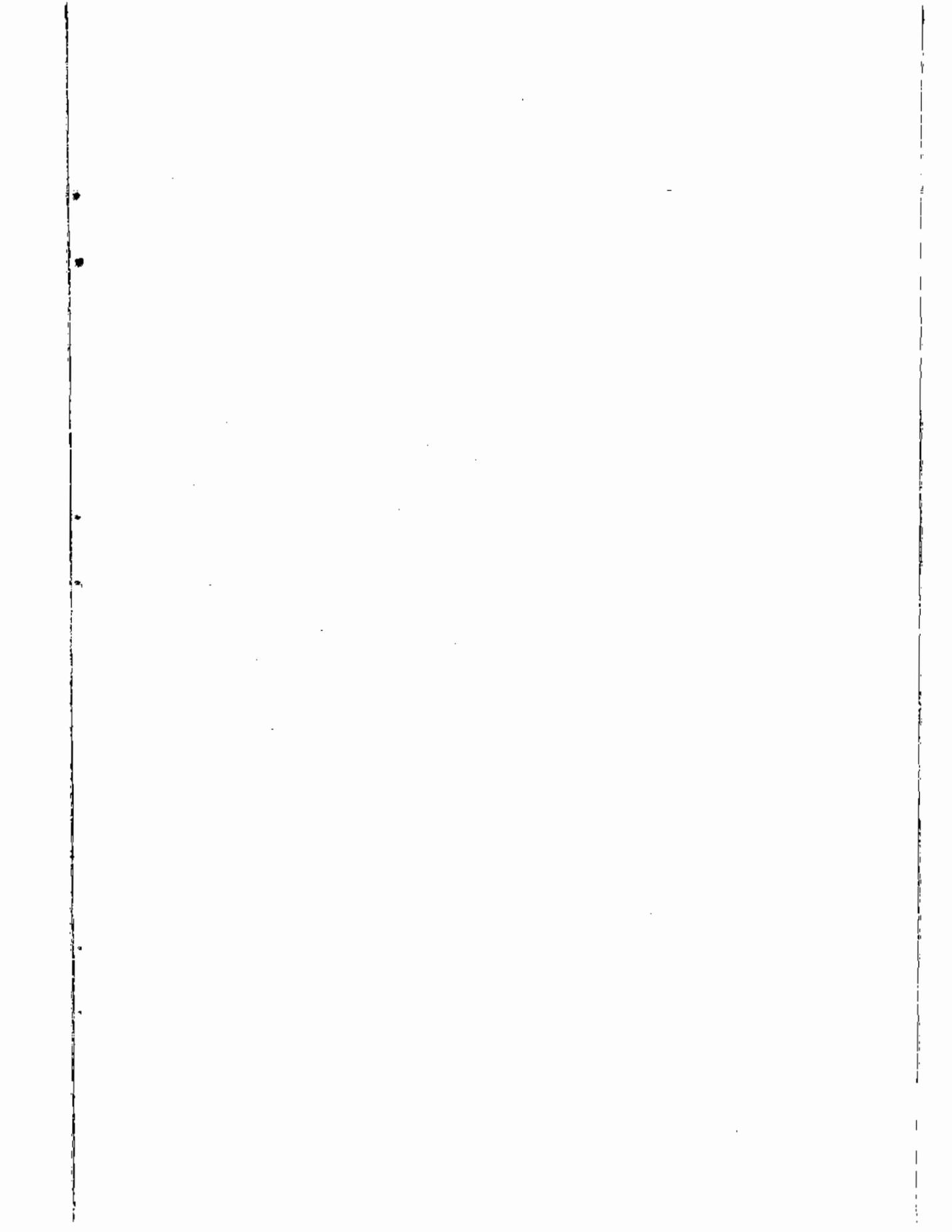
المراجع

1. L. Education Fonctionnelle — E. Claparède.
2. Traité de Pédagogie — R. Hubert.
3. La Pédagogie Scolaire contemporaine — E. Planchard.
4. L'Education Nouvelle — Maria Médecis.
5. Les Méthodes en Pédagogie — Guy Palmade.
6. Philosophie de l'Education Nouvelle — M. Bolch.
7. L'Ecole active — A. Ferrière.
8. Les idées modernes sur les enfants. — Binet.
9. Pour ou contre l'Education Nouvelle — S. Durand.
10. L'enfance Méconnue — Dr Allendy.

الفهم الثالث :

الدراسات التاريخية

- ١ - علاقة الصين بديار الإسلام .
- ٢ - الجمهوريات الإفريقية المتتمة للمجموعة الفرنسية .
- ٣ - المسجد في فجر الإسلام .



علاقة الصين بديار الإسلام

للكاتبة سيرة اسماعيل طائف

أستاذة التاريخ المساعدة

يرجع الاتصال بين الصين والعالم الإسلامي الى عهد « أسرة تانغ » التي حكمت الصين بين عامي ٦١٨ - ٩٠٥ م . وتروى المراجع الصينية أن محمدا عليه الصلاة والسلام بعث خطابا الى ملك الصين « تاييسونج » من ملوك أسرة تانغ في سنة ٦٢٨ م ليهديه الى الاسلام ، بل ان بعض الروايات الصينية تذكر أن الملك « تاييسونج » هو الذي أرسل وفدا الى النبي عليه الصلاة والسلام ليطلب منه أن يبعث اليهم من ينشر الاسلام وتعاليمه في الصين فأجابه عليه السلام الى طلبه ، وبعث مع الوفد ثلاثة من صحابته ، وهم قيس ووقاص وقاسم ، فتوفي الأولان منهم في الطريق ، أما الثالث فقد آكرمه ملك الصين وأحسن ضيافته ، وأرسل الملك ثلاثة آلاف من جنود الصين مقابل ثلاثة آلاف من العساكر العرب ، وبنى لهم مسجدا في العاصمة لنشر الاسلام ، كان نواة هذا الدين في تلك البقاع (١).

ويفسر الرواة والمؤرخون الصينيون سبب اهتمام ملك الصين تاييسونج بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ، أن هذا الملك رأى في منامه في السنة الثانية لحكمه الموافقة ٦٢٨ م حيوانا مفترسا يهاجمه ، وبينما هو لا يجد مخرجا من مأزقه هذا اذ برجل وقور يرتدى طيلسانا ويلبس عمامة بيضاء ، ويده مسبحة قد أخذ يدافع عنه . ولما أصبح الصبح جمع الملك جميع وزرائه وأمرائه وقص عليهم رؤياه ، فقال قائل منهم : ان الحيوان المفترس رمز لثائر سيثور في البلاد ، وأما

(١) الأستاذ الصيني المسلم « محمد تواضع » : الصين والاسلام (القاهرة

الرجل الوقور فهو نبي من الأنبياء ، وقد ولد في جزيرة العرب . ومعنى الرؤيا أن بلاد الصين لا يدوم أمنها وصلاحها بدون بركة هذا النبي العظيم ^(١) .

وقد أشار المؤرخون الصينيون ^(٢) الى الدين الجديد في « مملكة المدينة » وذكروا مبادئ الاسلام قائلين : انها تختلف عن مبادئ بوذا ، وأن أتباعها لا تماثيل في معابدهم ولا أصنام ولا صور . وأضافوا الى ذلك أن فريقا من المسلمين قدموا الى « كنتون » في فاتحة أسرة تانج وحصلوا من امبراطور الصين على الاذن بالبقاء فيها ، واتخذوا لأنفسهم بيوتا جميلة تختلف في طرازها عن البيوت الصينية ، وكانوا يطيعون رئيسا ينتخبونه من بينهم ^(٣) .

وفي بعض الأساطير عند المسلمين من أهل الصين أن الملك الأول من ملوك أسرة « صى » (٥٨٩ - ٦١٧ م) والملقب « وين تى » رأى في ليلة من الليالي نجما باهرا فأمر رئيس الكهنة أن يتكهن له فوجد ذلك دليلا على ظهور رجل عظيم الشأن في بلاد العرب . فأرسل الملك رسولا للتحقق من هذا الأمر . فوصل الرسول الصينى بعد سنة كاملة الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وطلب منه أن يسافر بنفسه الى الصين ، فاعتذر اليه وبعث معه أربعة من صحابته منهم خاله سعد بن أبى وقاص . وروى أن رسول ملك الصين رسم صورة رسول الله سرا ، ولما رأى ملك الصين صورته عليه الصلاة والسلام سر بها كثيرا وعلقها على حائط بلاطه ليسجد له ، فمنعه سعد بن أبى وقاص ، ولما سأله الملك عن السبب أجاب : ان رسول الله يمنعا من عبادة الصور والتماثيل ، وانه لا عبادة الا لله وحده .

(١) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦١

(٢) المرجع السابق ص ٨ و ٦١ - ٦٢ E. Bretschneider : On the knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies (لندن ١٨٧) ص ٦ ، Th. Arnold : The Preaching of Islam (الطبعة الثالثة لندن ١٩٣٥ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥)

(٣) انظر : P. Dabry de Thiersant : Le Mahométisme en Chine باريس ١٨٧٨ ، ج ١ ص ١٩ - ٢٠ ، والدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام (القاهرة ١٩٤١) ص ٨

وقد أعجب الملك بهذا المبدأ وأمر ببناء جامع في كاتون وسماه « خواى شينغ » أى « الشوق الى النبي » . وهذا الجامع موجود الى الآن ، ويقال ان سعد بن أبى وقاص كان أول من بشر بالاسلام فى الصين ، ويقال انه توفى فيها ودفن فى ظاهر مدينة كاتون بقبر لا يزال ينسب اليه (١) .

ونحن نعرف من المصادر العربية أن سعد بن أبى وقاص لم يذهب الى الصين أبدا ، والمعروف فى التاريخ الاسلامى أن سعدا حضر غزوة بدر والحديبية ، وكان بطل موقعة القادسية ، وحين ظهر النزاع بين على ومعاوية بقى محايدا . وتوفى بالعقيق على عشرة أميال من المدينة المنورة فى سنة ٥٤ هـ ، ويذكر الرواة أن مروان بن الحكم صلى عليه وأنه دفن بالبقيع .

أما سعد بن أبى وقاص أو « وقاص » الذى ذكرت المراجع الصينية أنه بشر بالاسلام فى الصين فتذكر المراجع الصينية أنه عاد الى بلاد العرب عن طريق البحر ثلاث مرات ، فى المرة الأولى للكتب الدينية ، وفى الثانية لنسخة من القرآن الكريم ولاستشارة النبي عليه الصلاة والسلام فى مسألة الدعوى والارشاد فى الصين ، فقال له الرسول خذ معك ما نزل من الآيات ، وسأبعث اليك الآيات التى سأتلها من الوحي ، وذهب فى المرة الثالثة لقيادة الرسول حين سمع بمرضه ثم رجع الى الصين بنسخة كاملة من القرآن . . وقد توفى بكاتون ، وله مقبرة هناك باقية الى الآن .

وقيل أيضا أن سعد بن أبى وقاص بنى جامعا فى عاصمة الصين حينئذ وهى جانغ آن ، ثم أنشأ مسجدين آخرين أحدهما فى كيانغ نينغ (نانكين) والآخر فى كاتون ، واشتهر جامع كاتون باسم « واى شن تزي » ، أى « جامع الذكرى للنبي عليه الصلاة والسلام » ، وطبيعى أن صاحب الضريح لا يزال مجهولا عند المؤرخين ، وقد يكون اسمه مشابها لاسم سعد بن أبى وقاص (٢) .

(١) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦١ - ٦٢ دكتور زكى محمد حسن : الصين وفتون الاسلام ص ٩ ، الأستاذ الصينى المسلم « محمد مكين » نظرة جامعة الى تاريخ الاسلام فى الصين وأحوال المسلمين فيها (المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ) ص ٦ - ٩

(٢) انظر الأستاذ الصينى المسلم « بدر الدين حى الصينى » : العلاقات بين العرب والصين (مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولى ١٩٥٠) ص ١٥٤ - ١٥٨

ولم يتفق كتاب الصين القدماء على سنة وصول الاسلام الى الصين ، كما أنهم لم يتفقوا على أول من جاء بالاسلام الى الصين .

والظاهر من الروايات التي ذكرها المؤرخون الصينيون أنها لا تقوم على أساس علمي صحيح . فالبعض يزعم أن الاسلام دخل الصين منذ عهد أسرة « صى » أو « صوى » ، أى بين سنة ٥٨٩ و ٦٠٥ م ، ويمكننا الرد على هذا بأن النبى عليه الصلاة والسلام كلف بالرسالة بعد سنة ٦٠٥ م ، أما السنوات التي بين ٦١٨ و ٦١٦ م فقد شغل الرسول فيها بالدعوة الى الاسلام وبمناهضة كفار قريش . ولم يوجه الرسول عليه الصلاة والسلام الدعوة خارج شبه الجزيرة الا في أواخر السنة السادسة للهجرة ، وهي توافق ٦٢٧ م ، ونلاحظ أن ابن هشام لم يذكر في سيرته أى شئ عن ارسال النبى عليه الصلاة والسلام كتابا الى الصين يدعو الى الاسلام ، وان كان هذا لا ينفى نفيًا مؤكدا وجود أى اتصال بين المسلمين والصين في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام^(١) .

وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . واذا كنا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الحديث ونسبته الى الرسول عليه الصلاة والسلام فاننا نستدل منه محلى أن العرب كانوا يعرفون الصين كما كانوا يدركون بعدها عنهم .

لم تكن علاقة الصين بالعرب وليدة العصر الاسلامى ، بل بدأت قبل الاسلام بقرون . وكانت علاقة غير مباشرة أولا ثم تطورت الى علاقة مباشرة قبل ظهور الاسلام ، وقد توثقت تلك العلاقة في العصر الاسلامى . والمعروف أن أسرة « تسين » التي حكمت من ٢٤٦ - ٢٠٧ ق.م وحدت البلدان الصينية وجعلت منها أمة واحدة . واتصلت الصين بالممالك المجاورة مثل بلاد الترك والهند ويران وغيرها . فظهر اسمها في العالم ، وعرفت بلاد الصين من ذلك الحين باسم «الصين» عند العرب و « جين » عند الهنود والفرس والأتراك و China في اللغات الأفرنجية ، وكلها معرفة عن كلمة « تسين »^(٢) .

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٥٢ -

(٢) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٥

ومن الثابت أنه منذ القرن الثاني قبل الميلاد اتصلت الصين بطريق القوافل بالبلاد التي تقع غربها ، وكانت كلمة (البلاد الغربية) في تاريخ الصين القديم تعنى البلاد التي تقع فيما وراء حدود الصين الغربية من التركستان الى البحر الأسود . وكانت قوافل الصين تتقابل مع قوافل ايران والعراق وبلاد آسيا الغربية في بلاد ما وراء النهر مثل بخارى ، وقد يتصل تجار غرب آسيا بالصين مباشرة ولا يكتفوا بمقابلة تجار الصين في بلاد ما وراء النهر . وكانت آخر محطة يصل اليها التجار شرقا هي مدينة « سي آن » عاصمة الصين القديمة وغربا مدينة « خيوا » عاصمة ايران .

أى أن الصينيين اتصلوا بايران مباشرة بطريق البر عن طريق بلاد التتار أو تركستان ، كما اتصلت العراق وأرمينيا والقسطنطينية بالصين بواسطة ايران . ومن المحتمل أن تجار العراق أو الشام ومصر زاروا بلاد الصين مع القوافل التجارية التي كانت تتردد الى « سي آن » بين حين وآخر (١) .

والمعروف أن تجارة الحرير بين الصين وروما وبيزنطة كانت تمر بايران وبلاد الجزيرة آتية من وسط آسيا . وظلت هذه التجارة في يد الايرانيين عدة قرون . وكان الصينيون والىرايون قبل الاسلام عدة طويلة يعجب كل منهم بالموضوعات الزخرفية على المنسوجات في البلد الآخر ويعمل على محاكاتها ، فتخرج مصانع النسيج أقمشة صينية تقيسة ذات زخارف ساسانية ، وأقمشة ايرانية ذات زخارف صينية ، بل ان في القصص والأساطير الايرانية ما يدل على أن صناعات الصين كانوا يعملون لبعض ملوك الدولة الساسانية في صنع التحف والتماثيل ، ولم يضعف اتصال ايران بالصين حين تقصت تجارة المنسوجات الحريرية بسبب تربية دودة القز في بيزنطة منذ منتصف القرن السادس الميلادي (٢) .

وقد جاء في عدة مواضع من الشاهنامه للشاعر الايراني الفردوسي ذكر التحف الواردة من الصين . من ذلك اشارة الى جارج أسود ، كان أكرم الجوارح على

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٨ - ١٣

(٢) راجع الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ، ص ٧ ،

س E. Diez : Die Kunst der islamischen Völker, XVII

الملك بهرام ، وكان الخاقان ملك الصين قد أهداه اليه « مع جملة من الهدايا والتحف وسائر ما يجلب من أرض الصين »^(١) .

والراجع أنه حتى القرن الثاني بعد الميلاد كانت الصين تتصل مباشرة وبواسطة البر بالبلاد التي في غربى آسيا ، خصوصا ايران وكانت علاقتها بروما وبيزنطة علاقة غير مباشرة . ولكن التجار الرومان واليزنطيين جهدوا بعد ذلك في انشاء رابطة مباشرة مع تجار الصين بحرا في القرن الثاني الميلادى .

وكانت موانئ الشام ومصر هي طريق الاتصال بين الرومان واليزنطيين من جهة ، وبين الصين من جهة أخرى . وذلك عن طريق البحر الأحمر وخليج فارس ومالابار وسرنديب وسومطرة وملقا وتونكين ، ومن ثم الى أقرب المرافئ بجنوبى الصين . وتعرف مصر في المراجع الصينية باسم بلاد « هاى سى » أى بلاد غرب البحر ، وكان نهر النيل معروفا عند الصينيين كذلك ، وكانت الاسكندرية معروفة لديهم باسم « كسند »^(٢) .

ومما يبين اتصال مصر بآسيا الوسطى والأقاليم الغربية من الصين الزخارف القبطية التى ترى على قطعة من جلد كتاب عثرت عليه فى مدينة خوتشو ، البعثة العلمية الألمانية التى قامت بالتحفائر فى طرفان وغيرها من المراكز الفنية فى بلاد التركستان الصينية ، كذلك لوحظ أن بعض الرسوم والتزويق البوذية فى طرفان عليها مسحة مصرية قديمة ، مما يمكن تفسيره بأن أولئك الفنانين فى غربى الصين وصلهم شئ من الفن المصرى القديم^(٣) .

وتشهد الكتابات الأثرية والوثائق التاريخية بازدهار التجارة بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة ، وتعددت السلع التى كانت تنقل من أسواق الصين

(١) انظر كتاب الشاهنامة (طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام) ج ٢ ص ٨٨ ،
والدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢١ - ٢٢
(٢) انظر :

Hirth (F.) and Rockhill (W.) : Chau Ju - Kua
(St. Pctersburg, 1911) p. 5

Hirth (F.) : China and the Roman Empire
pp. 175, 180—181 (Leipzig 1885)

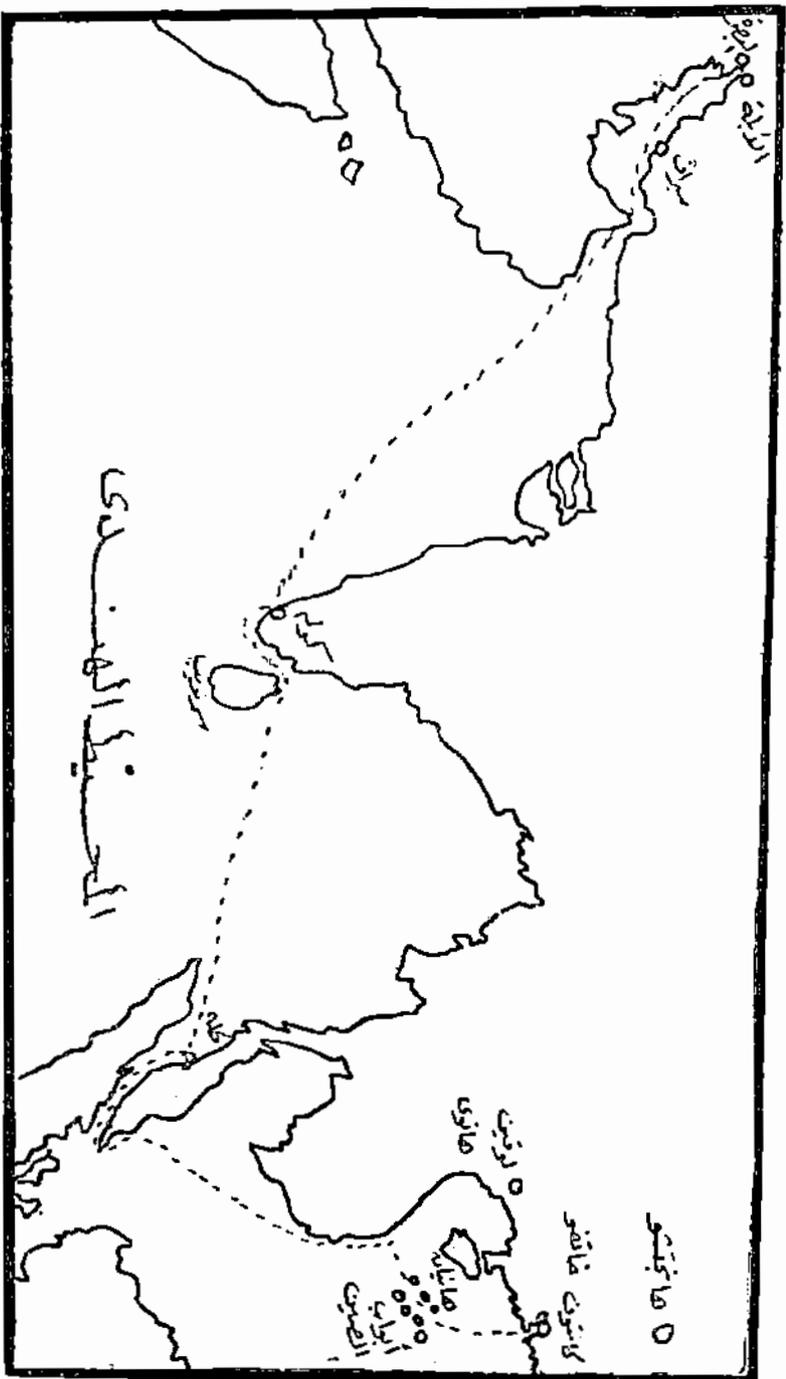
وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٢ - ١٤
(٣) انظر الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٧ - ٨ وما
ذكره من مراجع وما اشار اليه من أشكال .

والهند وبلاد العرب والحبشة وافريقية الشرقية الى بلاد الشام ومصر والامبراطورية الرومانية . والمعروف أن الطرق التجارية الأساسية بين الشرق والغرب في العصور القديمة والعصور الوسطى كانت ثلاثة ، فكان هناك الطريق البرى الذى كان يأتى من الصين الى نهر أكسوس (جيحون) ويلتقى بالطريق البرى الذى يسير فى الجبال من الهند الى نهر جيحون ، ويتفرع بعد ذلك عند بخارى أو سمرقند ، ويؤدى فرع منه الى شمالى بحر قزوين ثم نهر الفلجا ، ويسير الثانى الى جنوبى بحر قزوين فالبحر الأسود عند طرايزون والقسطنطينية ، وكان هذا الطريق يعبر الجبال العالية والمسافات الطويلة ، فلم يكن يصلح الا لنقل السلع الصغيرة الحجم والغالية الثمن .

أما الطريق الثانى فكان بحريا فى جزء كبير فكانت السفن تأتى من الصين والهند الى اليمن مباشرة أو الى عمان حيث تنقل السلع بالقوافل الى اليمن ، وكان من عيوب هذا الطريق المسافة الطويلة التى كان على السفن أن تجتازها فى عرض المحيط الهندى من ساحل الهند الى البحر الأحمر . وقد أمكن التغلب على هذا العيب حين كشف الملاحون امكان الافادة من الرياح الموسمية ، وكانت السفن التى لا تفرغ السلع فى اليمن بل تتقدم فى البحر الأحمر تلاقى صعوبة كبيرة فى الملاحة فى هذا البحر ، وكان علاج هذا أن تتجنب السفن الملاحة فى القسم الشمالى من هذا البحر ، وأن تتجه الى بعض الموانئ المصرية الواقعة فى غربى البحر الأحمر مثل برنيقة Berenice مقابل مدينة أسوان ، وذلك فى العصور القديمة ومثل عيذاب فى العصر الاسلامى . أما أقدم هذه الطرق وأعظمها شأنًا فكان الطريق الأوسط بين الطريقين السابقين ، وكان الجزء البرى فيه يبدأ عند الخليج الفارسى (أو خليج البصرة أو الخليج العربى) أو من احدى المدن على دجلة أو الفرات ثم تنقل البضائع بطريق الصحراء الى دمشق ، ومنها الى موانئ الشام على البحر المتوسط أو الى مصر .

ونحن نعرف أنه بعد وفاة الإسكندر الأكبر المقدونى سنة ٣٢٣ ق.م ، قام النزاع بين خلفائه ودامت الحروب الأهلية بينهم نحو أربعين عاما ثم تخضعت عن استقرار الحكم لثلاثة من قواده هم : بطليموس الذى أسس دولة البطالمة فى

خريطة تبين الطريق البحري إلى الصين من الأبله وسيلوف إلى كاتوف



مصر وأتيجونوس Antigonus الذى حكم فى مقدونية وبلاد اليونان ، وسلوقس Seleucus الذى أسس دولة السلوقيين فى الشام وبلاد الرافدين وإيران ، ولكن نفوذ السلوقيين لم يلبث أن زال عن إيران وضعف اهتمامهم بالجزء الشرقى من إمبراطوريتهم ، ثم انتهى نفوذهم فى العراق نحو سنة ١٣٥ ق.م وأصبح مقصورا على الشام ، وكان ذلك بسبب قيام دولة إيرانية نحو سنة ٢٥٠ ق.م تسمى دولة البارثيين أو الفريثيين Parthians قامت فى هضبة إيران ، ثم مدت نفوذها الى العراق وظلت تحكم الى أن خلفتها الدولة الساسانية سنة ٢٢٦ بعد الميلاد . كما أن الحاميات اليونانية فى وادى سيحون وجيحون فى بلاد التركستان لمست ضعف العناية التى يوجهها السلوقيون الى هذا الاقليم ، فاستقلت نحو سنة ٢٦٠ ق.م وأسست دولة صغيرة هى دولة بكتريا Bactrea (أو دولة البخت) ومدت سلطانها الى الأقاليم الشمالية الغربية من الهند واستطاعت أن تعيش على احتكار التجارة الواردة من الصين وآسيا الوسطى ولكنها لم تستطع الصمود أمام ضغط البارثيين فسقطت فى القرن الثانى قبل الميلاد .

وعمل ملوك البارثيين فى إيران والعراق على تحويل جزء كبير من تجارة الهند والصين الى الطرق البرية والى طريق الخليج الفارسى ، ولكن التجار اليونان فى مصر والشام عملوا على تنشيط التجارة مع الشرق بطريق البحر الأحمر ، وعنى البطالمة فى مصر بتشجيع التجارة بين الموانئ المصرية على البحر الأحمر والبحار الجنوبية وأصلحوا الطرق بين وادى النيل والموانئ المصرية على البحر الأحمر ، كما أصلحوا القناة التى كانت تصل الفرع البلوزى^(١) من فروع النيل فى الدلتا بالبحيرات المرة وخليج السويس ، وشيدوا السفن التى كانت تسير فى البحر الأحمر الى خليج عدن حيث تلتقى بالملاحين والتجار من العرب الجنوبيين والهنود . ولما تم استيلاء الرومان على الشرق الأدنى نحو سنة ٣٠ ق.م زادت العناية بتجارة الشرق وظل التنافس قويا بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الايرانية فى السيطرة على التجارة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط .

(١) نسبة الى مدينة بلوزيوم Pelusium القديمة او الفرما على البحر المتوسط شرقى بور سعيد الحالية .

وفي بداية العصر الروماني كانت سيطرة العرب الجنوبيين على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر من القوة بحيث استطاعوا الاحتفاظ باحتكار الوساطة بين التجار القادمين من مصر أو موانئ البحر المتوسط ، والتجار القادمين من الشرق ، فكانوا يمنعون كل فريق من أن يجاوز خليج عدن للاتصال رأسا بالفريق الآخر ، فكانت البضائع تخزن في الموانئ العربية ، ثم يتولى التجار العرب نقلها ، ولكن الرومان لم يصبروا طويلا على هذه الوساطة فسيروا السفن يحرسها الجنود .

ويبدو أن البحارة العرب كانوا يستخدمون الرياح الموسمية في الملاحة من خليج عدن الى الساحل الهندي ، ولكن الاستعانة بهذه الرياح لم تكن معروفة للملاحين الرومان قبل منتصف القرن الأول الميلادي ، فلما فطنوا إليها قضى ذلك على سيطرة العرب الجنوبيين على التجارة بين الشرق والغرب ، ونمت التجارة بين مصر (التابعة للرومان) والهند رأسا . والظاهر أيضا أن الملاحة البحرية لم تكن منظمة قبل عهد الساسانيين ^(١) .

ومنذ القرن الخامس الميلادي تقدمت الملاحة بين غربي آسيا وشرقيها على يد ملاحين من الهنود والعرب والفرس والصينيين ، وأدى ذلك الى الملاحة في عرض المحيط من جزيرة سرنديب الى ملقا (الملايو) وجاوة والموانئ الجنوبية في الصين وكانت النتيجة لزوال احتكار العرب لتجارة الشرق ان ضعف شأن الموانئ التجارية في شبه الجزيرة مثل عدن وجرّة (الجرعاء) ثم دب الاضمحلال الى بلاد اليمن .

وقد اتسعت التجارة بين الصين والهند ، وبين موانئ البحر المتوسط في القرن السادس الميلادي بطريق سرنديب (سيلان) وزاد اتساعها في القرن السابع الميلادي ، وأصبح ثغر سيراف على الخليج الفارسي مركزا لتوزيع البضائع الصينية في ايران وبلاد العرب ، وقد ذكر المسعودي أن سفن الصين والهند كانت ترد في نهر الفرات الى ملوك الحيرة ^(٢) . ويروي البلاذري ^(٣) أن عتبة بن غزوان

(١) Hadi Hassan : A History of Persian Navigation (London, 1928) p. 54

(٢) المسعودي : مروج الذهب (طبع مصر سنة ١٣٤٦ هـ) ج ١ ص ٦٢ ،

الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الاسلام . ص ٧

(٣) فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٩ هـ و ١٩٠١ م) ص ٣٤٩

حين فتح الأبله^(١) كتب الى عمر بن الخطاب يعلمه ذلك ويخبره أن الأبله فرضة البحرين وعمان والهند والصين .

وقد ذكر المسعودي^(٢) أن خالد بن الوليد حين فتح الحيرة زمن أبي بكر ، خاطب عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني وقال له : ماتذكر؟! قال : «أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون» .



وكان أقدم اتصال سياسى بين الصين والشرق الاسلامى بطريق البر ، اذ أن يزدرج كسرى فارس فر بعد انتصار العرب فى موقعة نهاوند الى الصين ، وكان فراره نذيرا للامبراطور الصينى « تانغ تائى جونغ » بتقدم القوة الجديدة الناهضة من بلاد العرب نحو الشرق الأقصى ، ويظهر من المراجع الصينية أن امبراطور الصين كان يعطف على آخر الورثة لعرش الأكاسرة ، فوعده بأن يمهده باعانات عسكرية ولوازم حربية ، وكان لهذا الوعد أثر بالغ فى نفس يزدرج ، اذ رجع مع جماعة من عساكر التتار الذين كانوا يعترفون بسلطة امبراطور الصين أملا بذلك أن يستعيد سلطانه وأملاكه التى استولى عليها العرب^(٣) غير أن يزدرج لم يتح له فرصة الاشتباك ثانية مع العرب ، اذ غدر به أهل مرو ، وقتل فى سنة ٣١ هـ (٦٥١ م)^(٤) .

وتذكر المصادر العربية أن فيروز بن يزدرج كتب الى امبراطور الصين

(١) الأبله ، بضم اوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة ، وهى اقدم من البصرة ، لان البصرة مصرت أيام عمر بن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان - الطبعة الاولى - طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ - ج ١ ص ٨٩ - ٩٠)

ويقول جلازر ان Apologus أبو لوجوس هى الأبله عند العرب و Ubulum فى النقوش الاكادية ، ولم تكن بعيدة عن مدينة المحمرة وهذه تبعد نحو ٧٥ كم . م عن شاطئ الخليج الفارسى . انظر (Glaser (E. : Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens (Berlin 1890) vol. 2 pp. 188-189)

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٦٢

(٣) انظر : بنز الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين

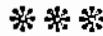
ص ٢٣ - ٢٤

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٣ - ٣٢٤

يسأله المساعدة في صد غارة العرب الذين فتحوا بلاده ، ولكن امبراطور الصين أبى أن يقدم اليه المدد العسكرى المطلوب محتجا ببعث الثقة^(١) .

أما المصادر الصينية فتذكر أن امبراطور الصين « تانغ كاوجونغ » (تانج كاوتشونج) الذى ارتقى عرش الصين بعد أبيه « تانغ تائى جونج » رحب بفيروز ابن يزدجرد وأسكنه في عاصمته . وكان لفيروز ابن باسم جده أى يزدجرد ، وكان في نية « تانغ كاوجونغ » أن ينصبه ملكا على ايران بعد وفاة فيروز ، لكنه فشل في محاولته لأن العرب كانوا قد تقدموا في آسيا الوسطى وتمكن حكمهم فيها ، فضلا عن بعد المسافة وعدم انتظام المواصلات ، فاكتفى امبراطور الصين بالانعام عليه بلقب « ملك ايران » وولاه ولاية من ولايات تركستان التى كانت جزءا من مملكة جده^(٢) .

وقد قيل في هذه المناسبة ان امبراطور الصين من أسرة « تانج » أرسل الى المدينة مندوبا من قبله للدفاع عن قضية فيروز ، وليتبين قوة الجماعة الاسلامية الفتية ، وقيل أيضا أن الخليفة عثمان بن عفان أرسل أحد قواد العرب لمرافقة السفير الصينى في عودته سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م) وان امبراطور الصين أكرم وفادة هذا القائد ، ويعتقد بعض المؤرخين أن دخول الاسلام فى الصين بدأ منذ ذلك الحين^(٣) .



وبالرغم من الاختلافات حول تاريخ وصول الاسلام الى الصين ، وأول من جاء بهذا الدين إليها ، فأكبر الظن أن وصول الاسلام الى الصين بحرا كان أسبق من وصوله برا ، وذلك على يد التجار الذين ساروا فى الطريق البحرى الذى كانت تتبعه السفن التجارية .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٦٤ ، ج ٥ ص ٧٣ (الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية) .

(٢) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين . ص ٢٢ - ٢٣
(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٩ ، محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٦٠ ، ١٨٠ .

وتؤكد المصادر الصينية وصول وفد رسمي من العرب الى عاصمة الصين في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م) بطريق البحر ، وقد يكون دخول الاسلام فيها بعد وصول هذا الوفد (١) .

وفي عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ = ٧٠٥ - ٧١٥ م) بدأت مرحلة جديدة في العلاقات السياسية والدبلوماسية بين العرب والصين . اذ بلغت الدولة الأموية في عهد هذا الخليفة الذروة في التوسع شرقا وغربا . وقد زحف القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي الى آسيا الوسطى بأمر من والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي . فقاد قوة جديدة من العرب الى خراسان ، وكانت له فيها حروب وفتوح ، ثم عبر نهر جيحون (Amudarya Oxus) وحارب أتراك ما وراء النهر الذين لم يكونوا قد خضعوا بعد لحكم العرب ، برغم هزيمتهم قبل ذلك على يد قواد قبله . وقد أعز الله قتيبة بفتح سر قند التي كانت مليئة بالمعابد الوثنية وكان له الفضل في انشاء أول مسجد هناك ، وفي تحطيم أصنامها ، وأعقب قتيبة ذلك النصر بفتح بخارى وتأسيس جامع معروف باسم « جامع قتيبة » لا يزال باقيا الى يومنا هذا . وتوالت انتصارات هذا البطل العربي في اقليم ما وراء النهر فعزا بيكند ، وكش ، والشاش (طشقند اليوم) ، وفرغانة ، وأشروسنة (٢) . ثم فتح قتيبة كاشغر في التركستان الصينية ، وهي أقرب المدن الى الصين (٩٦ هـ = ٧١٥ م) ، وأرسل الى امبراطور الصين « يوانغ جونغ » وفدا مع رسالة يطلب منه الطاعة والجزية (٣) . وقد ذكرت المصادر العربية أن ملك الصين قال لهبيرة بن مشمرج الكلابي زعيم الوفد العربي « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه » فأجاب هبيرة : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟! وكيف يكون

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٥٨ - ١٥٩ ،

Bretschneider : On the knowledge possessed ... pp. 9 & 46

واقرا عن انتشار الاسلام في الصين مقال الأستاذ « هارتمان » في دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الصين » Hartmann

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٦ - ٤٢٨

(٣) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٧

حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ ! وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا
أجالا اذا حضرت فأكرمها القتل !! فلسنا نكرهه ولا نخافه » قال : « فما الذى
يرضى صاحبك ؟ ! قال : « انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختم
ملوككم ويعطى الجزية » قال : « فانا نخرجه من يمينه ، نبعث اليه بتراب من تراب
أرضنا فيطأه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها »
« فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من
أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا ، فقدموا بما بعث به ،
قبل قتيبة الجزية وختم الغلطة ورددهم ، ووطىء التراب » (١) .

والواقع أن مجيودات قتيبة بن مسلم الباهلى العظيمة ، ومن جاء بعده من
القواد العرب زمن الأمويين جعلت اقليم ما وراء النهر يندمج بامبراطورية
الاسلام الناشئة . وكان ذلك فاتحة لاتصال العالم الاسلامى بأواسط آسيا
وبالجس التركى الذى اتيح له بعد ذلك أن يكون ذا شأن عظيم فى شؤون الدولة
الاسلامية ، وخاصة فى العصر العباسى ، كذلك كان لقتيبة بن مسلم ومجيوداته
الفضل فى أن تصبح بخارى وسمرقند واقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ،
ولنشر الاسلام فى آسيا الوسطى ، كما كانت مرو ، ونيسابور فى خراسان .

وقد زادت فتوحات قتيبة بن مسلم من الاتصال بين الدولة الاسلامية وبين
الصين فى أشكاله المختلفة سواء أكان سياسيا أو تجاريا أو دينيا أو فنيا أو ثقافيا .

والمعروف أن العرب حين فتحوا فرغانة فى اقليم ما وراء النهر وجدوا فيها
شيئا كثيرا من بدائع التحف الصينية . ولا غرو فان هذه الأقاليم تقع على مقربة
من حدود الصين ، وكان أهلها متصلين بالصين منذ العصور القديمة ، كما أن
صناعا من الصينيين كانوا بين الأسرى الذين وقعوا فى يد العرب حين فتحوا تلك
الأصقاع (٢) .

وقد ذكرت المراجع التاريخية أن قتيبة بن مسلم الباهلى رضى بهدية امبراطور
الصين ، اذ وصل اليه حينئذ خبر وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وبيعة أمراء

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك (حوادث سنة ٩٦ هـ) ج ٨ ص ١٠٠

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٩

دمشق لسليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان بن عبد الملك يحقد على قتيبة وغيره من الزعماء الذين استشارهم الخليفة الوليد في عزله عن ولاية العهد فوافقوا الخليفة على عزله . وقد تحقق ظن قتيبة إذ أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك يعزل قتيبة ، وما لبث قتيبة أن قتل .

وقد توقفت فتوحات العرب الى الشرق الأقصى بعد مقتل قتيبة وتخلصت الصين بذلك من غزو العرب لها . لكن الصين لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الاسلامى الذى كان ينتشر بسرعة الى أواسط آسيا مع الفتوحات . ومن الراجح أن بعض أهالى تركستان الصينية قد اعتنقوا الاسلام زمن قتيبة .

ولم تغفل المراجع الصينية القديمة الكلام عن حركة ظهور الاسلام وعن العرب ؛ والاسلام الذى أخذ يتقدم الى آسيا الوسطى والى الهند فى عصر بنى أمية^(١) . وكان من الذين أسلموا من أهالى آسيا الوسطى فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثامن الميلادى الأواغرة أو شعب أويغور ، أو الأويغوريون ؛ وهم فرع من التتار كانت لهم علاقات سياسية مع الصين بعد زمن قتيبة ، أى بعد توقف الفتح العربى فى الشرق ، وهم آباء المسلمين الصينيين^(٢) .



وتشهد المصادر الصينية بوجود جموع من المسلمين فى الصين فى عهد أسرة « تانج » ، وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور . ولا عجب فقد كانت التجارة بين الشرق والغرب فى يد المسلمين الى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، وكان التجار المسلمون يبحرون من الخليج الفارسى الذى كانوا يسمنونه فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الخليج الصينى^(٣) ، ويعبرون المحيط الهندى مارين سرنديب (سيلان) وجزائر البحار الجنوبية الى أن يصلوا موانى الصين التجارية . وقد قل مجىء الصينيين أنفسهم

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٤٦ - ١٤٧

(٢) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣٠ - ٣١ ،

(٣) Ph. Walter Schulz : Die persisch-islamische Miniaturmalerei الجزء الأول

الى الخليج الفارسي منذ بداية القرن التاسع الميلادي وزاد سفر العرب الى البحار الجنوبية (١).

والواقع أن هذا الطريق البحري الذي يمتد من الخليج الفارسي الى موانئ الصين كان أول طريق استعمله الانسان بانتظام قبل التوسع الأوربي في القرن السادس عشر الميلادي . ولا تنسى أن الفضل في قيام وازدهار تجارة بحرية بين الخليج الفارسي والصين في العصر الاسلامي يرجع الى قيام امبراطوريتين عظيمتين على طرفي الطريق . فقد كان العالم الاسلامي زمن الأمويين يمتد من اسبانيا وجنوب فرنسا الى حدود الصين (٤١ - ١٣٢ هـ = ٦٦١ - ٧٤٩ م) .

وظل العالم الاسلامي متحدا قويا بعد ذلك حوالي قرن أو يزيد تحت ظل الخلفاء العباسيين فيما عدا اسبانيا وشمال أفريقيا (١٣٢ - ٢٥٧ هـ = ٧٥٠ - ٨٧٠ م) .

أما في الصين فقد ملكت أسرة تانج ٦١٨ - ٩٠٦ م على امبراطورية متحدة حتى آخر أيامها .

ونلاحظ أيضا أنه قد أتيج للعرب لفتح السند على يدي قواد الحجاج بن يوسف الثقفي بعد سنة ٩٢ هـ = ٧١٠ م الاستيلاء على ميناء الديبل (٢) والمنصورة (٣) الهامين ، وبذلك اقتربوا من الشرق الأقصى .



وقد ذكرت المراجع الصينية أن سفارة بعثت من دمشق في سنة ٩٨ هـ = ٧١٦ م من قبل أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لتقديم الهدايا الى امبراطور

(١) راجع (W. Heyd : Histoire du Commerce du Levant (Leipzig 1923) ص ٢٩

ج ١

(٢) الدبيل عند مصب نهر السند ، ولا يعرف مكانها على وجه التحديد (انظر مادة « ديبيل » في دائرة المعارف الاسلامية) ، أما ياقوت فيقول انها مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند (معجم البلدان ج ٤ ص ١١٨) .

(٣) قد تكون المنصورة هي حيدر باد على نهر السند الآن . انظر

H. M. Elliot : The History of India

(لندن ١٨٦٧ م -) الجزء الأول ص ٣٦٩ - ٣٧٤ ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « المنصورة » .

الصين . وقد حملت هذه السفارة معها عبااءات منسوجة بخيوط من الذهب ،
وعطور وعقيق وأشياء نفيسة غير ذلك ، وقد وصف أعضاء هذه السفارة بلادهم
وقدموا بيانا كافيا عنها ، وأنعم امبراطور الصين على السفير برتبة الفارس من
الدرجة الأولى ، ثم ودعه باحترام كبير واکرام عظيم^(١) .



وكان الصينيون يطلقون على العرب كلمة « تاشى » ، وقد تكون هذه الكلمة
معرفة عن كلمة « تاجر » العربية ، ذلك لأن معظم العرب الذين دخلوا الصين
كانوا تجارا ، وقد تكون كلمة « تاشى » منقولة عن كلمة « تازى » الفارسية
التي يطلقها الفرس على العرب^(٢) أما كلمة « تازى » الفارسية فهي مأخوذة من
كلمة تاجك في البهلوية^(٣) .

ونحن نعرف من المراجع الصينية أن سبع عشرة سفارة وردت من العرب الى
عاصمة الصين زمن الأمويين ، وخمس عشرة زمن العباسيين^(٤) .

والمعروف أن هذه السفارات لم تكن كلها واردة من مقر الخلافة من دمشق
أو بغداد ، اذ أن كلمة « تاشى » كانت تطلق على كل العرب ، أو جميع سكان
الامبراطورية الاسلامية ولذا كانت السفارات من عاصمة الخلافة أو من أمراء
آسيا الوسطى وغرب الهند وبلاد ما وراء النهر . فمثلا نسمع عن سفارتين وردتا
الى الصين في سنة ١٠٧ هـ = ٧٢٥ م وكان « سليمان » رئيسا لهاتين السفارتين
وكان يرافقه ثلاثة عشر عربيا ، والراجح أن هاتين السفارتين لم تكونا الا من
منطقة قريبة من بلاد الصين ، لأن ورودهما في مدى شهرين لا يمكن أن يكون
من دمشق الى « جانغ آن » عاصمة الصين ، ويظهر من تاريخ العرب في آسيا
الوسطى أن « سليمان » هذا هو « سليمان بن أبى السارى » الذى اشترك في
محاصرة بلد « خجند » القريبة من كاشغر تحت قيادة سعيد بن عمر الحراشى ،

(١) E. Bretschneider : On the knowledge possessed p. 61

(٢) محمد توضع : الصين والاسلام ص ٦٣

(٣) انظر هرتمان M. Hartmann في مقال China في دائرة المعارف الاسلامية
ومما ذكره ان الصيغة الفارسية مأخوذة من Tāyāyē « عرب طييء » في الأرامية .

(٤) بدر الدين حى الصين : العلاقات بين العرب والصين ص ١٨١

وكان ذلك في سنة ٧٢٢ م ، ولعل أسد بن عبد الله بعثه الى الصين في سنة ٧٢٥ م / ١٠٧ هـ (١) .

كذلك وردت الى الصين سفارة في سنة ١١٥ هـ = ٧٣٣ م من قائد عربي اسمه « جنيد » ، وكان « جنيد » من بين الذين اشتركوا في فتح بخارى وسمرقند للمرة الأخيرة تحت امارة نصر بن سيار في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي . ويرى الأستاذ « جب » Gibb أن جنيدا اتصل بأمبراطور الصين في آخر عهده بسمرقند في سنة ١١٥ هـ = ٧٣٣ م . ويظهر من اسم رئيس هذه البعثة وهو « مسلم ترخان » أن أصله من الترك (٢) .

كذلك نرى أنه بعد أن ستقر نصر بن سيار في سمرقند بعث عدة سفارات الى الصين في سنة ٧٤٤ م / ١٢٧ هـ ، ٧٤٥ م / ١٢٨ هـ ، ٧٤٧ م / ١٣٠ هـ ، وذلك لأنه شعر أن حكومة ما وراء النهر تحتاج الى تدعيم من الطبقات المتوسطة خصوصا طبقات التجار والمزارعين ، وقد أراد نصر تنظيم العلاقات التجارية بين تلك البلاد وبين الصين (٣) .

وقبل زوال الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ = ٧٤٩ م فر بعض الشيعة في خراسان من الاضطهاد ، وأقاموا في جزيرة بأحد الأنهار الكبيرة في الصين تجاه أحد الموانئ ، وقد ذكر هذه الرواية المرزوقى في القرن السادس الهجرى (حوالى ٥١٤ هـ) ، والثاني عشر الميلادى (حوالى ١١٢٠ م) ، ويصف المرزوقى (٤) الجالية بأنها كانت لا تزال قائمة ، وانها كانت تشتغل بالوساطة في التجارة بين أهل الصين والأجانب .

(١) انظر Gibb : The Arab Conquests of Central Asia pp. 63, 67.

(٢) Gibb : Ibid p. 79.

(٣) Gibb : Ibid p. 92.

(٤) انظر المرزوقى Al-Marwazi (Sharaf al-Zaman Tahir) : On China, the Turks & India, ed. V. Minorsky نشره ف . مينورسكى (لندن ١٩٤٢ م) الفصل الثامن ،

وتسجل لنا أيضا الكتابات الاباضية المتأخرة نقلا عن مصادر وثيقة رحلة تاجر اباضى الى الصين حوالى منتصف القرن الثامن الميلادى ، وكان يدعى ابا عبيدة ، ويرجع أصله الى عمان ، وقد اشترى في الصين بعض خشب الند (١) والمعروف أن منطقة ما وراء النهر كان يسود فيها القلاقل ، وعدم الاستقرار منذ مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى ، وذلك بسبب الخلاف الذى ظهر بين القواد من ناحية وبين القبائل العربية من ناحية أخرى ، واشتد هذا الخلاف في آخر عهد بنى أمية ، وقد سعى الصينيون الى تقوية نفوذهم في بعض مدنها ، وكان طمع الصينيين في وضع يدهم على اقليم الشاش فيما وراء النهر هو الذى دفعهم الى الاصطدام مع قوات العرب هناك ، اذ اشتبكت القوات الصينية بقيادة «كاوشيان كى» ضد «زياد بن صالح» الذى كان قد بعثه أبو مسلم الخراسانى لقمع ثورة شريك بن المهدي هناك ، وقد انتصر العرب على الصينيين في «تالاس» في سنة ١٣٤ هـ / ٧٥١ م .

وكانت هذه المعركة فاصلة للعرب ضد الصينيين ، اذ لم يشتبك الصينيون بعدها ضد العرب صراحة ، وان كان يظهر من تاريخ الصين أن الصينيين ساعدوا أحيانا بعض الأمراء الترك في نزاعهم ضد العرب ، كذلك أدى انتصار العرب على الصينيين في واقعة تالاس الى سيطرة المدينة العربية الاسلامية على آسيا الوسطى بعد أن كانت تتنازع تلك المنطقة المدينة الصينية من ناحية والمدينة العربية الاسلامية من ناحية أخرى (٢) .

وقد ذكر الثعالبي (٣) أن الصينيين الذين وقعوا أسارى في أيدي العرب

(١) انظر T. Lewicki : Les premiers commerçants Arabes en Chine في مجلة

Rocznik Orientalistyczny vol. 11 (1935) pp. 173—186.

وانظر أيضا Kuwabara (J.) : On P'u Shou-Kêng; Memoirs of the Research Department of the Tokyo Bunko, No. 2 (1928) pp. 1—79.

(٢) انظر : بدر الدين حى الصبنى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣٥

(٣) انظر : لطائف المعارف (طبعة دى يونغ في ليون سنة ١٨٦٧ م)

ص ١٢٦ وانظر W. Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion (لندن ١٩٢٨ م)

ص ١٩٦

علموا أهل سمرقند صناعة الورق فانتشرت هذه الصناعة في البلاد الإسلامية الأخرى بعد ذلك .

وتذكر المراجع المختلفة أن ثورة قامت زمن الامبراطور الصيني « يونغ جونغ » ففر هذا الامبراطور تحت ضغط الثوار . وولى العرش ابنه « سوتسونج » وذلك في سنة ٧٥٥م / ١٣٨ هـ . وتقول بعض المراجع الصينية أن هذا الامبراطور طلب من الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي أن يظهره على خصمه ، فلبى المنصور طلبه وأرسل اليه فرقة من الجنود العرب استطاع بوساطتها أن يسترد سلطانه وأن يستولى على عاصمته الغربية وهي « شانغ آن » وعاصمته الشرقية وهي « لويانغ » ولعل أبا جعفر المنصور لم يرسل الجند من عاصمته حينذاك ، وإنما طلب من بعض ولاة ما وراء النهر أن يرسلوا نجدة الى امبراطور الصين ، كذلك ساعد الامبراطور الصيني حينذاك شعب الأواغرة . وبعد أن قمعت الثورة في الصين سنة ٧٥٧ م / ١٤٠ هـ ، عاد من عاد ، وأقام من فضل الإقامة . وقد فرقه الامبراطور في المدن العظيمة وسمح لهم بالتزوج من بنات الصين ، ومنذ ذلك الحين ازدادت الصلات توثقا بين أسرة تانغ والأواغرة ، كما كثرت السفارات بين الصين والبلاد العربية (١) .

وتؤكد المصادر التاريخية أن العلاقة السياسية والدبلوماسية بين الخلفاء العباسيين والصينيين كانت أقوى وأوثق مما كانت عليه زمن الخلفاء الأمويين . وكان من أهم السفارات تلك التي كانت من قبل أبي العباس السفاح رأس الدولة العباسية ، وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد . وقد سجل تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين في نصف قرن بين ٧٥٠ م ، ٨٠٠ م / ١٣٣ هـ ، ١٨٤ هـ . ولم تفصل أغراض هذه السفارات فيما عدا أنها جاءت الى الصين لزيارات ودية أو لتقديم الهدايا . ولعل معظم هذه السفارات كان لتحسين العلاقة

(١) أنظر P. de Thiersant : Le Mahométisme en Chine ج ١ ص ٧٠ - ٧١ ،
Th. Arnold : The Preaching of Islam ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ، وبدر الدين حى الصينى :
العلاقات بين العرب والصين ص ٣٦ - ٤٤

التجارية بين العرب والصين ، وقد كانت السفارات التي جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء (١) .

والواقع أن تولى العباسيين الخلافة كان قوة جديدة دفعت الى الأمام التجارة البحرية الواردة الى الخليج الفارسي والصادرة عنه ، وذلك لانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد فضلا عن اتساع التجارة زمن العباسيين اتساعا كبيرا .

ونحن نعرف أن بغداد نمت نموا عظيما وأصبحت المدينة التجارية الأولى في الشرق ، وكان هذا من شأنه تنشيط التجارة بين موانئ الخليج الفارسي الى الشرق الأقصى . وكانت الأبله وسيراف (٢) أهم موانئ السفن البحرية ، ولكن السفن النهرية كانت تستطيع نقل السلع الى بغداد . فكان الحال كما يذكر الخليفة أبي جعفر المنصور :

« هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ، يأتيها فيها كل ما في البحر (٣) » .

والمعروف أن الخلفاء العباسيين شجعوا على مزج رعاياهم العرب والفرس وغيرهم بعضهم ببعض في وحدة اسلامية لسانها العربية ، ولهذا نرى أن الوثائق العربية الخاصة بالتجارة البحرية مع الشرق الأقصى تذكر المسلمين والعرب أكثر مما تذكر الفرس الى حد بعيد . ونلاحظ أن آخر مرة يرد فيها ذكر الفرس Po-sse « بؤ - س » في الحوليات الصينية هي سنة ٧٥٨م / ١٤١ هـ ، وفي تلك السنة يرد الى جانبهم ذكر العرب Ta-shih تاشي (٤) .



وقد أشار الطبري الى بعض طرف الصين حين ذكر فتح مدينة كس من أعمال سمرقند على يد خالد بن ابراهيم والى بلخ سنة ١٣٤ هـ (٧٥١ م) فقال : « وفي

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين : ص ١٨٥ - ١٨٩ وما ذكره من مراجع .

(٢) يقول فران في بحثه Ferrand (g.) : L'élément Persan dans les textes nautiques في مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠٤ (أبريل - يونيه ١٩٢٤) ص ٢٥٦ - ٢٥٧ انها كانت في موضع قرية الطاهرة الآن .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٢٣٨

(٤) انظر Old History of the Tang الفصل ٢٥٨ ب : الترجمة الانجليزية في كتاب Hassan (H.) : a History of Persian Navigation ص ٩٧ - ٩٩

هذه السنة غزا أبوداود خالد بن ابراهيم أهل كس ، فقتل الأخرید ملكها ... وأخذ أبو داود من الأخرید وأصحابه حين قتلهم من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة التي لم ير مثلها ، ومن السروج الصينية ومتاع الصين كله من الديباج وغيره ، ومن طرف الصين شيئا كثيرا ^(١) .

وكان في بغداد منذ نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) سوقا خاصة لبيع التحف الصينية ، وقد كتب اليعقوبي ^(٢) في وصف بغداد : «وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عكر المهدي خمسة أقسام ، فطريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع ، وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير وهي معدن طرائف الصين » .

وفي المصادر الصينية نص تاريخي يشير الى وجود فنانيين صينيين بمدينة الكوفة في منتصف القرن الثامن الميلادي ، فان الكاتب الصيني « توهوان » كان في الأسر عند العرب سنة ٧٥١ م / ١٣٤ هـ ، وقد نجح في الهرب سنة ٧٦٢ م / ١٤٥ هـ ، ففر على سفينة تجارية الى كاتون ، ومنها الى موطنه سينجان فو ، وقد تحدث « توهوان » عن مدينة الكوفة في كتاب له ، وذكر أن صناعا من بني وطنه كانوا أسرى فيها وأنهم علموا الصناعات المسلمين نسج الأقمشة الحريرية الخفيفة وصناعة التحف الذهبية والفضية فضلا عن النقش والتصوير ^(٣) . وقد يكون هذا الكاتب مبالغا ولكن حديثه له مغزاه على كل حال .

وقد تحدث الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) في كتابه البخلاء ^(٤) عن أصدقاء زاروا رجلا عنده مائدة من حجر العقيق وآنية صينية مملعة .

وقد عثر في أبقاض مدينة سامراء على أنواع من الفخار والخزف الصيني الذي يرجع عهده الى أسرة تانج ^(٥) ، وفي القسم الاسلامي من متاحف الدولة في برلين مجموعة طيبة من هذا الخزف الصيني الذي عثرت عليه البعثة الألمانية في

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ١٥٠

(٢) كتاب البلدان (ليدن ١٧٩٢ م) ص ٢٥٣

(٣) انظر P. Pelliot : Des Artisans Chinois à la Capitale Abbasside en 750 — 762

في العدد ٢٦ سنة ١٩٢٩ م من مجلة Toung Pao ص ١١٠ — ١١٢

(٤) كتاب البخلاء (طبعة فان فلوتن) ص ٥٧

(٥) انظر F. Sarre : Die Keramik von Samarra

حفائر سامرا التي كانت عاصمة للعباسيين نحو خمسين عاما من القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي (٢٢١ هـ = ٨٣٦ م الى ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) (١) . وقد ذكر الأبيهي (القرن ٩ هـ ، ١٥٤ م) أن يعقوب بن الليث الصغار أهدى الى المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ - ٨٩٢ م) هدية في بعض السنين بينها عشرون صندوقا على عشر بقال « فيهم طرائف الصين وغرائبها » (٢) .

ومن المسلمين الذين زاروا الصين رحالة عربي اسمه « سليمان » لا نكاد نعرف شيئا عن ترجمة حياته ، ولكن وصف سياحته في الهند والصين وصل إلينا ، وقد كتبه في سنة ٢٣٧ هـ = ٨٥١ م . ولهذا الوصف ذيل وضعه في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مؤلف من سيراف اسمه « أبو زيد حسن » ، وقد اعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار في بحار الصين ، وقد طبعت هذه الرحلة سنة ١٨١١ م على يد المستشرق لانجلس Langlès ، ثم نشرها المستشرق رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥ م ، كما أتى بها المستشرق فران Ferrand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى ، والتي ترجمها الى الفرنسية وعلق عليها ونشرها في مؤلف من مجلدين (٣) .

وفي هذه الرحلة بيانات عن علاقة المسلمين بالصين في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر الميلادي) ، ومن هذه البيانات والأخبار أن مدينة خانفو (٤) وهي التي عرفت باسم « كاتون » ، والتي كانت مجعما للتجار ، كان فيها رجل مسلم « يوليه صاحب الصين الحكيم بين المسلمين الذين يقصدون الى

(١) انظر الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر (القاهرة سنة ١٩٣٥ م) ج ١ ص ٢٤ وما بعدها ، الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٠ - ٢١

(٢) انظر كتاب المستطرف في كل فن مستظرف ج ٢ ص ٥٤

(٣) Relation de Voyages et Textes Géographiques Arabes, Persans et Turcs Relatifs à l'Extrême-Orient de VIII au XVIII siècles, Traduits, Revus et Annotés par Gabriel Ferrand (Paris 1913 - 1914)

(٤) انظر مادة « خانفو » بدائرة المعارف الاسلامية ، حزين
Huzayyin (S.A.) : Arabia and the Far East (Cairo 1942) pp. 158 - 160.

تلك الناحية ... واذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسultan المسلمين^(١) .

وذكر هذا الرحالة « أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف ، وان المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها الى سيراف ، فيعبر في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلّة الماء في مواضع منه ... » ثم وصف بعد ذلك المحطات المختلفة التي تقف عندما السفن في طريقها الى الصين ، ومن الطريف أن سليمان السيرافي أول مؤلف غير صيني أشار الى الشاي ، فقد ذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب ، يشربه الصينيون في الماء الساخن ويبيع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه « ساخ »^(٢) . وما ذكره « سليمان » التاجر السيرافي في رحلته أن عند الصينيين الغضار^(٣) الجيد يصنعون منه أقداحا في دقة القوارير الزجاجية مع أنها من الغضار^(٤) .

وفي الذيل الذي كتبه « أبو زيد حسن » أحاديث طريفة عن علاقة المسلمين بالصين ، وبعضها يصعب تصديقه ، ومن ذلك حديث القرشي المسمى ابن وهب الذي ترك مدينة البصرة عند ما خربها الزنج ، وقام برحلة الى الصين نحو سنة ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م ، وزار بلاط ملك الصين وقال انه رأى فيه صور الرسل ومن بينها صورة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام راكبا جمل وأصحابه محققون به ، وقد أشار « المسعودي » الى هذه القصة في كتابه « مروج الذهب » في الفصل الذي عقده للحديث عن ملوك الصين ، وقد رجح المستشرق رينو Reinoud

(١) وفي بعض المصادر الصينية أن هذا النوع من الامتيازات الأجنبية امتد الى الجاليات الاسلامية الأخرى في الصين ، فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها . انظر :

Chau Ju-Kua : Chu-fan-chi translated from Chinese and annotated by F. Hirth and W. W. Rockhill (Petersburg 1911) pp. 16—17

(٢) انظر الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٥ م) ص ٢٥ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣١١

(٣) الغضار : الخزف .

(٤) راجع Voyage du marchand arabe Suleiman en Inde et en Chine suivi de remarques par Abu Zayd Hassan : Traduit par Ferrand (les Classiques de l'Orient vol. VIII) paris 1922 p. 54

أن أبا زيد حسن لقي المسعودي وتبادلا ما كانا يعرفانه عن الهند والصين والبحار الشرقية^(١) .

ومن أقدم الجغرافيين المسلمين الذين كتبوا عن الصين ابن خرداذبه ، وقد كان أبوه حاكما على طبرستان مدة طويلة ، ثم سافر ابن خرداذبة الى بغداد حيث كان صاحباً لديوان البريد ، وقد كتب مؤلفه المشهور « المسالك والممالك » في سامرا بين سنتي ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م و ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ، أى أن كتاب المسالك والممالك أقدم من كتاب سليمان التاجر السيرافي بنحو ثلاث سنوات ، وكل من الكتابين له قيمته الخاصة ، فكتاب ابن خرداذبة يتصف بالكتابة العلمية ، أما كتاب سليمان التاجر فهو مبني على مشاهداته وتجاربه في الصين التي سافر إليها مرارا ، والواقع أننا نجد ههما متفقين في أكثر الأشياء ومختلفين في بعض الأمور . وقد أشار ابن خرداذبة الى بعض شعور الصين وما يستورد منها ثم أجمل القول عن صادرات تلك الأقاليم فكتب :

« والذي يجيء في هذا البحر الشرقي من الصين ، الحرير والفرند^(٢) والكيخاو^(٣) والمسك والعود والسروج والسمور^(٤) والغضار .. الخ^(٥) .

(١) انظر ص ٧٧ وما بعدها من رحلة سليمان ، وانظر مقال الدكتور زكي محمد حسن : « السيرة في الفن الاسلامي » عدد مايو ١٩٤٠ م من مجلة المقتطف ، الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٢ Blochet (E.) : Musulman Painting (London 1929) p. 19.

(٢) الفرند : الحرير الملون تصنع منه الثياب .

(٣) الكيخاو : من اللغة الصينية « كمخا » بكسر الكاف ومعناها الدباج أو الحرير الصيني المنسوج بخيوط الذهب . وقد استخدم الايرانيون هذه الكلمة أيضا فكانوا يقولون كمخا أو كمخاب بفتح الكاف (انظر بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣١٠) .

(٤) السمور على وزن تنور دابة تتخذ من جلدها فراء ثميثة ، أو هي الفراء نفسها ، واسم هذه الدابة بالفرنسية martre وبالانجليزية sable وبالألمانية Zopel واسمها العلمي martes zibellina أو mustella zibellina (انظر هامش رقم ٤ من كتاب الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٠)

(٥) ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك (طبعة دى غوية) ص ٦٩ - ٧٠ .

وفي عصر بنى سامان (٢٦١ - ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ - ٩٩٩ م) بلاد ما وراء النهر كانت التجارة واسعة مع بلاد الصين ، وكان الاقبال على منتجاتها شديدا^(١) . ونعرف أن الأمير الساماني نصر بن أحمد (٣٠١ - ٥٣٣١ = ٩١٣ - ٩٤٢ م) أمر الشاعر الإيراني رودكى بنظم كليلة ودمنة ، ثم طلب بعد ذلك الى فنانيين صينيين أن يوضحوا مخطوطات الترجمة المنظومة بالصور ليطرب الناس بقراءتها^(٢) . والظاهر أن أولئك الفنانين الصينيين كانوا ملحقين ببعثة سياسية صينية جاءت لزيارة أمير بخارى^(٣) . والمعروف أن بلاد ما وراء النهر وبلاد التركستان كانت في عصر الدولة السامانية أزهر الأقاليم الاسلامية ، فكان بلاط أمرائها مجمع العلماء والأدباء والفنانين ، وذاع صيت بخارى وسمرقند في أنحاء العالم الاسلامي ولا ريب في أن بعض الصناع والفنانين من أهل الصين كان يقيم في تلك الأقاليم ويكسب عيشه بالعمل فيها ، وقد جاء ما يؤيد ذلك في يوميات راهب صيني سافر الى ايران بطريق آسيا الوسطى بين عامي ١٣٢١ و ١٣٢٤ بعد الميلاد (٦١٨ و ٦٢١ هجرية) اذ كتب عند الكلام على سمرقند « ان الصناع الصينيين كانوا يعيشون هناك في كل مكان »^(٤) .

وكتب ياقوت في معجم البلدان (مادة صين) أن ملك الصين أرسل سنة ٣٣١ هـ (٩٤٣ م) يخطب ود نصر بن أحمد الساماني ويطلب مصاهرته ، فقبل نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين ففتح هذا أمام التجار المسلمين الطريق الى الصين^(٥) .

ولا ريب في أن بنى سامان كانت صلتهم كبيرة ببلاط ملوك الصين مما سهل عليهم استخدام الفنانين من أهل الصين^(٦) . فضلا عن ذلك فان الطريق البري

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٤ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٢٥

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٤

(٣) انظر Blochet (E.) : Musulman Painting p. 45

(٤) انظر Bretschneider : Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources (London 1888) vol. I. p. 78

(٥) انظر : ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠٨ - ٤٠٩

(٦) انظر Blochet (E.) : Notices sur les manuscrits persans et arabes de la collection Marteau. Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale XII pp. 219 — 220

بين البلدين كان مطروقا (١) ، كما كانت تجارتهم مع تلك البلاد زاهرة (٢).
والواقع أن حكم الدولة السامانية وازدهار الأمن في بلادهم كانا أكبر مشجع
للتجار ، وحسبنا أن معظم النقود العربية التي كشفت في شمال أوروبا هي من
النقود السامانية .



ومما ذكره أبو زيد حسن ، في الذيل الذي وضعه لرحلة « سليمان التاجر
السيرافي » أن السفن القادمة من سيراف متجهة الى البحر الأحمر كانت اذا وصلت
جدة أقامت بها ، ونقل ما فيها من السلع الى مراكب خاصة تحمله الى مصر وتسمى
مراكب القلزم ، وذلك لأن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة في شمالي
البحر الأحمر ، وأشار أبو زيد الى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان ،
وذلك بسبب قيام ثورات فيها (٣) .

ويظهر أن المواصلات البحرية لم تكن متصلة تماما بين الصين والشرق الأدنى
في عصر المسعودي (القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي) فان السفن من
الجانين لم تعد تبحر الا حتى مدينة تسمى « كلة » (٤) في منتصف الطريق بين
البلدين ، وقد أشار المسعودي (٥) الى ذلك في حديثه عن رجل من التجار من
أهل مدينة سمرقند « خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى الى العراق ،

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٩٦

(٢) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion pp. 236—237

(٣) انظر : الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

ص ٢٥ ، الصين وفنون الاسلام ص ١٣

(٤) لعل « كلة » في ولاية كيدا Kedah بالملايو الآن ، وقد أيد هذا الرأي
ناشر كتاب بزرك ص ٢٢٥ - ٢٦٤ - انظر : بزرك بن شهريار الناخذاه الرام
هرمزي : كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزايره : نشر النص ب. ا. فان دير ليت
P. A. van der Lith وترجمة الى الفرنسية ل. مارسيل دفيك . L. Marcel Devic
(ليدن ١٨٨٣ - ١٨٨٦ م) ، ويرى Ferrand في بحثه L'élément Persan dans les textes

nautiques Arabes في مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠ (أبريل - يونيه ١٩٢٤م) ص ٢٥٤ ،
وفي دائرة المعارف الاسلامية مادة « كلة » أنها Kra « كرا » في سيام (تايلاند
الحالية) على الساحل الغربي لشبه جزيرة الملايو . وفي مادة Chine دائرة المعارف
الاسلامية أن « كلة » في مروج الذهب للمسعودي ليست « كلة بار » في ملقا ،
ولكن ميناء جال Galle في الطرف الجنوبي لسيلان .

(٥) مروج الذهب ج ١ ص ١٩

فحمل من جهازه وانحدر الى البصرة ، وركب البحر حتى أتى الى بلاد عمان ، وركب الى بلاد « كلة » وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك واليها تنتهي مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت ، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم ، وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة ، فلذلك كانت المراكب تختلف في المواضع التي ذكرنا الى ما هناك ، ولما عدم العدل وفسدت النيات ، وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعا في هذا النصف ، ثم ركب هذا التاجر من مدينة « كلة » في مراكب الصينيين الى مدينة « خانفو » .

كذلك أشار المسعودي ^(١) الى بعض أقوام السند يقال لهم « الميّد » ، وتحدث عن قرصنتهم فقال : « ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلم وغيرها كالكشوانى في بحر الروم » .

وقد ترك لنا الكاتب الصينى « شاويوكوا » Chau Ju Kua بعض البيانات الثمينة عن التجارة بين الصين والشرق الاسلامى في القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، وقد كان هذا الكاتب مفتشا للتجارة الخارجية في اقليم فوكين بالصين ، وكتب في نهاية القرن الثانى عشر الميلادى مؤلفا عن الأمم الأجنبية وتجارها مع بلاده . وعنوان هذا الكتاب Chu-fan-chi ، وقد ترجمه الى الانجليزية الأستاذان F. Hirth هرث و W.W. Rockhill روكهل ، ونشراه سنة ١٩١١ م بمدينة سنت بطرسبرج مع شروح وتعليقات من مراجع أخرى ، وصدره بمقدمة فيها موجز عن تاريخ التجارة بين الشرقين الأقصى والأدنى ، ذكرا فيه أن التجارة البحرية في العصور القديمة والعصور الوسطى بين مصر وايران والشام من ناحية ، والشرق الأقصى والهند من ناحية أخرى ، كان معظمها في أيدي العرب ، وكانوا يؤسسون منذ العصور القديمة محطات في أهم الموانئ التي يمرون بها .

(١) التنبيه والاشراف (طبع عبد الله اسماعيل الصاوى بالقاهرة سنة ١٩٢٨ م) ص ٤٩

وقد كتب ياقوت الحموى (توفى سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) في مادة «الصين» «... وتحت واسط بليدة مشهورة يقال لها الصينية، ويقال لها أيضا صينية الخوانيت.. ينسب اليها صيني.. منها الحسن بن أحمد بن ماهان أبو علي الصيني حدث عن أحمد بن عبيد الواسطي يروى عنه أبو بكر الخطيب وقال كان قاضى بلدته وخطيبها.... وأما ابراهيم بن اسحق الصيني فهو كوفي كان يتجر الى الصين فنسب اليها.. وقال أبو سعد وممن نسب الى الصين أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصارى الأندلسى كان يكتب لنفسه الصينى، لأنه كان قد سافر من المغرب الى الصين، وكان فقيها صالحا كثير المال.. ومات سنة ٥٤١.. ولهم صيني آخر لا يدري الى أى شىء هو منسوب وهو حميد بن محمد بن علي أبو عمرو الشيبانى يعرف بحميد الصينى..» (١).

والمعروف أن أمير بغداد، حين لقب بمالك الدولة في سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) بعث للخليفة أظافا كثيرة، كان منها ثلثمائة مبخر صيني. كذلك كان بين الكنوز الفنية التى جمعها خلفاء الفاطميين ووزراؤهم مقادير كبيرة من الخزف الصينى (٢).



ونعرف من المراجع المختلفة أن بلاد الصين دخلت منذ منتصف القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) فى عهد مملوء بالحوادث والاضطرابات التى قضت على أسرة تانج فى سنة ٩٠٦ م / ٢٩٤ هـ. وبعد ذلك تعاقبت على حكم الصين خمس أسر حاكمة قصيرة الحكم تعرف باسم «ووتاي» من ٩٠٧ - ٩٥٩ م / ٢٩٥ هـ - ٣٤٨ هـ.

ولم تترك هذه الأسر أى أثر فى حياة الصين الداخلية بل أصبحت البلاد مرة أخرى يسودها الانحلال والفوضى الى أن غلبت على الحكم أسرة جديدة هى أسرة سونج فى ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ، أعادت الأمن والطمأنينة الى البلاد. والواقع أن فترة الاضطرابات والاتقلابات فى تاريخ الصين والتى أشار اليها كما مر بنا أبو زيد السيرافى، والمسعودى قد قطعت صلة العرب بالصين نحو مائة سنة.

(١) ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠٨

(٢) أنظر: الدكتور زكى محمد حسن: الصين وفنون الاسلام ص ٢٢ وما

ذكره من مراجع.

ولهذا لا نجد في كتب الصين القديمة أى ذكر عن العرب الى الصين أو فى الصين بين سنتى ٨٥٠ و ٩٥٠ م / ٢٣٦ و ٣٣٩ هـ .

لكن مع ظهور أسرة سونج « سونغ » استؤنفت العلاقات السابقة بين بلاد الصين وبين العرب والمسلمين ، وأخذ تاريخ الصين يدون للمرة الثانية هذه العلاقات ، حتى اننا نرى ذكرا لخمس وعشرين سفارة قدمت من العرب بين سنتى ٩٦٠ م و ١١٤٠ م / ٣٤٩ و ٥٣٥ هـ ، وقد اختارت أغلب هذه السفارات طريق البحر كما كان أغلبها لتحسين العلاقات التجارية بين الصين والعرب ، وكانت السفارات التى من قبل التجار أكثر من التى من قبل الخلفاء^(١) .

وكان التجار المسلمون يشتغلون ببيع العطور والبضائع الواردة وبتصدير منتجات الصين ، وأثرى بعضهم ثراء كبيرا . فنذكر الكتب الصينية أن أهم السفارات هو ما ورد فى سنة ٩٩٤ م و ٩٩٥ م (٣٨٤ و ٣٨٥ هـ) ، أما تفاصيل هاتين السفارتين فى الكتب الصينية فانها تعطينا صورة صادقة عن الثروة الحقيقية التى اكتسبها بعض التجار العرب فى أسواق الصين فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى . ولم تكن هاتان السفارتان من خليفة بغداد وانما من تاجر عربى استوطن فى كاتون زمتا طويلا ، وكانت له مراكب تجارية ، وقد عرف اسمه فى الكتب الصينية باسم « بوهيم » ولعله ابراهيم بن اسحق ذلك التاجر الكبير الذى تقدمت الاشارة اليه ، والذى حدثنا عنه ياقوت فى معجم البلدان وذكر أنه كان يعرف بالصينى . وتذكر الكتب الصينية أنه لطول اقامته بالصين تعلم اللغة الصينية ، وأجاد الكتابة بها كأحد أبنائها العالمين بأسرار ودقائق اللغة^(٢) .

وقد أنشئ فى عهد أسرة « سونج » مسجد « تشينغ كينغ » أى « الطاهر » فى ميناء « تشون شو » وذلك فى سنة ١٠٠٩ م / ٤٠٠ هـ ، ولا يزال هذا الجامع موجودا الى الآن^(٣) . ويذكر المؤرخون الصينيون أن المسلمين فى عهد أسرة

(١) انظر محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٩ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٨٨ - ١٩٨

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٩١

(٣) انظر : محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٩

سونج كانوا متفوقين اقتصاديا ، وكان لهم موظفون هامون مثل مدير الجمرك المسلم المسمى « بوشوقينغ » (١) .

ولم ينقض نصف القرن الثاني عشر الميلادي (منتصف القرن السادس الهجرى) حتى أصبحت أسرة سونج لا تحكم الا الصين الجنوبية ، وكانت عاصمتها « هانج تشو » ، أما الصين الشمالية فقد غلب عليها قبائل من التتار الشرقيين عرفوا باسم جين ، كونوا مملكة « كين » المعروفة في تاريخ الصين قبل أيام المغول ، وقد اشتهرت هذه المملكة في الكتب العربية باسم « ما صين » وفي الكتب الفارسية باسم « ماچين » ، وهذه المملكة هي التي اتصلت بالدولة السامانية في أواسط آسيا ، وكانت عاصمتها بكين ثم « كاي فونج » (٢) .

وفي القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادي) ظهر المغول أو التتار على مسرح السياسة في الشرق ، وقد كتب عنهم المؤرخون الصين في حوادث القرن الأول الهجرى (السابع الميلادي) ولكن لم يستفعل أمرهم ويخرجوا الى أرض الاسلام الا في القرن السابع الهجرى (١٣ م) .

وفي عهد چنكيز خان استطاع المغول أن ينتزعوا بعض أجزاء من أقاليم الصين الشمالية ، أما بقية الأجزاء في هذه المنطقة فكانت لا تزال تحت حكم أسرة « كين » ، وكان لسقوط بكين على يد چنكيز خان عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، دوى عظيم في الممالك الاسلامية فزادت هيته في نفوس الجميع ، لكن چنكيزخان عاد الى منغوليا في سنة ٦١٣ هـ ، وبعد رحيله استعادت أسرة كين كثيرا من أملاكها المفقودة ، واستمرت امبراطوريتهم قائمة الى أن قضى عليها نهائيا في عهد من أسرة سونج لولا وفاته في سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) (٣) .

وكان الاويغوريون الذين يسكنون شمال شرقى تركستان الحالية قد دخلوا أوكتاي بن چنكيزخان . وكاد يتم خان المغول قضائه على حكام الصين الجنوبية تحت سلطة چنكيز خان منذ سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م . والايويغوريون كانوا أكثر

(١) المرجع السابق ص ١٠

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٩٨

— ١٩٩ محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١٠

(٣) انظر : الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول في التاريخ (دار القلم

— القاهرة ١٩٦٠) ص ٢٣ و ١١٩ - ١٢١

الأقوام التركية تمدنا ، كما كانوا واسطة الارتباط بين الإيرانيين والصين والهنود .
وفي سنة ٦١٥ هـ / تمت سيطرة المغول على جميع القبائل التركية التي كانت تخضع
للقرائطين ، وكان الأتراك القراخطايون يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو
المغولي تقع ما بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق ،
وكان شاطيء سيحون يكون حدا فاصلا بين ممالك القراخطايين وأقاليم الدولة
الخوارزمية ، وبذلك أصبح المغول يجاورون أملاك الخوارزميين وهم من أصل
تركي ويدينون بالاسلام ، وكانوا ذوى ثقافة عربية وفارسية ، أما دولتهم فكانت
تشمّل كل منطقة ما وراء النهر وایران تقریبا (١) .

وكان چنکيز خان قد قضى تقریبا على الدولة الخوارزمية قبل سنة ٦٢٠ هـ
(١٢٢٣ م) أما سقوط تلك الدولة فقد تم في عهد اوکاي ابن چنکيز خان في
سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) . وعند ما ولى منگو حفيد چنکيز خان حكم المغول في
سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ م صمم على فتح البلاد الم لم يتيسر فتحها من قبل ، فعهد
الى أخيه هولاکو بالقضاء على طائفة الاسماعيلیة في ایران واخضاع الخليفة
العباسی ، كما عهد الى أخيه قوبيلای بفتح اقليم الصين الجنوبية ، وقد بدأ
قوبيلای بانجاز هذه المهمة في سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

ولما أصبح خانا للمغول سنة ٦٥٨ هـ اتخذ مدينة بكين عاصمة له ، وتم له
الاستيلاء على بلاد الصين كلها في سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٨ م) وأسس هناك دولة
« يوان » التي حكمت مدة تسعين سنة (٢) .

أما هولاکو فإنه نجح في مهمته واستطاع أن يقضى على الاسماعيلیة في ایران ،
كما توج فتوحات المغول بالاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وأسس
في ایران أسرة الایلخان التي ظلت تحكمها الى سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) .

وهكذا نرى أن المغول أو التتار (التتر) كانت لهم بين القرنين السابع
والثامن بعد الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد) دولة واسعة الأطراف

(١) الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول في التاريخ ص ٥ - ٦ ، ٢٠ ،
٢١ ، ٢٤ - ٢٥

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٥ ، محمد تواضع ، الصين والاسلام
ص ١٠ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠١ - ٢٠٢

في آسيا ، فكانت الصين وإيران خاضعتين لحكم جملة أعضاء من بيت مغولي واحد . ومع أن أمراء الأسرة الأيلخانية وأتباعهم تذبذبوا بالحضارة الإيرانية ثم اعتنقوا الإسلام إلا أنهم لم يقطعوا أسباب العلاقة بينهم وبين المغول في الصين . على أن صلة أسرة الأيلخان في إيران بأسرة يوان في الصين لم يكن قوامها رابطة الجنس والقرابة فحسب ، بل زادت التجارة بين البلدين في عصر الأيرتق ، كما عظم نفوذ الصين الثقافي في إيران بفضل الموظفين والتراجمة والفنانين والصناع من الصينيين ، الذين قدموا من الشرق الأقصى وآسيا الوسطى ، وعملوا مع المغول في ملكهم الجديد (١) .

وقد جاء في كتاب جامع التواريخ للوزير رشيد الدين ، أن كثيرا من المصورين الصينيين قدموا إلى إيران في عهد هولوكو وغازان والجايتو ، كما انتشرت في دولتهم الكتب الموضحة بالصور الصينية . والمعروف أن هولوكو وخلفاءه كانوا يشملون رجال الفن برعايتهم ، بل كانوا حين يخربون المدن في حروبهم يعنون بانقاذ الفنانين والصناع ، وكان بعض أولئك الصناع يفلح في العودة إلى وطنه بعد العمل مع الصينيين والتأثر بأساليبهم الفنية (٢) .

والمعروف أن جموعا من المسلمين هاجروا إلى الامبراطورية الصينية بعد غارات المغول ، وكان هؤلاء المسلمون مختلفي الجنس بين عرب وإيرانيين وترك ، كما كان منهم التجار والصناع والفنانون والجند والفلاحون . وقد استقر عدد كبير منهم في الصين وأصبحوا جالية إسلامية كبيرة امتازت بنشاطها واندجحت في أهل البلاد وتقلد بعض أفرادها الوظائف السامية ولا سيما في عصر قوبيلاي خان . وقد لاحظ وجودهم ماركو پولو الذي عاش في الصين بين عامي ١٢٧٥ و ١٢٩٢ م (٦٧٤ — ٦٩٣ هـ) والذي كان مقربا إلى قوبيلاي خان . وقد أتى ماركو پولو في وصف رحلته بكثير من البيانات عن المسلمين في الصين وعن العلاقة بين الصين والشرق الأدنى (٣) .

(١) انظر : الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ص ١٥ — ١٦

(٢) انظر : الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ص ٢٢

(٣) انظر : الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ص ١٦ وما

وقد زار الرحالة المغربي ابن بطوطة عدة مدن ساحلية بالصين في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، وتحدث عن حسن لقاء المسلمين فيها ، كما ذكر أن « في كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين يتفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون » (١) .

وقد سقطت أسرة ايلخان المغولية سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) في ايران ، ولم تقم في ايران دولة كبيرة على أثر سقوط الأسرة الايلخانية مباشرة ، بل خلف هذه الأسرة عدة دويلات حتى جاء الفاتح التتري الجديد تيمورلنك ، الذي اتخذ سمرقند عاصمة للملكه وأسس دولة ظلت تحكم ايران من سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) الى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) .

كذلك سقطت أسرة «يوان» المغولية في الصين على أثر ثورة وطنية ، وقامت أسرة حاكمة في الصين هي أسرة منج (منغ) التي حكمت الصين بين عامي ٧٧٠ و ١٠٥٤ هـ (١٣٦٨ - ١٦٤٣ م) وقد قامت العلاقات الودية بين أسرة منج وأسرة تيمور بعد نجاحهما في تقويض نفوذ المغول فنمت العلاقة بين الصين وايران في عصر تيمور وخلفائه وتبودلت البعثات بين البلدين في عصر تيمور وابنه « شاه رخ » فأرسل تيمور ثلاث بعثات الى امبراطور الصين ، واستقبل شاد رخ ثلاث بعثات صينية في بلاطه (٢) . وقد استقدم تيمور من الصين نساجين كان لهم نصيب وافر من ازدهار صناعة النسيج في ايران ، كما أن حفيده أولوغ بك (٨٥٠ - ٨٥٣ هـ = ١٤٤٧ - ١٤٤٩ م) استدعى بعض المهندسين والصناع من تلك البلاد ليثيدوا له قبة من القاشاني في بلاد ما وراء النهر ، بل الظاهر أنه أتى بالقاشاني من بلاد الصين نفسها (٣) .

والواقع أن علاقات أسرة منج بالدول الاسلامية قد اتسعت اتساعا أكبر من ذي قبل ، ذلك لأن علاقات أسرة تانج وأسرة كين وأسرة سونج كانت مقصورة

(١) انظر : رحلة ابن بطوطة (الطبعة الاوروية) ج ٤ ص ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ وانظر الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٦
(٢) انظر : الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٦ - ١٧
(٣) انظر : G. Migeon : Manuel d'art Musulman (الطبعة الثانية) ج ١ ص ١٥٦

على خلفاء المدينة ودمشق وبعداد ، وعلى أمراء العرب فيما وراء النهر وفي خراسان ، كذلك كانت علاقات « يوان » مقصورة على ملوك المغول في إيران وأواسط آسيا ، أما علاقات منغ فقد شملت كافة الممالك والدل الاسلامية وكان من بين الدول التي اتصلت بها مصر وعدة أمارات بشرق أفريقية (١) .

ويبدو أن المسلمين في الصين لم يندمجوا في أهل البلاد قبل عهد أسرة منج أى قبل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، اذ كانوا قبل سقوط أسرة « يوان » المغولية يحسبون جالية أجنبية ، بينما أصبحوا في عصر منج (٧٧٠ - ١٠٥٤ هـ = ١٣٦٨ - ١٦٤٣ م) أقرب الى الصينيين أنفسهم ، ولا سيما أن عددهم لم يزد بقدم لاجئين جدد ، وضعف اتصالهم بنى دينهم خارج الصين ، فاختلطوا بأهل البلاد الصينيين واتخذوا عاداتهم وملابسهم ، ووصل بعضهم الى أسمى المناصب بين موظفى الدولة ، وشملهم ملوك الصين برعايتهم ، وسمحوا لهم بتشيد المساجد العديدة في البلاد ، والواقع أن عهد أسرة منج هو عصر ازدهار الاسلام في الصين ، وقد ظهر أثر هذا الازدهار في ناحية العلم والفن وفي الأمور السياسية والخارجية ، وظهر الوزراء المسلمون والقواد المسلمون . كذلك أبحر قائد الأساطيل الصينية المسلم « جينغ خو » سبع مرات الى المحيطين الهادى والهندي حتى وصل الى سواحل أفريقية الشرقية (٢) .

ولم تكن العلاقة بين الصين وإيران في عصر من العصور أوثق منها في عصر شاه رخ (٨٠٧ - ٨٥٠ هـ = ١٤٠٤ - ١٤٤٧ م) .

وكان ابنه باينقر (الذى توفي قبله بأربع عشرة سنة) من أكبر رعاة فن التصوير في إيران ، فضم المصور غياث الدين الى البعثة التي أرسلها والده شاه رخ الى امبراطور الصين نحو سنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م) والتي عادت سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) ، وقد أمر باينقر المصور المذكور أن يكتب وصفا لرحلته وما يشاهده ففعل المصور ذلك ، ووصل اليها ما كتبه غياث الدين بواسطة

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠٩ ، ٢٣٠ - ٢٤١

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٧ ، محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١١ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠٩

الكاتب كمال الدين عبد الرزاق المتوفى في نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، والذي أتى في كتابه « مطلع السعدين » على خلاصة ما كتبه غياث الدين . وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية على يد المستشرق كترمير Quatremère . وقد قيل ان شاه رخ أرسل مع بعض سفراء الصين ردا على امبراطورهم يحثه فيه ويشرح له مزايا الاسلام ويدعوه الى اعتناقه (١) .

والمعروف أن الديانة البوذية لا تزال سائدة في الصين ، أما ديانة المانوية فقد تسربت الى الصين عند فتح العرب لبلاد فارس وفرار يزدجرد اليها الا أن هذه الديانة لم تتغلغل تغلغلا كبيرا في الصين وليس لها وجود الآن . وأما عبادة الملوك والسجود لهم فقد ظلت متبعة في الصين الى آخر عهد أسرة مانشو (١٦٤٤ - ١٩١١ م) ثم قضى الانقلاب السياسى في سنة ١٩١١ م على هذه العادة (٢) .

وقد تحدث الغزولى (٣) (المتوفى سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م) عن البلور وأنواعه وخواصه وذكر أن منه ما يؤتى به من بلاد الصين .
وقد تحدث الغزولى (المتوفى سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م) عن البلور وأنواعه وخواصه وذكر أن منه ما يؤتى به من بلاد الصين .

ومما عثر عليه المنقبون عن الآثار في أطلال مدينة الفسطاط ، أولى العواصم الاسلامية في مصر ، قطع كثيرة من الخزف الصينى ، وأكبر الظن أن ورود هذا الخزف الى وادى النيل يرجع الى عصر أحمد ابن طولون ، الذى عرف طرائف الصين فى سامرا . ولا ريب فى أنه ظل يرد الى مصر حتى عصر المماليك ، وحسبنا أن الأمير بكتر الساقى - الذى تزوجت ابنته أحد أبناء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون - كان بين كنوزه الفنية مقدار وافر من خزف الصين (٤) .

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٧ - ١٨ وما أشار اليه من مراجع .

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٩٨

(٣) مطالع البدور فى منازل السرور (مطبعة الوطن سنة ١٣٠٠ هـ) ج ٢

(٤) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٣

وقد كتب ابن اياس (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ - ١٥٢٤ م) في مؤلفه « نشق الأزهار في عجائب الأقطار » أن مدينة لوقين^(١) كانت تصنع فيها المنسوجات المتعددة الألوان والأوانى الخزفية الصينية التى تصدر الى أنحاء العالم المختلفة^(٢).

ومما كتبه المقرئى ، فى كلامه عن سوق الكفتيين ، أى الذين يشتغلون بتطعيم المعادن (أو تكفيتها) بالذهب والفضة ، أن « العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أمائل التجار » كانت تحمل الى زوجها جهازا ، منه مقدار من الخرف الصينى ومقدار من آنية أو أدوات من الورق سماها « كدهى » وقال عنها « وهى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين ، أدركنا منها فى الدور شيئا كثيرا ، وقد عدم هذا الصنف من مصر الا شيئا يسيرا »^(٣) .
وقد أشار أمير البحر التركى سىدى على چلبى^(٤) فى كتابه « مرآة الممالك » الى أن أبداع أنواع الخرف كان مصدرها مدينتين من مدن الصين .



وقد ظل المسلمون فى الصين يعمون برعاية الحكومة حتى قامت قبائل « منشو » التتية وهم من منشوريا الجنوبية فأسقطوا أسرة منج وأقاموا أسرة « تانسينج » المنشورية (١٦٤٤ - ١٩١١ م / ١٠٥٤ هـ - ١٣٢٩ هـ) التى قامت فى عهدها الثورات الكثيرة وخاصة ثورات المسلمين الخمسة الكبيرة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ، ثم قامت أخيرا الثورة العامة برياسة الدكتور « سون يات سين » وأنشئت الجمهورية الصينية سنة ١٩١٢ م التى

(١) لوقين هى « هانوى » الحالية ويحتمل أن تكون « لنج بين » على مقربة من هانوى الحالية .

(٢) راجع G. Ferrand : Relation de voyages et textes géographiques p. 481

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ (طبعة بولاق) ص ١٠٥

(٤) كان أمير البحر على الأسطول الذى أرسله السلطان سليمان العثمانى لمطاردة البرتغاليين سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٣ م) وقد دمرت العواصف هذا الأسطول ونزل الأميرال الى البر فى الهند . وكان شاعرا وأديبا فعكف على تدوين البيانات عن مشاهداته ثم عاد الى تركيا بطريق البحر ، فنشر هذه البيانات فى كتاب أسماه « مرآة الممالك » ترجم الى الألمانية ثم الى الفرنسية ونشر فى المجلة الاسيوية سنة ١٨٢٠ ، ونقل بعد ذلك الى الإنجليزية على قامبرى

A. Vambéry : The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia during the year 1553 (London 1899)

قررت أنها مكونة من الشعوب الخمسة وهم الخانيون « الصينيون الأصليون » والمنشوريون والمنغوليون والمسلمون والتبتيون (١) .

والمعروف أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح قضى على احتكار المسلمين التجارة مع الشرق الأقصى ، إذ أفلح البرتغاليون في القضاء على السيادة البحرية التي كانت للمسلمين في المحيط ، ثم قبض الهولنديون ومن بعدهم الانجليز على زمام التجارة مع البحار الشرقية ، على أن الجزء الشرقي من العالم الاسلامي ظل على اتصال بالصين في القرنين العاشر والحادي عشر بعد الهجرة (السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد) ، وقد أثر هذا الاتصال على المنتجات الفنية الايرانية في عصر الدولة الصفوية حتى غدت أصفهان مسرحا للغرام بكل ما هو صيني (٢) . لكن هذه الفنون بدأت في الاضمحلال منذ القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) فضلا عن أنها فقدت صلتها بفنون الشرق الأقصى ، ويمت وجهها شطر أوروبا (٣) .

والمعروف أن الشاه عباس الصفوي أحضر كثيرا من الخزفین الصينيين مع أسراتهم الى مملكته لينشروا صناعة الخزف في ايران ، ولينهضوا بتلك الصناعة حتى يمكن اصدار الخزف والصيني الى أوروبا ، وقد استقر هؤلاء الفنانون في مدينة اصفهان ، كما قدم الى شتى المدن الصناعية الايرانية خزفيون من الصين يعرضون خدماتهم على أصحاب المصانع الفنية منها ويساهمون في النهضة بصناعة الخزف الايراني ، أما تجار التحف الصينية فكانوا ينزلون مدينة أردبيل في العصر الصفوي ، وقد روى بعض الرحالة أن تاجرین صينيين كان لهما حانوت لبيع الخزف الصيني بمدينة أردبيل في بداية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) (٤) .

(١) انظر : محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١٢ - ١٤

(٢) انظر : E. Blochet : Musulman Painting p. 62

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٨

(٤) المرجع السابق ص ٢٤ وما ذكره من مراجع .

والواضح أن آسيا الوسطى كانت واسطة في نقل كثير من الأساليب الفنية الصينية الى ايران . وكان لأتباع ماني فضل يذكر في هذا الميدان . والمعروف أن ماني بشر بمذهب ديني جديد في ايران في القرن الثالث الميلادي وكان مصورا ماهرا ، كما كان للتصوير عنده وعند أتباعه شأن كبير في توضيح كتبهم الدينية . وتشهد المراجع التاريخية بأن أصحاب مذهب ماني كانت لديهم مخطوطات مصورة فاخرة ومحفوظة في جلود فنية ثمينة . ولكن المعروف أن الأكاسرة الساسانيين ، ثم الخلفاء المسلمين كانوا يضطهدونهم ، وأنهم فروا من اضطهاد الخلافة في القرن الثامن الميلادي والثاني الهجري ، واستقروا في إقليم تركستان وغيره من أقاليم آسيا الوسطى . وقد قضى هذا الاضطهاد على مخطوطاتهم الثمينة ، حتى أننا لم نكن نعرف عنها شيئا ماديا الى سنة ١٩٠٤ حين كشف الأستاذان فون لوكوك Von le Coq وجرينفيدل Grunwedel بعض صور مانوية في أطلال مدينة من أعمال « طرفان » في بلاد التركستان الشرقية .

وكانت طرفان بين عامي ١٣٤ و ٢٢٥ بعد الهجرة (٧٦٠ - ٨٤٠ م) عاصمة لدولة الأويغور التركية الجنس والمناوية المذهب حينذاك . ويبدل أسلوب هذه الصور على العلاقة الوثيقة بين الفنون التي ازدهرت في آسيا الوسطى والفنون الصينية نفسها ، مما يحملنا على القول بأن أتباع المذهب المانوي اشتركوا في نقل الأساليب الفنية الصينية الى شرق العالم الاسلامي (١) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المسلمين كانوا يستوردون من الصين أنواع الورق الصيني الفاخر مما استعملوه في بعض مخطوطاتهم الثمينة (٢) .

وقد أخذ العرب هذه الصناعة من أسرى الصينيين في سمرقند بعد موقعة تالاس في ٧٥١ م . ونلاحظ أن كلمة كاغد التي استعملها الكتاب والمؤرخون

(١) انظر : P. Pelliot : La Haute Asie pp. 12, 13, 17, 18, Albert Grunwedel
Altbuddhistisch Kunststätten, Berlin 1812, Albert von le Coq : Chotscho, Königliche
Preussische Turfan-Expedition (Berlin 1913) . الدكتور زكي محمد حسن : الصين
وفنون الاسلام ص ٢٥ - ٢٦ وما ذكره من مراجع .

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٥

العرب هي كلمة صينية الأصل أخذها عنهم الايرانيون ثم أخذها العرب من الايرانيين ، وأصل معناها الورق الذي يصنع من قشر شجر التوت (١) .

ومهما يكن من الأمر فإن النصوص الأدبية والتاريخية الاسلامية تشهد بأن المسلمين كانوا يعترفون لرجال الفن في الصين بالأسبقية في ميدان الفنون كما كانوا يعجبون بالتحف الصينية أشد اعجاب فلا عجب اذ ظهر تأثير الأساليب الفنية الصينية في الفنون الاسلامية .

والحق أن كتاب العرب وشعراء الفرس وكتابتهم كانوا يعجبون منذ فجر الاسلام بمهارة الصينيين في الفنون والصنائع الدقيقة وكانوا يعتبرونهم مثلاً أعلى في اتقان فن التصوير . ولا أدل على ذلك من أن أحد شعراء الفرس في العصر الاسلامي يقول في وصف حبيته ان شفتها الجميلة تبدو كأنها رسمت بريشة مصور صيني (٢) .

وقد كتب ابن الفقيه الهمداني (٣) (توفي في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل العاشر الميلادي) أن الله عز وجل خص أهل الصين باحكام الصناعة ، وأنه منحهم في ذلك ما لم يمنحه أحداً غيرهم فكان لهم الحرير والفضائر الصيني والسروج الصيني وغير ذلك من المنتجات الدقيقة المحكمة .

وتحدث المسعودي (توفي سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) عن ملك من ملوك الصين شيد السفن وأرسل عليها وفودا الى البلاد المختلفة « تحمل لطائف بلاد الصين ، فلم يردوا على أهل مملكة الا وأعجبوا بهم واستظرفوا ما أوردوه من أرضهم » (٤) وذكر المسعودي (٥) أيضاً أنهم لم يعبدوا الأصنام فحسب بل كانوا يعبدون الصور ويتوجهون نحوها بالصلوات .

وقد كتب أبو منصور الثعالبي (٦) (توفي سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م) نبذة عن

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٨٥

(٢) P. Horn : Geschichte der Persischen Literature p. 78

(٣) (لينزج ١٩٠١) ، Die Persisch-Islamische Miniaturmalerei ، ص ٤٤ Ph. W. Schulz

(٤) مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥ م) ص ٢٥١

(٥) مروج الذهب ج ١ ص ٨٠ - ٨١

(٥) نفس المرجع ص ٨٢

(٦) لطائف المعارف ص ١٢٧ وما بعدها .

مهارة الصينيين في الفنون ، نقلها عنه النويري^(١) (ت سنة ٧٣٣ هـ = ١٣٣٣ م) . قال : «وأما الصين وما اختص به فان العرب تقول لكل طرفة من الأواني ، صينية ، كائنة ما كانت ، لاختصاص الصين بالطرائف وأهل الصين خصوا بصناعة الطرف والملح وخرط التماثيل والابداع في عمل النقوش والتصاوير » حتى ان مصورهم يصور الانسان فلا يغادر شيئاً الا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين البتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور والهاديء ، ويركب صورة في صورة » .

ومما تخيله الشاعر الفارسي نظامي (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ ، ١٢٠٣ م) في قصته الشعرية « اسكندر نامه » مباراة في التصوير بين فنان رومي وآخر صيني وذلك في حضرة الاسكندر وخاقان الصين .

وقد ترجم الأستاذ توماس أرنولد حديث هذه المباراة في كتابه التصوير في الاسلام Painting in Islam . ونجد أن نظامي لا يختم قصة هذه المباراة ببيان الفائز فيها ، بل يكشف ميدانا جديدا من المهارة عند أهل الصين ، فيذكر أن المصور الرومي عكف على رسم صورة على القبو الذي أعد له ، وبينه وبين زميله ستار يفصله عنه ولا يرفع قبل اتمامها التصوير . وبينما كان الرومي يفعل ذلك أقبل الفنان الصيني على تلميع الجزء الذي أعد له ، فلما رفع الستار انعكست صورة الرومي على الجزء الذي أتقن الصيني تلميعه فظهر كأن لا فرق بين الصورتين ، وعجب المشاهدون لهذا الشبه العجيب بين الرسمين ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا السر في ذلك كله^(٢) .

ومن النصوص التي جاء فيها ما يشهد باعجاب المسلمين بالحرف الصيني حكاية في باب فضل القناعة من كتاب گلستان « لسعدى » الشاعر الايراني (المتوفى سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م) ، تحدث فيها عن تاجر ثرثار أخبره أنه يستعد لرحلة جديدة ، فسأله سعدى أين تكون تلك السفرة . وأجاب التاجر : « أريد

(١) نهاية الارب في فنون الادب (طبعة دار الكتب المصرية) ج ١ ص ٩٦٦

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٨ - ٢٩

وما ذكره من مراجع .

أن أحمل الكبريت من إيران الى الصين ، فقد سمعت أن له قيمة عظيمة فيها .
ومن هناك أخذ الخنزف الصينى الى بلاد الروم « (١) » .

وكتب الرحالة ابن بطوطة (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) ان الخنزف الصينى هو
أبداع أنواع الفخار (٢) ، كما تحدث عن مهارة أهل الصين فى الفنون فقال :
« وأهل الصين أعظم الأمم احكاما للصناعات وأشدهم اتقاناً فيها . وذلك مشهور
من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأظنوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم
أحد فى احكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتداراً عظيماً . ومن عجب
ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنها ثم عدت اليها
الا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى
الأسواق . ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت
الى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عثيا
مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتى وصور أصحابى فى كائغ قد ألصقوه
بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطى شيئاً من شبهه .
وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا الى القصر ونحن به ، فجعلوا
ينظرون لينا ويصورون صورنا ونحن لم نشمر بذلك . وتلك عادة لهم فى تصوير
كل من يمر بهم وتنتهى حالهم فى ذلك الى أن الغريب ، اذا فعل ما يوجب فراره
عنهم ، بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه فحينما وجد شبه تلك
الصورة أخذ « (٣) » .

وكتب ابن الوردي (٤) (القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى) أن
أهل الصين « أحذق الناس فى الصناعات والنقوش والتصوير وأن الواحد منهم
ليعمل بيده من النقش والتصوير ما يعجز عنه أهل الأرض . وكان من عادات
ملوكهم أن الملك منهم اذا سمع بنقاش أو مصور فى أقطار بلاده أرسل اليه بقاصد
ومال ورغبة فى الاشخاص اليه ... » .

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٩ وما ذكره
من مراجع .

(٢) رحلة ابن بطوطة (الطبعة الأوربية) ج ٤ ص ٢٥٦

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ٢٦١ - ٢٦٣

(٤) خريدة العجائب وفريدة الفرائب (طبعة مصطفى البابى الحلبي
سنة ١٩٣٩ م) ص ٥٢ - ٥٣

كذلك ذكر ابن الوردي أن ملك الصين اذا كان له عدة اولاد « ثم مات ، لا يرث ملكه منهم الا أحذقهم بالنقش والتصوير » .

وقد ذكر ابن خلدون^(١) (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) الصين بين الأمم التي اشتهرت بكثرة صنائعها . قال في الكلام عن أن العرب أبعد الناس عن الصنائع : « ... ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر . وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم » .

كذلك كتب أبو الفدا^(٢) (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) أن أهل الصين « أحذق الناس في الصنائع » وأنهم « أحذق خلق الله تعالى بنقش وتصوير بحيث يعمل الرجل الصينى بيده ما يعجز عنه أهل الأرض » .

وقد جاء في ترجمة فارسية من كتاب كليلة ودمنة (تمت في نهاية القرن ٩ هـ ، ١٥ م) ذكر مهارة أهل الصين في الفنون ، وذلك في معرض مدح مصور ، قيل عنه انه « حين يرسم بريشته وجوها ، فان أرواح مصورى الصين تتحير في وادى العجب ، كما قيل عنه أيضا « ان عبقريته جعلت قلوب أولئك الفنانين الصينيين تغمر وتغلب على أمرها في صحراء الدهش »^(٣) .

ومن دلائل الاعجاب بمهارة الصينيين في التصوير ما تخيله الشاعر الايراني عبد الرحمن الجامي (القرن ٩ هـ ، ١٥ م) في منظومته « يوسف وزليخا » فقد جعل فيها امرأة العزيز تطلب مصورا صينيا ليرسم صورا لها وليوسف^(٤) .

والواقع أن الفنانين في ديار الاسلام أقبلوا على تقليد التحف الصينية ولا سيما الخزف ، كما قلدوا زخارف المنسوجات الحريرية الصينية ، ورسموا

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ، الفصل الحادى والعشرين « في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع » .

(٢) انظر : أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ١ ص ١٠٢

(٣) راجع : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٣١ ،
Th. Arnold : Painting in Islam ص ٦٩

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٣١ وما ذكره من مراجع .

صوراً بديعة على الطراز الصيني ، وأقبلوا على جعل السحنة في رسم الأشخاص على تحفهم وفي مخطوطاتهم مغولية الى حد كبير على الرغم من أنهم لا ينتمون الى الجنس الأصفر . كذلك تأثر الفنانون في الاسلام بالرسم الصينية في الدقة ومحكاة الطبيعة في رسوم الحيوان والنبات وفي استعمال الألوان الهادئة ، وفي احتمال الفراغ في الزخرفة خارجين بذلك على القاعدة التي نعرفها في الفنون الاسلامية عامة وهي الهرب من الفراغ والعمل على تغطية المساحات كلها بالرسم والزخارف ، كما نقل الفنانون في ديار الاسلام بعض الموضوعات الزخرفية عن الفنون الصينية مثل رسوم بعض الحيوانات الخرافية ورسوم السحب الصينية .

وطبيعي أن أثر الفنون الصينية كان واضحاً في شرق العالم الاسلامي دون غربه لأن شرق العالم الاسلامي كان بحكم الموقع الجغرافي على صلة بالصين ، وكان التأثير ظاهراً في الزخارف ومنتجات الفنون الزخرفية دون العمارة لأن التحف الصينية المنقولة هي التي تأثر بها لفنانون في ديار الاسلام^(١) .

(١) راجع ماكتبه الدكتور زكي محمد حسن في كتابه الصين وفنون الاسلام عن مظاهر الأثر الصيني في الفنون الاسلامية وما أشار اليه من مراجع وما أتى به من أشكال ص ٣٣ - ٧٤

الجمهوريات الإفريقية المنتمية للمجموعة الفرنسية

للككتور صلاح العقاد

المدرس بقسم التاريخ

يتقلص الاستعمار سريعا عن القارة الإفريقية ، ولكنه اذ يولى يحاول جاهدا أن يستبقى كل ما يستطيع من مظاهر النفوذ ، ولا سيما النفوذ الاقتصادي . وتوضح لنا هذه الحقيقة عند دراسة تطور المستعمرات الفرنسية في افريقيا حتى انتهى معظمها بالحصول على استقلالها السياسى فى سنة ١٩٦٠

فقد برز الى الوجود فى ذلك التاريخ أربع عشرة جمهورية أصبحت جميعا أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة وتشكل كتلة كبيرة فى مجموعة الدول الأسيوية والإفريقية . وكانت جميع هذه الجمهوريات مستعمرات فرنسية فى إفريقيا الاستوائية والغربية باستثناء مدغشقر وهى الجزيرة الكبيرة التى تواجه ساحل إفريقيا الشرقى . وقد اختارت جميعا باستثناء غينيا البقاء فى العائلة الفرنسية La Communauté Française وهو الاسم الذى اختاره ديغول حينما طور نظام الاتحاد الفرنسى وجعله قريبا من نظام الكومنولث . ولذا فإن الدول الأعضاء تستمتع من الناحية القانونية بسيادة كاملة ولكن يبدو أن فترة الاستعمار الفرنسى قد تركت آثار عميقة بين الطبقات المثقفة فى تلك البلاد وهى الطبقة التى تسلمت زمام الحكم بعد الاستقلال . ولذا يلاحظ أن حكومات تلك الجمهوريات لم تسير فى جميع الأحوال التضامن الإفريقى فى وثبته المتحررة ويبدو ذلك واضحا من موقفها فى الأمم المتحدة ازاء قضية الجزائر ، حيث رفض معظمها الموافقة على المشروع الإفريقى الأسيوى الذى يدين فرنسا وفضلت مشروعا آخر يدعو فرنسا فقط الى التفاوض لانهاء الحرب فى الجزائر . ولم تخرج عن

هذه السياسة سوى جمهورية مالى التى وان بقيت عضوا فى مجموعة الشعوب الفرنسية لمدة قصيرة الا أنها تقدم على هذا الارتباط ، ارتباطا بالدول الافريقية المتحررة كما يتضح ذلك من اشتراكها فى مؤتمر الدار البيضاء .

وسنحاول فى هذا المقال أن نتبع تطور النظم الفرنسية فى حكم تلك المستعمرات حتى انتهت بالاستقلال السياسى فى سنة ١٩٦٠ .

يرجع اتصال الفرنسيين بساحل أفريقيا الغربى وبجزيرة مدغشقر الى منتصف القرن السابع عشر . حينما شاركت فرنسا فى انشاء الشركات الاستعمارية بقصد احتكار التجارة مع الهند والشرق الأقصى . وعند مصب السنغال فى جزيرة سميت سان لويس اتخذ الفرنسيون أقدم قاعدة بحرية لخدمة خط ملاحه الشرق ومستصبح هذه القاعدة فيما بعد عاصمة غرب افريقيا الفرنسية . وفى منتصف القرن التاسع عشر أقام الفرنسيون مراكز جديدة على ساحل العاج وداهومى والجابون واتسعت أهداف تلك المراكز فلم تكن محطات للبحرية بقدر ما كانت قواعد للاستكشاف والتبشير ، ومن المعروف أن المكتشفين والمبشرين هم الذين مهدوا الطريق للاستعمار الأوروبى فى افريقيا . ومن أشهر المكتشفين الفرنسيين « سقرنيان دى برازا » Savorgnan de Brazza الذى قام فيما بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٨٧ برحلات عديدة فى افريقيا الاستوائية حتى أطلق اسمه على عاصمة المستعمرات الفرنسية فيها وهى برازاويل .

أما غرب افريقيا فقد صادف الفرنسيون فيها امبراطوريات اسلامية كبيرة خاصة فيما كان يعرف بالسودان الفرنسى ولذلك خاضوا عدة حروب شديدة قبل أن يتمكنوا من اخضاع تلك البلاد فى نهاية القرن التاسع عشر . وقد اتخذوا من السنغال قاعدة للتوغل فى غرب افريقيا كما اتخذوا من الجابون قاعدة للتوغل فى افريقيا الاستوائية .

وفى هذه الفترة التى اشتهرت بالتنافس الشديد بين الدول الاستعمارية اصطدمت فرنسا فى حركتها التوسعية بمحاولات البلجيكين فى الكونغو ، ثم محاولات الانجليز فى نيجيريا ووادى النيل . وبعد حادث فاشودا الشهير عقدت معاهدة بين بريطانيا وفرنسا فى سنة ١٨٩٩ خططت بمقتضاها الحدود التى تفصل بين مستعمرات كل من البلدين . وحسب هذا التقسيم حصلت فرنسا على الجزء

الأكبر من غرب القارة ووسطها ولكن الممتلكات الفرنسية وان كانت أكثر اتساعا من جاراتها البريطانية ، الا أنها تضم مناطق صحراوية كثيرة ، وهى على العموم أقل من الممتلكات البريطانية من حيث الثروة الاقتصادية .

وبعد توضيح معالم تلك المستعمرات من الناحية الجغرافية أمكن لفرنسا تقسيمها اداريا الى مجموعتين ، سميت المجموعة الكبرى منها بغرب افريقيا الفرنسية وهى تشتهر فى المراجع الأجنبية باسم A. O. F. اختزالا لكلمة Afrique Occidentale Francaise وافريقيا الاستوائية الفرنسية التى تعرف بـ A. E. F. اختزالا لكلمة Afrique Equatoriale Francaise وقد قسمت الأولى الى سبع وحدات ادارية والثانية الى أربع وحدات ، وسيكون هذا التقسيم الادارى الفرنسى أساسا للوحدات السياسية أو الجمهوريات التى نشأت سنة ١٩٦٠ وأصبحت أعضاء فى العائلة الفرنسية وقد أضيفت قبل الحرب الى وحدات غرب افريقيا منطقة ثامنة هى موريتانيا . وكان هدف السياسة الفرنسية من هذه التقسيمات هو إتاحة الفرصة لتطبيق النظام اللامركزى ، حيث يستطيع حاكم كل وحدة ادارية أن يتصرف فى التشريعات والادارة المحلية بما يتلاءم وظروف منطقته ، ولذلك ألحقت بهذه الوحدات مجالس استشارية تتألف من النواب الوطنى أو الرؤساء التقليديين . ولكن من الناحية العملية كان الحاكم العام لكل من افريقيا الغربية فى سان لويس ، وافريقيا الاستوائية فى برازا فيل حاكما مطلقا السلطات حتى لقب بالـ Proconsul وهو اللقب الذى كان يطلق على حكام الأقاليم النائية فى الامبراطورية الرومانية القديمة والذين كانوا يستمتعون بسلطات مطلقة بسبب ضعف اشراف الحكومة المركزية . وقد أصبح كل حاكم فرنسى يحيط نفسه بمجلس فيدرالى ، وكان يضع التشريعات ويقدمها لرئيس الجمهورية لإصدارها ، وتنتج عن ذلك أن تجاهلت الادارة الفرنسية الطابع المحلى لأقاليم المستعمرات وكان هذا من الأسباب التى أضعفت النزعات القبلية بالتدرج ، خاصة وان التقسيمات الادارية لم تكن تتماشى مع التوزيعات القبلية ، وبالتدرج نسي الفرد أنه ينتمى الى قبائل الماندنجو أو التكرور أو الموسيقى وأصبح يفكر فى أنه من سكان ساحل العاج أو داهومى أو السودان أو تشاد وغير ذلك من الوحدات الادارية التى أوجدها الاستعمار . وقد ساعد ذلك فيما بعد على تماسك الجمهوريات الافريقية عندما استقلت ويمكن مقارنة هذه النتائج بالسياسة

التي اتبعتها بلجيكا في الكونغو حيث فصلت تماما بين الادارات التي تختص بشئون الافريقيين المحلية ، فوزعتها حسب القبائل . فلكل قبيلة مجلسها ومحكمتها الخاصة ، وبين الادارة الحكومية العليا التي تختص بالسياسة العامة واستقلال البلاد اقتصاديا وهي ادارة بلجيكية محضة وقد نتج عن ذلك تأصل الروح القبلية والنزعات الانفصالية التي تعاني منها جمهورية الكونغو بعد استقلالها

ومما ساعد على اضعاف الروح القبلية في المستعمرات الفرنسية اعتماد الادارة على طبقة المثقفين ثقافة فرنسية ، فمن هؤلاء كان يختار أعضاء المجالس المحلية . وقد انسلخ هؤلاء تدريجيا عن قبائلهم ، كذلك كثر تنقل القبائل واختلاط بعضها ببعض في ظل الحكم الفرنسي بعد أن دمرت الزعامات التقليدية .

وقد أشرنا الى أن الفرنسيين حطموا الامبراطوريات الاسلامية في غرب افريقيا ولكن هذا لم يمنع اعترافهم فترة من الزمن ببعض الملوك الذين كانوا يحكمون مناطق أو قبائل أصغر من الامبراطوريات الاسلامية مثل تلك التي أنشأها ساموري في السودان أو راجع بن الزبير في افريقيا الاستوائية ، وقد التجأ بعض هؤلاء الرؤساء والأمراء الصغار الى طلب الحماية الفرنسية بأنفسهم هروبا من الامبراطوريات الاسلامية مثال ذلك « المامي » وهو لقب الملك الذي كان يحكم بعض أقاليم من غينيا، والمورونابا في القوتل العليا واشترط المامي أن يستمر نظام انتخابه بواسطة رؤساء القبائل . الا أن الفرنسيين ضاقوا ذرعا بهذه الأنظمة وبالتدرج حولوا هؤلاء الرؤساء الى مجرد أصحاب معاشات ، اذ تنازلوا تماما عن جميع سلطاتهم واكتفوا بالمرتبات التي تصرفها الادارة الفرنسية .

ويختلف هذا النظام تماما عن نظام الحكم غير المباشر الذي اتبعه الانجليز في افريقيا الغربية .

واذن فقد أعطى النظام الفرنسي شكلا سياسيا موحدا للمستعمرات فهي مثل فرنسا مقسمة الى أقاليم كبيرة وهذه الأقاليم مقسمة بدورها الى كاتونات وهي الوحدة الصغيرة .

أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فلم تكن الادارة الفرنسية في هذه الفترة الأولى من استعمارها لافريقيا الا باستغلال الموارد الطبيعية لصالح شركات الاحتكار . وكانت هناك شركات تحتكر زراعة الفول السوداني وعصره لانتاج الزيوت . وأخرى تحتكر استخراج المعادن وهكذا . ولم تتدخل الادارة في شئون

التعليم أو الصحة أو الشؤون القضائية الخاصة بالقبائل ولذلك استمرت المحاكم الشرعية تمارس سلطاتها القضائية في البيئات الاسلامية . أما القبائل الوثنية فكانت تطبق العرف . ولم تنح فرص للتشبع بالثقافة الفرنسية الا في بيئات محدودة تقتصر عادة على أبناء الرؤساء التقليديين أو اذا صح التعبير الارستقراطية الافريقية .

ولتغطية نفقات الادارة لجأ الفرنسيون الى نوعين من الضريبة .

١ - ضريبة الرؤوس .

٢ - الضريبة على المنتجات الزراعية حسب المحصول أو حسب المساحة .

ولذلك لم تتحمل فرنسا أى عبء مالى لادارة المستعمرات في افريقيا الوسطى والغربية حتى الحرب العالمية الثانية ، هذا في الوقت الذى أخضع فيه السكان لنظام التجنيد الاجبارى أو للعمل الاجبارى في المشروعات الكبرى فكان من حق المديرين أن يفرضوا على كل قرية نسبة من العمال بدون أجر للعمل في مد الحطوط الحديدية أو غير ذلك من المنشآت وقد أخذت هذه الأوضاع تعكس عند قيام الحرب العالمية الثانية عندما ألغى نظام العمل الاجبارى . وبدأت الادارة الفرنسية تهتم بالشؤون الاجتماعية للسكان ، فألغيت ضريبة الرؤوس والضرائب الزراعية . وأصبحت فرنسا تتحمل أعباء مالية لسد العجز في ميزانية افريقيا الغربية والاستوائية . وأصبحت منافع الاستعمار قاصرة على أصحاب رؤوس الأموال ملاك الأسهم في شركات الاحتكار . ومن هنا كان الصراع الداخلى في فرنسا نفسها بين الأحزاب اليسارية وبين الحكومة ازاء مشكلة المستعمرات كما سنرى .. وهذا الانعكاس يعد نتيجة للتطورات التى حدثت خلال الحرب الثانية .

تطور المستعمرات منذ الحرب العالمية الثانية

أظهرت الحرب الثانية لفرنسا كيف أن الافريقيين ليسوا مجرد شعوب مستضعفة تستغل بلادها ، بل هى شعوب حية تستطيع أن تقوم بدور فعال من أجل الدفاع عن قضايا الحرية . ذلك أنه عندما احتل الألمان فرنسا في سنة ١٩٤٠ ، التجأ أحد الجنرالات الفرنسيين وهو شارل ديغول الى لندن ، وألف هناك حكومة باسم حكومة فرنسا الحرة . وأخذ يعمل بالتعاون مع بريطانيا لتحرير بلاده واتجه أولاً الى المستعمرات الافريقية . وبينما أظهر المستوطنون ورجال الادارة

طاعة الحكومة فيشى الموالية للألمان أظهر الافريقيون ميولا نحو حكومة فرنسا الحرة . وكانت مستعمرة تشاد هي أول مستعمرة في افريقيا أعلنت تحولها الى التبعية لديجول مع ملاحظة أن تشاد كانت هي المستعمرة الوحيدة التي تولى منصب الحاكم فيها أحد الافريقيين وهو فيلكس ايوى وبعد تحول تشاد توالى دخول المستعمرات الافريقية كالكمرون والجابون والكونغو الفرنسية في تبعية ديغول . ومن سكان هذه المستعمرات كون ديغول القسم الأكبر من الفرقة الأولى لجيش فرنسا الحرة . ولهذا كان طبيعيا أن يحاول ديغول تغيير النظام الاستعماري العتيق فأعلن حتى قبيل تحرير الأراضى الفرنسية في مؤتمر عقده في برازافيل سنة ١٩٤٤ أنه سيكافئ سكان المستعمرات ، وذلك بإعلان المساواة في الحقوق السياسية والغاء الاحتكارات الاقتصادية . وكان الفرنسيون منذ أن دخلوا افريقيا يعتقدون بأنهم دخلوها محررين وأن الهدف الأسمى للأفريقي هو أن يمثل الحضارة الأوربية ، فيعتقد الكاثوليكية دينا ويتخذ الفرنسية لغة ويسير في حياته الاجتماعية في الأسرة على نظام الفرنسيين وحينئذ يصبح جديرا بأن يكون مواطنا .

وقد فتح باب المواطنة الفرنسية للافريقيين منذ الحرب الأولى ، ولكن لم ينتفع بهذا النظام سوى عدد ضئيل نحو ٢٥٠٠ شخص حتى سنة ١٩٣٩ ، وكان يشترط التخلي عن قانون الأحوال الشخصية المحلى ولم يستثن من هذا النظام سوى مدن السنغال الساحلية مثل سان لويس ، ودكار وجوريه ، باعتبار أن كل هذه المدن مستعمرات فرنسية قديمة وأن أهلها قد اندمجوا اندماجا كبيرا في البيئة الفرنسية فحولت هذه المدن الى مديرية فرنسية ترمثل عنها نوابا الى الجمعية الوطنية في باريس ويستمتع أهلها سواء أكانوا افريقيين أم أوربيين بالحقوق السياسية . فقد دخل أحد الافريقيين المسلمين الجمعية الوطنية في باريس للمرة الأولى سنة ١٩١٤ نائبا عن احدى دوائر السنغال .

وقد ساد الاتجاه الى سياسة الادمج في السنوات التي تلت الحرب الثانية فتقرر اشتراك بعض الافريقيين في الجمعية التأسيسية التي نيط بها وضع دستور الجمهورية الرابعة وقد برز أحد نواب السنغال الذي كان ينتمى الى الحزب الاشتراكي وهو « لامين جيبي » في مناقشات الجمعية التأسيسية الأولى وطالب .

أولا — بقيام نظام فيدرالى بحيث يكون لكل مستعمرة شخصيتها بمجلسها المحلى على أن تبقى السيادة العليا للجمهورية .

ثانيا — بإلغاء نظام الاحتكارات الاقتصادية والنص على ذلك فى الدستور ، أما عن طبيعة العلاقات بين أجزاء الاتحاد الفرنسى فلا بد أن يكون الدستور اذاؤها مرنا ، بحيث يسمح لكل مستعمرة أن تحدد طبيعة تلك العلاقات . ولكن النص على إلغاء الاحتكارات أثار ضجة بين الرأسماليين ويقال أن هذا من الأسباب التى جعلت الأحزاب البورجوازية تصوت ضد الدستور الذى وضعته الجمعية التأسيسية الأولى فى أوائل سنة ١٩٤٦ وقد ترتب عليه إعادة انتخاب جمعية تأسيسية ثانية . وهى الجمعية التى وافق الشعب الفرنسى فى استفتاء عام على دستورها . فصدر فى أكتوبر سنة ١٩٤٦

ربط دستور الجمهورية الرابعة المستعمرات بدولة الأصل « فرنسا » فى أجهزة ثلاثة فخصصت لها مقاعد فى مجلس النواب وأخرى فى مجلس الشيوخ ، ولكن لم يراع فى عدد المقاعد أهمية عدد السكان فى كل مستعمرة . فلم يزد نواب المستعمرات عن أربعين مقعدا من مجموع الـ ٦٠٠ مقعد فى مجلس النواب ، وقد لوحظ أن المستعمرة التى يكثر بها المستوطنون أو الأفريقيون المندمجون فى البيئة الفرنسية هى التى خصص لها عدد أكبر من المقاعد . وإلى جانب مجلسى الشيوخ والنواب أقيم جهاز ثالث لم يكن موجودا من قبل وهو مجلس الاتحاد الفرنسى وذلك ليعبر عن تماسك الامبراطورية ويلاحظ أن كلمة اتحاد حلت محل لفظ امبراطورية بعد الحرب لتناسب تطورات العصر من الناحية الشكلية فقط . وقد ربط هذا المجلس جميع المناطق التى تمارس فيها فرنسا سلطة فعلية دون النظر الى وضعها القانونى سواء أكانت مستعمرة أم محمية أم أرضا موضوعة تحت الوصاية . وبهذه المناسبة نذكر أن فرنسا قد وسعت امبراطوريتها فى غرب افريقيا اثر الحرب العالمية الأولى بأن وضعت الجزء الأكبر من التوجو والكاميرون تحت ائدابها باسم العصبة ثم استمرت هيئة الأمم المتحدة فى توكيل فرنسا بالوصاية على هاتين المستعمرتين الألمانيةين سابقا .

واذن فرغم كون الوصاية نظام مؤقت فقد تجاوزت فرنسا عن هذه الحقيقة وأدخلت التوجو والكاميرون فى الاتحاد الذى يربطهما بفرنسا بصفة مستديمة وكان مجلس الاتحاد يتألف من ٢٤٠ عضوا يمثل نصفهم فرنسا الأوربية (وتسمى

دولة الأصل) ونصفهم من المستعمرات على اختلاف أنواعها . ويرأس مجلس الاتحاد رئيس الجمهورية ومهمة هذا المجلس في الحقيقة استشارية لأن أهم عمل يقوم به هو تقديم التوصيات والاقتراحات بالقوانين الى الجمعية الوطنية وهي الهيئة الوحيدة التي تملك سلطة التشريع حتى في المستعمرات . وانما ترك لمجلس الاتحاد تقديم المقترحات أو التوصيات الى برلمان باريس باعتباره أوثق صلة بشئون المستعمرات وبالتالي فهو يستطيع أن يقدم تشريعات ملائمة لظروفها المحلية، وهكذا لم تتغير الصفة المركزية للسياسة الاستعمارية الفرنسية بعد الحرب الثانية. وتحقيقا لسياسة الادمج طبق نظام الاقتراع العام في المستعمرات وهذا يضمن من حيث الشكل المساواة في الحقوق السياسية . ولكن هذه المساواة كانت خلوا من أية قيمة فعلية لعدة أسباب منها :

أولا — أن الافريقيين كانوا يمارسون حق الاقتراع العام لانتخاب المجالس المحلية فقط وقد اختلفت أسماء هذه المجالس واختصاصاتها من اقليم الى آخر . ولكنها على كل حال لم ترق الى درجة مجلس تشريعي محلي، انما كان أقصى ما تصل اليه من سلطات هو حق المناقشة للميزانية .

ثانيا — الأخذ بنظام الدوائر الثنائية فلأوروبيين ، والافريقيين الذين حصلوا على حظ من الثقافة واندمجوا في البيئة الفرنسية دائرة انتخابية تعرف بالدائرة الأولى ، وهي منفصلة عن الدوائر الثانية التي تضم معظم أهل البلاد ، وفي معظم المستعمرات كانت كل دائرة تنتخب نصف أعضاء المجلس .

وهكذا لم يتحقق الادمج الذي سعى اليه كثير من الزعماء الافريقيين ورجوا أن يكافأ مجهودهم في الحرب باعلان المساواه الحقيقية في ظل اتحاد فيدرالى تحت سيادة الجمهورية وكذلك لم يحقق نظام الاتحاد الفرنسى تغييرا أساسيا في نظام الاستعمار . فالمجالس الاقليمية مجرد مجالس استشارية ، وقد روعى فيه ألا يزيد عدد الافريقيين على الأوربيين . ولا يستثنى من ذلك المجلس الفيدرالى الذى أنشئ لكل من افريقيا الغربية والاستوائية وللأقاليم الخمس التى تكون مدغشقر. كذلك كان عدد الافريقيين فى المجلس الأعلى للاتحاد ضئيلا . واشترط الدستور الا يزيد ممثلو فرنسا لما وراء البحار بأية حال على ممثلى فرنسا الأوربية .

ومهما يكن من ضآلة هذه التطورات السياسية التي تلت الحرب فانها قد أتاحت على كل حال للافريقيين أن يشاركوا في الحياة السياسية ويؤلفوا أحزابا تخوض المعارك الانتخابية هواء للبرلمان الفرنسى أم لتلك المجالس المحلية . وحتى سنة ١٩٤٦ كان النشاط السياسى قاصرا على السنغال ، ولما امتد الى المستعمرات الأخرى لوحظ أن الأحزاب في افريقيا كانت امتدادا أو فروعا لأحزاب فرنسية فكان لامين جيبى مثلا نائب السنغال عضوا في الحزب الاشتراكى الفرنسى وكذلك أصبح لأحزاب الوسط واليمين فروع في المستعمرات الا أنه عند ما لاحظ الافريقيون ضآلة اصلاحات سنة ١٩٤٦ لجأوا الى تكوين أحزاب خاصة بهم وتجمع بعض الزعماء لتأليف حزب افريقى شامل على مستوى جميع المستعمرات بعض الزعماء لتأليف حزب افريقى شامل على مستوى جميع المستعمرات الفرنسية سمي R.D.A. وهو اختزال لاسم الحزب

. Rassemblement Democratique Africain

ويلاحظ أن الأحزاب الافريقية عادة تحمل أسماءها بلغة المستعمر الفرنسية كانت أو انجليزية وتقوم مبادئ حزب التجمع الديموقراطى الافريقى على الأسس التالية :

١ - تطبيق مبدأ الاقتراع العام على الافريقيين .

٢ - الغاء الدوائر الثنائية .

٣ - تكوين مجالس اقليمية ذات سلطة حقيقية في التشريع ، ولكن تبقى السلطة التنفيذية في يد حكومة الجمهورية صاحبة السيادة .. واهتم الحزب باتقاد النظام الاقتصادى وسيطرة شركات الاحتكار ورأس المال على اقتصادالمستعمرات. ومن هنا ذاع اتهام الحزب بأنه فرع من الحزب الشيوعى الفرنسى الذى اعتنق نفس هذه المبادئ لحل المشكلة الاستعمارية وبهذه المناسبة نذكر أن الحزب الشيوعى الفرنسى الذى كانت له قوة هائلة في السنوات التي تلت الحرب ، كان من أشد أنصار سياسة الادماج . فهو من الناحية النظرية يدعو الى تساوى العناصر داخل جمهورية تقدمية موحدة . ولذلك كان يعارض بشدة كل حركة قومية في المستعمرات تهدف الى الانفصال عن فرنسا ، أى أنه ضد النظام الاستعمارى فقط . فاذا كانت فرنسا تطبق المساواه فان بقاء الأقاليم الافريقية

داخلها خير من انفصالها لتنعم معها في ظل دولة اشتراكية الا أن مبادئ الحزب الشيوعى قد تغيرت بعد أن ضعف مركزه بالتدرىح وفقد الأمل فى أن يسيطر على الحكم فى فرنسا ، وعندئذ فقط تحول الى مناصرة الحركات القومية فى المستعمرات تمثىا مع سياسة الاتحاد السوفيتى العامة من تأييد البورجوازيات الوطنية وفى رأيهم أن حكم هذه البورجوازيات يسهل بطريقة أيسر تسلل النفوذ الشيوعى ، مما لو بقيت المستعمرات تحت الحكم الأجنبى .

والواقع أنه نشأت صلات قوية فى بداية الأمر بين التجمع الديموقراطى الافريقى وبين الحزب الشيوعى فى فرنسا ، فقد بدأ كثير من زعماء الحزب مثل «داربوزيه» السكرتير العام حياتهم السياسية كأعضاء فى الحزب الشيوعى الفرنسى ، ولكن بالتدرىح نزع أحد زعمائه البارزين وهو « فيلكس هوفوويه — بوانيه » (رئيس جمهورية ساحل العاج حاليا) نحو الاعتدال مما أدى الى تفكك الحزب بين نزعات يمين ويسار ووسط . ولقد أراد هوفوويه — بوانيه أن يعطى للحزب صفة افريقية جامعة — فزعم الحزب ينتمى الى مستعمرة ساحل العاج ولكنه رفض العمل على المستوى الاقليمى . وبدأ يؤسس فروعاً للحزب فى المستعمرات الفرنسية بغرب افريقيا ووسطها . ثم اتسعت آماله فصرح بأنه يرجو أن يمتد نشاط الحزب من تشاد وحتى رأس الرجاء الصالح ومن دكار حتى زنجبار . معنى ذلك أن « هوفوويه — بوانيه » أراد أن يلحق بحركة الوحدة الافريقية ، فلا يقتصر نشاط الحزب على المستعمرات الفرنسية وحدها . ويلاحظ من هذا التحديد أن « هوفوويه » كان يعتبر افريقيا هى الواقعة جنوب الصحراء الكبرى أما الكتلة العربية فى الشمال فلها فى رأيه أوضاع خاصة وتنتمى من الناحية الثقافية والاجتماعية الى منطقة البحر المتوسط .

وأذا كان التجمع الديموقراطى الافريقى قد ظهر فى أواخر الأربعينات على أنه أقوى منظمة سياسية فى المجموعة الفرنسية ، فإن شأنه قد تضائل بالتدرىح وذلك لمواجهة عدة صعوبات منها .

أولا — ظهور النزعات الاقليمية .

ثانيا — تأليف أحزاب على مستوى اقليمى ومن أشهرها حلف الدفاع عن مصالح الثولتا العليا . وهى إحدى مستعمرات افريقيا الغربية . فقد اعتنق هذا

الحزب الفكرة القائلة بأن شعب موسى الذي ينتشر في الثولتا العليا من أرقى شعوب أفريقيا الغربية ولذلك يجب أن يكون له كيان سياسى منفصل حتى انه دعا الى احياء دولة المورونابا ، وكان رد الفعل هو ظهور أحزاب صغيرة بأسم الأقاليم القبلية في تلك المنطقة ، مما أوشك أن يحيى النزعة القبلية التى ضعفت في معظم مستعمرات فرنسا . كذلك ظهرت أحزاب اقليمية قوية في السودان تدعو الى التمسك بتقاليد الدول الاسلامية القديمة في المنطقة وهى التى دعت الى احياء ذكرى دولة مالى باعطاء السودان هذا الاسم .

كذلك لم تظهر لحزب التجمع الديموقراطى قوة في موريتانيا لأنها رغم ضمها الى اتحاد غرب افريقيا فقد ظلت تعيش بعزلة عن الاتحاد وتعانى من مشاكل خاصة بها ، ذلك أن الاستعمار الفرنسى لم يتحقق في هذه المنطقة الصحراوية فظلت تابعة لادارة عسكرية واعتمد العسكريون على الزعامات التقليدية ، ولا سيما الزعامات الدينية من رجال الطرق الصوفية الذين تعاونوا منذ البداية مع الغزو الفرنسى . ولم تهتم الادارة الفرنسية بشهر الثقافة أو النظم الاجتماعية الحديثة . وانما اكتفت باستغلال المعادن وهكذا ظلت اللغة العربية أو البربرية منتشرة في موريتانيا، مما هيا السبيل لمطالبة المغرب بها ، ولكن طبقة المحافظين مالت الى التعاون مع فرنسا . ومن هنا ظهر الخلاف في الحركة الوطنية في موريتانيا منذ سنة ١٩٥٣ فظهر فريق المحافظين الذى يتزعمه مختار ولد دادا رئيس جمهورية موريتانيا حاليا وتمسك هذا الفريق بالبقاء داخل اتحاد افريقية الفرنسية ، وترى هذه الجماعة أن موريتانيا حلقة اتصال بين العالم الافريقى وبين العالم العربى في الشمال ، أما الفريق الآخر الذى يمثله « حرمة بن بابانا » فيعبر عن وجهة نظر بعض الشباب المثقف ، الذى أدرك أن ربط موريتانيا بالمغرب يسرع بسيرها نحو الاستقلال ، الا أن أنصار الفريق الأول تغلبوا في جميع الانتخابات المحلية التى أجريت في موريتانيا حتى ظهورها جمهورية مستقلة والواقع أن مطالب المغرب التى يهتم بها حزب الاستقلال بصفة خاصة لا تقتصر على موريتانيا في افريقيا الغربية بل تمتد الى الصحراء الأسبانية وتشمل جزءا من مالى والأقاليم الواقعة شمال السنغال .

كانت الزعامات الاقليمية اذن هى العامل الأول في اضعاف التجمع الديموقراطى أما العامل الثانى فهو نزعه « هوفوويه - بوانيه » الى التساهل مع الفرنسيين ،

وقد تراجع بنفسه عن فكرة أن الحزب يمثل أفريقيا بأسرها وأدرك أن للمستعمرات الفرنسية مميزات خاصة تفصلها بمشاكلها عن المستعمرات البريطانية التي هي أكثر تقدما من الناحية الاقتصادية ، ولكن يرى أن الانجليز يتعدون اجتماعيا عن الافريقيين ولذلك يصعب على سكان المستعمرات البريطانية الاندماج في البيئة البريطانية وقال « لا يمكن أن يتصور الانجليز جلوس رجل أسود بين مقاعد مجلس الوزراء في وست منستر أما الفرنسيون فلا يهيمون بحاجز اللون ، ولعله كان يثنى على الحكومة الفرنسية من زاوية مصلحته الخاصة فقد اختاره جى موليه حينما ألفت مجلس وزرائه سنة ١٩٥٦ ليكون وزيرا لشئون فرنسا لما وراء البحار .

وهكذا قام هوفوويه -- بوانيه مع الحكومة الاشتراكية في فرنسا بوضع ما يعرف بالقانون الاطارى للمستعمرات الافريقية ، وقد طبق هذا القانون نظرية الحزب الاشتراكي القائلة بضرورة الغاء الدوائر الثنائية ، وتطبيق نظام الاختراع العام .

وأهم من ذلك احتوى القانون الاطارى على تأسيس برلمانات محلية ولكنها غير كاملة السلطة ، فهي تصدر القوانين المحلية وتناقش ميزانية الاقليم ، ولكنها لا تستطيع أن تحاسب السلطة التنفيذية التي تمثل حكومة الجمهورية ، فحاكم الاقليم الفرنسى هو الذى يختار نائب رئيس الوزراء في الاقليم ويمكن وصف هذا النظام بأنه اللامركزية الادارية ولكن ليس بالنظام الفدرالى الذى دعا اليه كثير من أعضاء التجمع الديموقراطى مثل ليوبولد سنغور نائب السنغال آنذاك ورئيس جمهوريتها حاليا ، وقد انتقد على هوفوويه -- بوانيه شدة ولائه للفرنسيين الى حد أنه هو الذى وضع قانون سنة ١٩٥٧ الخاص باعلان الصحراء الكبرى أرضا وطنية فرنسية وانه اشترك في الحكومة التي قامت بالعدوان الثلاثى ولذلك انشق عليه جميع الزعماء اليساريين في التجمع الديموقراطى وأسسوا أحزابا جديدة فأسس سنغور الكتلة الديموقراطية للسنغال وهي حزب على مستوى اقليمى يرى قيام جمهوريات متعددة تتحد اتحادا فدراليا مع فرنسا ، وستتصر وجهة النظر هذه عند تولى دييجول الحكم . كذلك انشق على التجمع الديموقراطى ممثل الحزب في غينيا وعلى رأسهم أحمد تورى (سيكوتورى) وقد اتصل سيكوتورى بالحركة النقابية في غينيا وانتزع البلاد من يد الحزب الاشتراكي في انتخابات سنة ١٩٥٦ .. ولمبادئ سيكوتورى مميزات خاصة تجعل حزبه

حالة فريدة في مستعمرات غرب افريقية . فليس الحزب اشتراكيا أو تقديما فقط يؤمن بإمكان التعاون مع الأحزاب المماثلة في فرنسا ، بل انه تقدمى ووطنى في نفس الوقت ، ولعل السبب في ذلك هو أن سيكوتورى لم يتعرض لمثل ما تعرض له معظم الزعماء الافريقيين من التشبع بالبيئة الفرنسية ، فليوبولد سنغور شاعر يقرض الشعر بالفرنسية ، وله كتابات فلسفية بتلك اللغة ، هذا فضلا عن أن سيكوتورى ينتمى الى أسرة اسلامية عريقة هي أسرة سامورى من مؤسسى الدول الاسلامية في غرب افريقيا عند نهاية القرن التاسع عشر ، ولذلك مال سيكوتورى الى احياء التقاليد الافريقية وانشاء دولة قومية لا صلة لها بفرنسا ، وانتقد الأحزاب والمنظمات السياسية الأخرى ، التى تضم أعضاء أوروبيين وافريقيين ، لذلك طهر حزبه من الأوربيين ، وعندما أجرى ديجول استفتاء على النظام الجديد للجمهورية في سبتمبر سنة ١٩٥٨ كانت غينيا هى الاقليم الوحيد من بين المستعمرات الفرنسية في أفريقيا الذى قرر الانفصال بأغلبية ٩٥ ٪ .

ظهور الجمهوريات الحديثة

سار التطور السياسى فى المستعمرات الفرنسية بطيئا منذ نهاية الحرب الثانية حتى سنة ١٩٥٦ ولكن المستعمرات شهدت خلال مدة قصيرة بعد ذلك من سنة ١٩٥٦ : سنة ١٩٦٠ تغييرات دستورية سريعة انتهت بها الى الاستقلال السياسى التام وكانت المرحلة الأولى هى ما ذكرنا من قيام برلمانات محلية لها سلطة تشريعية فى سنة ١٩٥٦ ، وعلى الحاكم العام أن يختار نائب رئيس الوزراء من بين حزب الأغلبية فى تلك البرلمانات - أما المرحلة الثانية فتتمثل فى دستور الجمهورية الخامسة سنة ١٩٥٨ ، وقد انتهت هذه المرحلة بسرعة عند ما عدل الدستور وظهرت الجمهوريات الحديثة كاملة السيادة سنة ١٩٦٠ ، وقد تمت هاتان المرحلتان فى عهد رئاسة ديجول للجمهورية ، ويبدو أن ديجول كون أفكاره فى هذه المشكلة الاستعمارية بناء على الفترة التى عاشها خلال الحرب الثانية ، حين لمس بنفسه أكثر من أى شخص آخر قيمة التعاون الافريقى ، وكيف أدى هذا التعاون الى تحرير فرنسا من الاحتلال الألمانى .

ولذلك كان يعتقد بأن الوضع المثالى هو أن تشترك المستعمرات اشتراكا فعلا فى بناء عائلة موحدة هى العائلة الفرنسية ، وتقوم فرنسا بدور المرشد فى

هذه العائلة ، على أن يتم ترابط الأعضاء فيها بكل حرية ويبدو هذا الاتجاه من عدة نصوص في دستور الجمهورية الخامسة منها ذلك النص الذي يشرك المستعمرات في انتخاب رئيس الجمهورية .

وفي ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨ قدم ديغول للمستعمرات مشروع الدستور الجديد الذي يحدد علاقات هذه المستعمرات بفرنسا ، فاذا وافقت على الدستور تبقى داخل العائلة الفرنسية والا انفصلت عنها . وقبل اجراء الاستفتاء طاف ديغول بالأقاليم الافريقية المختلفة واعدت بتغيير القانون الاطاري لسنة ١٩٥٦ بحيث يصبح للأقاليم سيادة داخلية ولكنه هدد بقطع المعونة الاقتصادية عن الدول التي تختار الانفصال ، وسواء آكان هذا التهديد قد أزعج بعض الساسة الافريقيين أم أن تشبعهم بالثقافة الفرنسية قد أثر على ميولهم السياسية ، فقد لعب هؤلاء الساسة دورا كبيرا في الدعاية بين الشعوب الافريقية حتى اختارت جميعا باستثناء غينيا البقاء في العائلة الفرنسية وانضمت لها فعلا خلال شهرى نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٥٨ ، رغم أن الدستور كان بعيدا في روحه عن مبدأ استقلال المستعمرات وسيادتها فهو ينص « على أن يخير الأعضاء بين ثلاث أوضاع ، البقاء على وضعها الراهن ، أو التحول الى أقاليم مندمجة في فرنسا، أو جمهوريات ذات سيادة داخلية » وهذا الوضع الأخير هو الذى اختارته جميع المستعمرات التى بقيت في العائلة الفرنسية . وللعائلة الفرنسية حسب الدستور ثلاثة أجهزة ، الرئيس وهو رئيس الجمهورية الفرنسية ، ومجلس الدستور ثلاثة أجهزة ، الرئيس وهو رئيس الجمهورية من ٢٤٨ عضوا منهم ١٨٨ عن فرنسا والباقي عن دول الأعضاء . ويراعى عدد السكان وثروة كل جمهورية في تحديد عدد المقاعد المخصصة لها في مجلس الشيوخ ف ساحل العام الذى يضم أكثر من ثلاثة ملايين نسمة يمثل ١١ شيخا ، وجمهورية أفريقيا الوسطى ثلاثة ، ويمثل الجمهورية الفرنسية صاحبة السيادة مندوب سامى في الدول الأعضاء وتختص الجمهورية الفرنسية بالشئون الخارجية والدفاع والنقد والاصلاح المالى والتعليم والمواصلات ... واذن فالنظام الذى يقيمه دستور الجمهورية الخامسة هو الاتحاد الفدرالى .

ولا يلغى نظام ديغول مبدأ التفرقة بين فرنسا وبين الدول الأعضاء في العائلة الفرنسية فبينما يشترك جميع من لهم حق الانتخاب في فرنسا في الاستفتاء على

رئاسة الجمهورية ، يقتصر حق انتخاب الرئيس بالنسبة لدول العائلة الفرنسية على أعضاء المجالس المحلية والبلدية .

ولما اطمأن ديغول الى ميول معظم زعماء المستعمرات الى بقاء الروابط مع فرنسا لم يعارض في أن يطور نظام الاتحاد الفدرالى بسرعة . ففي ابريل سنة ١٩٦٠ بدأت فرنسا بوضع نظام جديد للدول الأعضاء في العائلة الفرنسية ، يسمح لها بممارسة السيادة التامة في الشؤون الداخلية والخارجية . وقد طبق هذا المبدأ على مدغشقر أولا فبرزت الى الوجود أول جمهورية مستقلة في المجموعة الفرنسية باسم جمهورية ملجاسى وبمقتضى النظام الجديد يصبح وضع العائلة الفرنسية أشبه بالكومنولث البريطانى مع فارق هام هو أن الجمهوريات التى استقلت فى اطار المجموعة الفرنسية ترتبط مع فرنسا بنوعين من المعاهدات ، معاهدات دفاعية تتضمن حق فرنسا فى انشاء قواعد عسكرية فى اراضى تلك الدول . ومعاهدات اقتصادية تنص على أولوية البضائع الفرنسية فى التجارة الخارجية لتلك الدول . وهذا الحق وان كان متبادلا الا أن فرنسا هى التى تستفيد منه فى الغالب .

وبعد ظهور جمهورية ملجاسى فى ايرل سنة ١٩٦٠ توالى قيام الجمهوريات المستقلة الأخرى خلال شهرى يوليو وأغسطس بعد أن ارتبطت مع فرنسا بمعاهدات مشابهة وفيما يلى بيان بأسماء هذه الجمهوريات وسكانها حسب احصاء سنة ١٩٥٩

افريقيا الغربية

اسم البلد	المساحة (بالكيلومتر المربع)	السكان
جمهورية داهومى	١١٥٧٦٢	١٧١٣٠٠٠
جمهورية ساحل العاج	٢٢٢٤٦٣	٣٢١٤١٠٠
جمهورية السنغال	١٩٧١٦١	٢٢٦٩٠٠٠
جمهورية فولتا العليا	٢٧٤١٢٢	٣٢٢٦٠٠٠
جمهورية مالى	١٢٠٤٠٢١	٣٧٠٨٠٠٠
جمهورية موريتانيا الاسلامية	١٠٨٥١٠٠	١٠٠٠٠٠٠ منهم ٦٢٤٠٠٠ مغاربة
جمهورية النيجر	١١٨٨٧٩٤	٢٤١٢٠٠٠

افريقيا الاستوائية

اسم البلد	المساحة (بالكيلومتر المربع)	السكان
جمهورية افريقيا الوسطى (أوبنجي شاري)	٦١٧ر٠٠٠	١ر١٥٧ر١٦٦
جمهورية تشاد	١ر٢٨٤ر٠٠٠	٢ر٥٧٦ر٠٠٠
جمهورية جابون	٢٦٤ر٠٠٠	٤٢٠ر٧٠٩
جمهورية الكونغو الوسطى	٢٤٢ر٠٠٠	٧٩٤ر٥٧٧
التوجو والكاميرون		
جمهورية توجولاند	٥٠ر٠٠٠	١ر٠٨٩ر٨٧٧
جمهورية الكاميرون	٤٣٢ر٠٠٠	٣ر٢٢٣ر٠٠٠

ويلاحظ من هذا الجدول ضآلة السكان في المستعمرات الفرنسية السابقة ولكن هذا لم يمنع من تعدد الوحدات السياسية هذا التعدد الكبير ويمكن مقارنة هذه الجمهوريات بالدول التي نشأت في غرب افريقيا وكانت في السابق مستعمرات بريطانية تكاد دولة نيجيريا وحدها أن توازي عدد السكان في جميع تلك الجمهوريات ان لم تزد .

وبالإضافة الى مدغشقر يصبح عدد الدول الافريقية الأعضاء في المجموعة الفرنسية ١١ باعتبار أن مالي ما لبثت أن تركت العائلة الفرنسية يوم أن انفك الاتحاد الذي أقامته مع السنغال في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٦٠ . ونتيجة لهذا صفت القواعد الفرنسية وتم الجلاء عنها في ٧ سبتمبر سنة ١٩٦١ ، ولكن لا بد من اضافة التوجو والكاميرون الى مجموعة الدول التي ترتبط بمعاهدات مشابهة مع فرنسا ، ذلك أنه قبل أن تنهى فرنسا فترة وصايتها على هذين البلدين ساعدت الأحزاب الموالية لها على تولي السلطة ، وفي التوجو مثلا أجرى استفتاء في أكتوبر سنة ١٩٥٦ حول مستقبل البلاد فطالب ٧٥٪ من الأصوات بالاستقلال الذاتي داخل المجموعة الفرنسية وقد قبلت لجنة الوصاية التابعة لهيئة الأمم المتحدة التقرير الذي قدمته الادارة الفرنسية عن منح التوجو والكاميرون استقلالهما في سنة ١٩٦٠ بعد ارتباطهما بمعاهدات مع فرنسا تنص على المساعدة الاقتصادية والعسكرية ، ومع أن الكاميرون كانت اقليما تحت الوصاية فقد لعبت الادارة الفرنسية دورا تعسفيا ضد الحركة الوطنية ، واستطاعت في النهاية

أن تزيف الانتخابات لصالح أنصارها ولذلك دخلت الكامبيرون بعد اعلان استقلالها في يناير سنة ١٩٦٠ في المجموعة الفرنسية .

ويلاحظ أن حدود هذه الجمهوريات تبنى على أساس التقسيمات الادارية في عهد الاستعمار الفرنسى وهذه التقسيمات لا تلتقى مع التوزيعات القبلية أو اللغوية في افريقيا الغربية والاستوائية . فثمة مجموعات قبلية ضخمة تنتشر في أكثر من جمهورية مثل مجموعة الفولاني والبمبارة والتكرور ، كما أن الجمهورية الواحدة قد تحوى عدة قبائل صغيرة تختلف من حيث اللغة والتنظيم الاجتماعى ، وتوجد بغرب افريقيا وحدها نحو ١٥٠ لغة ولهجة مختلفة ، هذا علاوة على تعدد الأديان فهناك الوثنية والمسيحية بمختلف طوائفها ، والاسلام . ويلاحظ أن الاسلام قد انتشر على نطاق واسع في القرن ١٩ في غرب افريقيا فلا تكاد تخلو منه جمهورية من هذه الجمهوريات وهو دين الغالبية في النيجر ومالى والسنغال وموريتانيا وتشاد . وهكذا يلاحظ أن تبعية هذه البلاد لاستعمار واحد كان رابطة هامة في تطور حياتها من الناحيتين الاجتماعية والسياسية وأثر هذا على اتجاهاتها السياسية بعد الاستقلال . وقد حاول بعضها تكوين اتحادات قوية فيما بينها علاوة على وجودها داخل المجموعة الفرنسية ، وأهم محاولة من هذا النوع هى انشاء اتحاد مالى من السنغال ودولة مالى ، ولكن هذه التجربة لم تدم أكثر من بضعة شهور اذ قررت جمهورية السنغال الانفصال عن الاتحاد . ولكن هناك اتجاه الى انشاء نوع آخر من الاتحادات أضعف من الاتحاد الفدرالى الذى حاولته مالى ، تحتفظ فيه كل جمهورية بكيانها على أن يجتمع ممثلو حكوماتها دوريا لتنسيق السياسة الاقتصادية ، وقد حاولت أربع من جمهوريات افريقيا الغربية مثل جمهوريات افريقيا الاستوائية انشاء نوع من هذا الاتحاد وهى الفولتا العليا ، داهومى ، ساحل العاج والنيجر .

وقد صيغت دساتير معظم هذه الجمهوريات على نمط دستور الجمهورية الخامسة في فرنسا أى أنها أخذت مبدأ الجمهورية الرئاسية مع هذا الفارق وهو أن معظم هذه الجمهوريات الافريقية لا تقيم رئيسا للوزراء بجانب رئيس الجمهورية . وكانت هذه الجمهوريات الناشئة تشكل غالبية الأعضاء في مؤتمر افريقى انعقد في مونروفيا في مايو سنة ١٩٦١ ويبدو أن هذا المؤتمر يهدف الى تكوين كتل في افريقيا ليقابل كتل الدول الافريقية التى اشتركت في مؤتمر

الدار البيضاء ، ويتضح من قرارات مؤتمر مونروڤيا أن لهذه الدول رأيا في الوحدة الافريقية يختلف عن رأى دول الدار البيضاء وهو يقوم على أساس أن تنازل احدى الدول الافريقية عن شئ من سيادتها لدولة أخرى يتعارض مع استقلال افريقيا واستقرارها .

وقد قبلت جميع هذه الجمهوريات أعضاء في هيئة الأمم المتحدة باستثناء موريتانيا فقد واجهت مشكلتين : أولاها معارضة المغرب والدول الافريقية الصديقة لها . والثانية وهى الأهم اعترض الاتحاد السوفيتى لا من أجل المغرب بقدر ما هو تعبير عن الصراع العالمى بين الكتلتين . فقد علق قبول موريتانيا على قبول دولة شيوعية أخرى فى الأمم المتحدة هى دولة منغوليا .

وأخيرا حلت المشكلة بقبول الدولتين فى دورة سنة ١٩٦١ — ١٩٦٢

المراجع

1. Annuaire Statistique de la Communauté Française de l'an 1961.
2. Culmann Henri-L'union Française. Paris. 1950.
3. Cornevin Robert-Histoire de L'afrique.
4. Hanotau-Gabriel-Histoire de Colonies Française Paris. 1930.
5. Hardy-George-Histoire de la Colonisation Française Paris 1937.
6. Tomson-Virgania and Adlof Richard. French west Africa-London 1958.

المسجد في فجر الاسلام

للكنور على حسنى الخربوطلى

مدرس التاريخ الاسلامى

مسجد المدينة أول المساجد في الاسلام :

كان مسجد المدينة هو أول مسجد أنشأه المسلمون في صدر الاسلام . فقد خرج محمد صلى الله عليه وسلم وصديقه أبو بكر مهاجرين من مكة الى يثرب ، فوصلا في نهاية رحلتها الشاقة الى (قباء) وهو تل على بعد ميلين من مكة ، وكان مصيفا لأهل مكة ، يرسلون اليه مرضاهم اذا كان هواؤه عليلا نقياً ، كما امتاز بالخصوبة فكان يمد مكة بما تحتاجه من فاكهة . وحينما بلغ الصديقان هذا المكان الحصب ، بركت ناقة محمد (القصواء) وأبت الاستمرار في المسير ، ورأى الرسول أن يكث في قباء حتى يتأهب لدخول المدينة . وأقام المسلمون في هذا المكان مسجدا سموه مسجد (التقوى) تخليدا لهذه الذكرى المجيدة . وتذكر معظم المصادر العربية أن الرسول هو الذى أنشأ المسجد ثم أكمله عمار بن ياسر ، وقد جاء ذكره في الآية ١٩٨ من سورة التوبة .

كانت الأرض التى أقيم عليها مسجد المدينة الجديد ملكا لأخوين يتيمين هما سهل وسهيل ، سألهما الرسول عن ثمن الأرض فأبديا استعدادهما للتبرع بها فقالا : لا نطلب ثمننا لها الا ثوابا من الله . لكن الرسول حدد ثمنها بعشرة دنانير دفعها أبو بكر من ماله (١) . وكانت هذه الأرض تنتشر عليها القبور وأشجار النخيل ، فنقلت الجثث من القبور ، وقطعت أشجار النخيل ، ثم بنى محمد مسجدا بسيطاً في مظهره وطريقة بناءه، يتناسب مع الدين اليسر السمح الذى يدعو اليه (٢) .

(١) الطبرى - ٢ ص ١٦٣

(٢) انظر كتاب (حياة محمد) لارفنج الذى قمنا بترجمته ، ص ١٢٥

كان هذا المسجد عبارة عن ساحة مكشوفة الى السماء تحيط بها جدران من اللبن ، وقده أمر الرسول فيما بعد أن تمتد السقوف المسطحة من الأبنية المجاورة حتى تحيط كل الساحة المكشوفة اتقاء للشمس . وكان السقف مكونا من جذوع النخل التي اتخذت كدعائم يرتكز عليها الجريد والطمى وبلغت مساحة المسجد حوالي مائة ذراع مربع ، وكان له ثلاث أبواب ، أحدها نحو الجنوب حيث أصبحت القبلة فيما بعد ، والثاني كان يسمى باب جبريل ، والثالث باب الرحمة .

اشترك الرسول بيديه في بناء هذا المسجد . وعند ارساء الأساس حمل الرسول حجرا ضخما فالتصق الغبار بصدرة ، وأراد الصحابة نهيته عن ذلك لكنه أبى ، وأمر أبا بكر أن يضع حجره الى جنب حجر الرسول ، ثم أمر عمر ابن الخطاب أن يضع حجره الى جانب حجر أبي بكر ، ثم وضع أشرف المسلمين أحجارهم ، وتبعهم عامة المسلمين ، وكان الرسول يحمل اللبنة في ثوبه ، فيحذو المسلمون حذوه (١) .

أصبح هذا المسجد فيما بعد مقبرا للرسول وحرما نبويا . ورغم أنه قد أدخل عليه فيما بعد اصلاحات كثيرة فزادت مساحته الا أنه ظل دائما يحمل اسم (المسجد النبوي) ، فقد بناه الرسول بيديه (٢) .

تيز كل شيء في المسجد في بداية الأمر بالبساطة التامة . فكان يضاء في الليل بسعف النخيل ، فلم تكن قد عرفت المصاييح والزيت بعد . وكان الرسول يخطب في المسلمين وهو واقف على الأرض مستندا بظهره الى جذع نخلة من الجذوع التي استخدمت كأعمدة للمسجد وبعد فترة ، أقام منبراً جعله يرتفع ثلاث درجات عن المسجد ، وكان الرسول يخطب من فوق المنبر جالسا أو واقفا أو مستندا الى عصا .

لا نستطيع أن نجزم اذا كان الرسول قد اتخذ له محرابا لتحديد اتجاه القبلة في مسجده أم لا . وكان الناس اذا قاموا للصلاة وقفوا صوفوا متوازية مولين وجوههم شطرا الجدار المواجه لبيت المقدس ثم حول الاتجاه فيما بعد الى مكة .

(١) الطبري - ٢ ص ١٦٥

(٢) أرنج : حياة محمد ص ١٢٦

وكان بلال الحبشى يعتلى السقف المسطح ويدعو المسامين بصوته الندى الى الصلاة . من هذا الوصف يمكن أن نرى مميزات المسجد الجامع فى أبسط صورها ، وهى الصحن والسقف لوقاية المصلين والمنبر (١) .

المساجد فى الأمصار الاسلامية فى فجر الاسلام :

فى عهد الخليفين أبى بكر وعمر بن الخطاب خرجت الجيوش الاسلامية من الجزيرة العربية الى الأقطار المجاورة الخاضعة للدولتين الفارسية والرومانية فتفتحتها وتشر فيها الاسلام والحضارة العربية . وكان المسلمون يحرصون على بناء مسجد جامع عند انشائهم المدن فى الأمصار المفتوحة لأنه أبرز صورة يعبرون بها عن سيادة الدين الاسلامى (٢) .

تقدم العرب فى الأراضى الفارسية والرومانية ، وأسقط هذا التقدم فى حوزتهم عددا لا يحصى من المبانى التى شادها صناع أكثر منهم فنا ، فورث العرب الخبرة والمهارة الفنية . وقد كان من نتيجة هذا الاندماج أن تطورت حاجات المجتمع الاسلامى الدينية التى حددها مسجد المدينة واصطبغت بصبغة الأقاليم التى فتحوها ، فنشأ بمرور الزمن فن يطلق عليه اسم الفن الشرقى أو الفن العربى أو الاسلامى . أما مادة البناء فسواء أكانت من الحجر أو الآجر أو اللبن فهذه كانت تخضع للظروف الغالبة فى كل منطقة ، ففى الشام تأثرت العمارة الاسلامية بطراز الشام المسيحى البيزنطى وما سبقه من الأطرزة الوطنية والرومانية . وفى العراق وفارس تأثرت بالطراز النسطورى والساسانى الذى أقامته التقاليد هناك . وفى مصر كان السكان الأقباط من أهل البلاد يقومون بعمل الزخارف البديعة .

كانت ثقافة وفنون الأمصار المفتوحة ذات طابع يونانى وسريانى وقبطى وفارسى ، نستطيع أن نجمل وصفها بقولنا أنها ثقافة هيلينية مسيحية . وقبل أن يلم العرب بالثقافة الهيلينية كانوا قد ألفوا منذ زمن طويل الفن الهيلينى وعمائره . ويستطيع المرء أن يتبين جليا التفاعل والتجاوب بين الاسلام والنصرانية فى ميدان الفن . ذلك أن جيوش الاسلام رأت فى المدائن ودمشق وبيت المقدس ومصر

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٣

(٢) انظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الاموى) ص ٢٢٧

أعمال الفن من عمارة ونحت ، وشاهدت بدائع الصناعات كالنسيج والصبغة ، فأيقظ ذلك كله في نفوس العرب الرغبة في تقليدها وجلبها لأنفسهم . ذلك أن العرب على النقيض من الشعوب الهمجية ، تجنبوا التخريب ، وحافظوا على تلك الكنوز الفنية ، وأضافوا عليها طابعهم الخاص (١) .

ظهرت عدة مدارس متميزة للفن العربي وهي : (١) السورى المصرى وكان يحتذى فيه المثل اليونانى الرومانى وما سبقه من اطرزة وطنية . (٢) الطراز العراقى الفارسى المأخوذ من الطراز الساسانى والطرازين الكلدانى والآشورى القديمين (٣) طراز الأندلس واقريقيه الشمالية ويتضح فيه الأثر الوطنى المسيحى والتوطى وكان يسمى الطراز المغربى (٤) الطراز الهندى وتبدو فيه معالم الطراز الهندوسى (٢) .

كان أول مسجد جامع أنشأه المسلمون فى الأمصار هو مسجد المدائن بالعراق (٣) ، وقد أنشأه سعد بن أبى وقاص وأصحابه (٤) . فما كاد يدخل المدائن حتى « أمر الناس بايوان كبرى فجعل مسجدا للأعياد ، ونصب فيه منبرا ، فكان يصلى فيه وفيه التماثيل » (٥) . وعند انشاء البصرة قام عتبة بن غزوان ببناء مسجدها ، وعند تمصير الكوفة قام سعد بن أبى وقاص ببناء مسجد فيها ، ثم بنى سعد مسجد الأنبار (٦) . وكان مسجد الكوفة كمسجد البصرة فضاء مربعا مكشوبا تحيط به أسوار من القصب حولت فيما بعد الى أسوار من الطين واللين . وكان المسجدان يشبهان مسجد الرسول فى المدينة .

وفى مصر ، بنى عمرو بن العاص فى القسطنطينية أول مسجد فى القارة الافريقية . ويذكر (هل) (٧) أن عمرو استعان بمهندس نصرانى ، فقد كان عمرو مرتبطا بمعاهدة

-
- (١) جوزيف هل : الحضارة العربية (ترجمة الدكتور العدوى) ص ٥٩
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٤ (ترجمة مبروك نافع) .
(٣) نخالف بذلك رأى الدكتور حتى الذى يذهب الى أن أول مسجد هو مسجد البصرة .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٨
(٥) الطبرى - ٤ ص ١٧٧
(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٨
(٧) الحضارة العربية ص ٥٩

مع المسيحيين ، تقضى بترك كنائسهم وعدم التدخل في شؤون عبادتهم . وكان جامع عمرو مستطيل الشكل ، بسيطاً ، ليس محراباً ولا مئذنة ، وقد زوده عمرو فيما بعد بمنبر صنعه وأهداه إليه ملك النوبة المسيحي .

وفي الشام ، وجد العرب في دمشق كنيسة القديس يوحنا ، التي كان لها تأثير عميق في نفوسهم جعلهم يتخذونها مقراً لصلاتهم ، وكان بناء معمارياً فاخراً ، مشيداً على أطلال معبد وثني ، ولها باب عظيم ، فتكون سده من أعمدة كورنثية تعلوها تيجان ثمينة الزخرفة ، وتغطي قبابها صحن الكنيسة ، على حين تغطي الفسيفساء المذهبة المتلاثة جزءاً من جدرانها الداخلية . وأخذ المسلمون الأجزاء الشرقية لأنفسهم ، وأصبحوا يرون مع المسيحيين من باب واحد لأداء الصلاة في القم الخاص بهم ونقب المسلمون في بيت المقدس عن المسجد الأقصى (معبد سليمان من قبل) الذي تحدث عنه النبي ليلة أسرى به ، وشيد عمر عند المكان الذي عرج منه الرسول مسجداً (١) .

لما تولى معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيد كنيسة القديس يوحنا في المسجد بدمشق ، فأبى النصارى ذلك فأمسك ، وحاول عبد الملك بن مروان أن يدفع لهم مبلغاً من المال فأبوا أيضاً ، وأعاد الوليد بن عبد الملك نفس المحاولة وهدد بهدم الكنيسة ، ونفذ وعيده فهدم الكنيسة وأدخلها في المسجد . فلما تولى عمر بن عبد العزيز شكى النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاده في المسجد عليهم ، فكره أهل دمشق ذلك ، وأخيراً اتفق عمر مع النصارى على أن يترك لهم جميع كنائس الغوطة مقابل عدم مطالبتهم بكنيسة يوحنا (٢) .

كان مسجد المدينة أول مسجد صنع له محراب ، وسرعان ما أصبح المحراب ظاهرة عامة في كل المساجد ، وكان كالمذبح المسيحي يعتبر مكانه أقدس الأماكن في البناء ، ومن أجل ذلك كانت المحاريب يبالغ في زخرفتها كثيراً ، ونستطيع بناء على هذا أن نقرر أنها تعتبر المقياس الذي تقاس به تطور الأطرزة في فن الزخرفة الإسلامية .

(١) هل : الحضارة العربية ص ٥٩

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٣١

بعد مصرع على بن أبي طالب ومحاولة الاعتداء على حياة معاوية بن أبي سفيان، أدخل معاوية المقصورة على المسجد، وهو جزء في داخل المسجد يحيط به سياج. وكما أدخل الأمويون المقصورة، أدخلوا المئذنة، وعلى ذلك فبلاد الشام تعتبر الموطن الأصلي للمئذنة وفيها كانت المئذنة تأخذ شكل برج المرقب الوطنى أو برج الكنيسة المربع الذى تلاه. فقد كانت مئذنة المسجد الأموى فى دمشق فى الأصل مرقبا (ناطورا) يتبع كنيسة القديس يوحنا (١).

ثم زيد الايوان على المساجد، وهو عبارة عن صحن كبير تقوم فيه الأعمدة الضخمة، ترد المطر وحرارة الشمس، كما تقوم فيه فى الوقت نفسه أقية الماء لوضوء المصلين، وأصبحت المساجد تضاء بالشموع والقناديل (٢).

كانت المساجد التى شيّدت خلال العصر الأموى أكثر فخامة من المساجد التى شيّدت فى بداية الفتح العربى، ويعلّل (ديمومين) (٣) ذلك بأن الفاتحين من المؤمنين كانوا شديدى الاعجاب بفخامة الكنائس النصرانية، فأرادوا أن يظهروا قدرتهم على أن فى امكانهم أن يضارعوا النصرانية ويبنوا مساجد لا تقل جمالا عن كنائسهم.

دور المساجد فى حياة المسلمين العامة :

كانت المساجد فى فجر الاسلام مركزا من مراكز الحياة العامة : مركزا للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية الى جانب وظيفته الدينية . كان المسجد مركزا للناس ، ومقرا للسياسة ، ومعددا للعلوم المختلفة ، فيه يجتمع الناس ، وفيه ينتقدون حكامهم ، وفيه تذاع قرارات الدولة ، أو تعلن الثورة ، وفيه تدرس العلوم والآداب والفقه ، فقد كان المسجد يختلف تماما عن مساجد اليوم ، ويمكننا أن نشبهه بالبرلمانات فى الوقت الحاضر ، فقد كان يشبه الميدان الرومانى كمركز للحياة السياسية والاجتماعية (٤).

اتخذ ولاة الخلفاء الراشدين من المساجد أماكن مختارة يصرفون منها شئون الحكم ويحفظون فيها أموال المسلمين (٥). ولعبت المساجد دورا فى بث روح

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٧

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٣

(٣) النظم الاسلامية ص ٢٦٣

(٤) أرنولد : الخلافة ص ١٧

(٥) الطبرى : ٤ ص ١٩١

الثورة في نفوس أهالي الأمصار الإسلامية ضد عثمان بن عفان^(١). ثم أصبحت المساجد في عهد الدولة الأموية هي كل شيء بالنسبة لولاية الأمصار ، فقد كان على كل أمير أن يقصد الى مسجد الولاية حين يوليه الخليفة عليها ، وهناك يعلن سياسته الجديدة على الناس من منبرها ، وبعد قيامه بهذا الواجب التقليدي يصبح أميراً لهذه الولاية ووكيلاً للخليفة بصورة رسمية شرعية . وكانت كتب الخليفة وأوامره تقرأ على الناس في المساجد . وكثيراً ما كان الولاة الأمويون يعثون مناديتهم لينادوا في الطرقات العامة يدعون أهلها الى صلاة جامعة ولا يكون اليوم يوم جمعة ، ومعنى ذلك أن الوالي يريد الصلاة في المسجد ويريد أن يحضر اجتماعه كل المسلمين حتى يبلغهم أمراً أو يشرح سياسة جديدة ، وكان بعض الولاة يأمرون الشرطة باحضار الناس الى المسجد بالقوة ، وكان منادى زياد بن أبي سفيان ينادي في طرق الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الوفاء والشرط والحرس لم يحضر المسجد »^(٢) . وكان زياد يخرج سريره من قصر الامارة الى مسجد الكوفة حتى يجتمع الناس حوله ، فقد كان يكره اجتماعهم في بيوتهم^(٣) . وكانت المساجد المكان الذي تحشد عندها الجيوش ، وتخرج مناصداً وجهتها للقيام بالفتوح والغزوات .

كانت أرض المساجد تغطى عادة بالحصباء . وجرت عادة أهل العراق في مساجدهم أن يحصبوا ولائهم اذا لم يعجبهم حديثهم ، وكان المغيرة بن شعبه يسكت عن حصبه له ، ولكن زياد بن أبي سفيان أراد أن يمنع هذه العادة ، فلما حصبه أهل الكوفة في المسجد أرغم جميع الحاضرين على القسم على عدم اشتراكه في الحصب ، وقطع أيدي كل من أبوا القسم^(٤) ، وأخيراً رأى زياد أن ينشئ المقصورة في مسجد الكوفة ليتجنب حصبه^(٥) ، وكانت المقصورة عبارة عن سياج حول المحراب^(٦) . أما الحجاج بن يوسف فكان يأمر حرسه بالوقوف على أبواب مسجد البصرة حتى اذا حصبه أهلها أعملوا فيهم القتل^(٧) .

(١) الأصفهاني : الأغاني - ١١ ص ٢٨ (طبعة دي ساسي) .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٥٣

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٦

(٤) الطبري - ٦ ص ١٣١

(٥) الطبري - ١ ص ١٣٢

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٨

(٧) ابن قتيبة : الامامة والسياسة - ٢ ص ٣٢

كانت المساجد مركزا للقيام بالشعائر الدينية ، وكانت المصاحف تحفظ بالمساجد ، واهتم الولاة الأمويون بالأذان والخطب في المساجد . وكان المؤذنون يتوارثون -- عادة -- الأذان ^(١) . وكان بشر بن مروان بن الحكم أول من أحدث الأذان في العيدين ، وأول من جعل الخطبة خطبتين وقعد في الأولى منهما ^(٢) . وكانت الامامة في الصلوات الخمس في المساجد الحكومية لمن ينتدبه الوالي أو الخليفة ورزقه من بيت المال ، أما مساجد العامة فالامام يختار برضا المصلين ، أما الامامة في صلاة الجمعة فهي للوالي أو نائبه ^(٣) . وكان المختب يمنع اطالة الصلاة ، لأن الضعفاء يعجزون عن ذلك ، كما أن هذه الاطالة تعطل أصحاب الأعمال ، وكان الرسول ينهى عن ذلك دائما ^(٤) . كما كان المختب يعاقب كل من ترك صلاة الجمعة ^(٥) .

اتخذ المسلمون المساجد مركزا من مركز الحياة الاقتصادية ، فكانت مكانا يحتفظ به الخلفاء والولاة لحفظ الخزانة العامة ، وكان الصيارفة يجلسون على أبواب المسجد حيث يقومون بعمليات مبادلة العملة النقدية أو اقراض المحتاجين ، كما كان كثير من التجار يحرسون على عقد صفقاتهم التجارية في المساجد ، وكثيرا ما أقيمت الأسواق على مقربة من المساجد .

لعبت المساجد دورا كبيرا في النهضة العلمية والأدبية في صدر الاسلام ، وخاصة مساجد البصرة والكوفة ، فقد صارت هاتان المدينتان مركزين نشطين للحياة العلمية، ولم يكن في القرن الأول الهجري مدينة تستطيع منافستها، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه ، وفيهما نشأت مدرسة النحويين واللغويين ^(٦) . ولذا يعتبر (نيكلسون) ^(٧) البصرة مركز الحياة العقلية في الاسلام . ولعل من الأسباب التي أدت الى ازدهار الحياة العلمية والأدبية في العراق في العهد الأموي أن أهل العراق رأوا أن ينصرفوا عن السياسة حتى لا يتعرضوا لاضطهاد ولاتهم الأمويين ، فوجهوا اهتمامهم الى الاشتغال بالعلوم والآداب ، كما أن

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٦

(٢) ابن رسته : الأعلام النفسية ص ١٩٩

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٣٠

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٤٣

(٥) المرجع السابق ص ٢٤٣

(٦) يارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٠

(٧) Lit. Hist. of the Arabs, P. 220

«لوالى أرادوا أن يصلوا الى مرتبة العرب ، فأقبلوا على تعلم اللغة العربية حتى اذا أجادوها بدأوا ينهلون من مناهل الأدب والعلم (١) .

شهدت المساجد الكثير من مظاهر هذه النهضة العلمية والأدبية ، وكان الكراهية بعض المسلمين للغناء والموسيقى والفنون أثره في نشاط المجالس الأدبية في المساجد (٢) . وكانت المساجد بمثابة مدارس يقصدها طلاب العلم ، فقد كان كل عالم يتخذ سارية من سوارى المسجد يجلس تحتها ، ويلتفت طلابه وتلاميذه حوله . وهناك كانت الصبية تتلقى دروس القرآن ثم العلوم العربية كالتفسير والحديث والفقه وأصول الدين والنحو واللغة والبيان والأدب . وكان المحتسب يراقب المعلمين حتى لا يقصرون في عملهم (٣) . وكثيرا ما شهدت المساجد المجالس الأدبية التي كان يعقدها العلماء ، وتدور فيها محاورات أدبية حول التفضيل بين الأمصار والمدن (٤) . كما شهدت المساجد كثيرا من المحاورات والمناقشات التي تدور حول العصبية القبلية وتفضيل قبيلة على أخرى وخاصة بين تميم وقيس .

كان القصاص يتخذون من المساجد مكانا مختارا لقص قصصهم . فيجلس القاص بالمسجد ويلتفت حوله الناس ، فيروى لهم القصاص والتواريخ التي تمتزج فيها العبرة بالتسلية . وكان هناك نوعان من القصاص : قصص العامة ، وقصص الخاصة ، « فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظّم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية ، ولى رجلا على القصاص ، فإذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ودعا على أهل حربه وعلى المشتركين كافة (٥) » .

كان على بن أبي طالب يأمر بطرد القصاص من المساجد ، أما معاوية فقد اعتمد على القصاص في تأييد ملكه ودولته . وأشهر من قام بالقص في العراق الحسن البصرى ، وكان يعتمد على التذكير بالآخرة ، ويستخرج العظة مما يقع حوله من أحداث ، وكان يجلس في آخر مسجد البصرة وحوله الناس يسألونه

(١) انظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي) ص ٢٢٩

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ٢ ص ١١٩

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٢

(٤) الأصفهاني : الأغاني ج ٥ ص ١٤٩

(٥) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٥٣

في الفقه وفي حوادث الفتن التي عاصرها فيحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم^(١) . ومن أبرز القصاص صالح بن مسرح ، أحد زعماء الخوارج ، وكانت كل قصصه تدور حول الأمر بالتقوى ، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، وكان يكثر من ذكر الموت^(٢) .

وكانت المساجد أيضا مسرحا لانشاد الشعر ، فكان الشعراء على اختلاف أديانهم وأوطانهم ، ينشدون قصائدهم من فوق منابرهم فكان الأخطل الشاعر النصراني يدخل مساجد الشام والعراق فيقف المسنون له اجلالا^(٣) . وشهدت المساجد الكثير من المفاخرات القبلية والحزبية ، والمفاخرات والتقائض بين الشعراء ، وخاصة بين جرير والفرزدق ، وكثير والأحوص ، والكميت والطرماح^(٤) . وكان الكميت نزارى شيعى يتعصب لمضر (العدنانية) ، بينما كان الطرماح شامى قحطاني يتعصب للقحطانية (الينية) ، فتعصب الكميت لأهل الكوفة بينما تعصب الطرماح لأهل الشام^(٥) .

استفاد المسلمون من المساجد في بعض الأغراض الاجتماعية المختلفة ، فيها يتلاقى الناس فيتحدثون ويتسامرون ويتألفون ، ويقيمون فيها بعض احتفالاتهم في الأعياد والمواسم الدينية والاجتماعية ، ويعقدون بها عقود الزواج . وكانت (الخطابات) يجلسن في المساجد لممارسة مهتهن ، فيحدثنا ابن عبد ربه^(٦) عن امرأة كانت تداوم الجلوس في مسجد البصرة ، وكانت تمتهن التوفيق بين الرجال والنساء بالزواج ، وكان الرجال يحتشدون حولها في المسجد وكل يذكر لها الشروط التي يرى وجوب توفرها في زوجة المستقبل . وكان زياد بن أبي سفيان ونائبه سمرة بن جندب يجلسان في مسجدى البصرة والكوفة لحل المشاكل الزوجية وازالة الخلاف بين الأزواج والزوجات .

(١) احمد أمين : فجر الاسلام ص ١٩٢

(٢) الطبرى > ٧ ص ٢١٧

(٣) الأصفهاني : الأغاني > ٧ ص ١٧١

(٤) الأصفهاني : الأغاني > ٧ ص ٦٨ و > ١٠ ص ١٤٩

(٥) الأصفهاني : > ١٥ ص ١٠٩

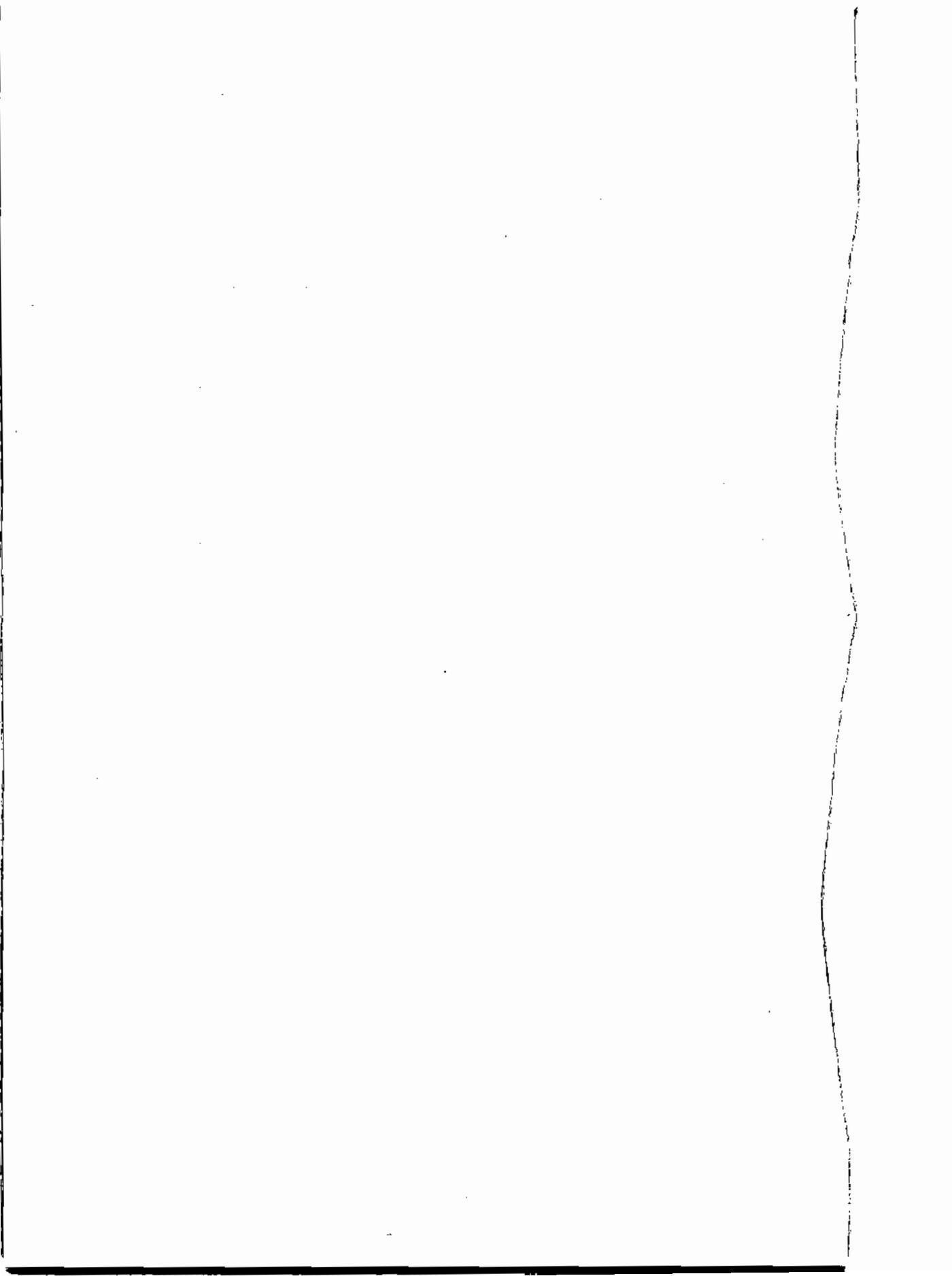
(٦) العقد الفريد > ٦ ص ١٠٧

لا تأخذ على المساجد في فجر الاسلام الا أنها كانت مظهرا من مظاهر العصية القبلية ، فقد كانت كل قبيلة تقيم مسجدا ليصلى فيه أبناء القبيلة ، أما المساجد الجامعة فكانت مقسمة الى أقسام قبلية ، فتختص كل قبيلة بجزء من المسجد ، فلا تلتقى بغيرها من القبائل . ففي الكوفة - مثلا - كان مسجدها أول بناء خطه سعد بن أبي وقاص ، وحرص سعد أن يثقل هذا المسجد الروح القبيلة أصدق تمثيل ، فجعل لكل قبيلة مكانا بهذا المسجد^(١) . وكان هذا التقسيم القبلى للمسجد يناقض الحكمة التى قصدتها الله من الصلاة ، وهى أن يتساوى جميع المسلمين بين يدي خالقهم . وقسمت المدن الاسلامية الجديدة فى الأمصار الى أقسام قبلية فكان لكل قسم قبلى مسجد خاص بهذه القبيلة ، ولا شك أن هذا التقسيم أدى الى استمرار الفوارق القبلية واذكاء نيران العصية بين القبائل .

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٩٤

أهم مصادر البحث

- أحمد أمين : فجر الاسلام ، (مطبعة الاعتماد ١٩٢٨ م)
- الأصفهاني : الأغاني ، (مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ)
- بارتولد : (ف .) تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر (مطبعة المعارف ١٩٤٢)
- البلاذري : فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات بالقاهرة ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م)
- حتى : الدكتور فيليب ، تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع ، القاهرة .
- ابن خلدون : المقدمة ، (المطبعة البهية المصرية) .
- الدينوري : الأخبار الطوال ، (لندن ١٨٨٨) .
- ديموبين : النظم الإسلامية ، ترجمة صالح الشماح وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢) .
- ابن رسته : الأعلام النفيسة (لندن ١٨٩١) .
- الطبري : تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨) .
- على حسنى الحروبلى : الدكتور ، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي (دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩) حياة محمد (تأليف واشنجتون أرفنج) ، (دار المعارف ١٩٦٠) .
- ابن قتيبة : الإمامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
- المعارف (المطبعة الإسلامية ١٩٣٥) .
- المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (لندن ١٩٠٦) .
- نيكلسون : رينولد ، (Alit. Hist. of the Arabs (London 1923)
- هل : (ي) الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور إبراهيم العدوى (من سلسلة ألف كتاب) .





UNIVERSITY COLLEGE FOR GIRLS

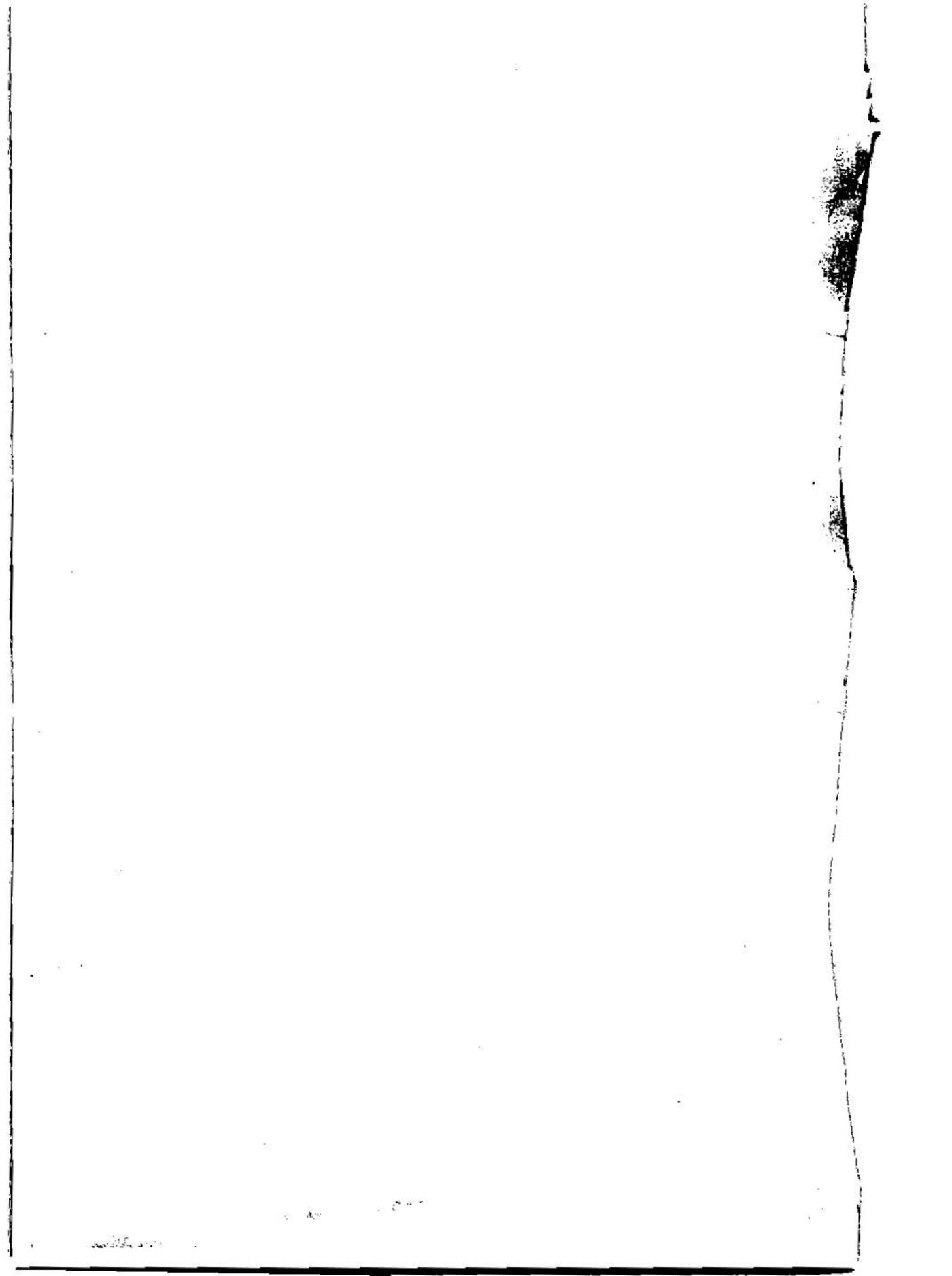
ANNUAL REVIEW

AIN SHAMS UNIVERSITY

No. 3 - JULY 1961

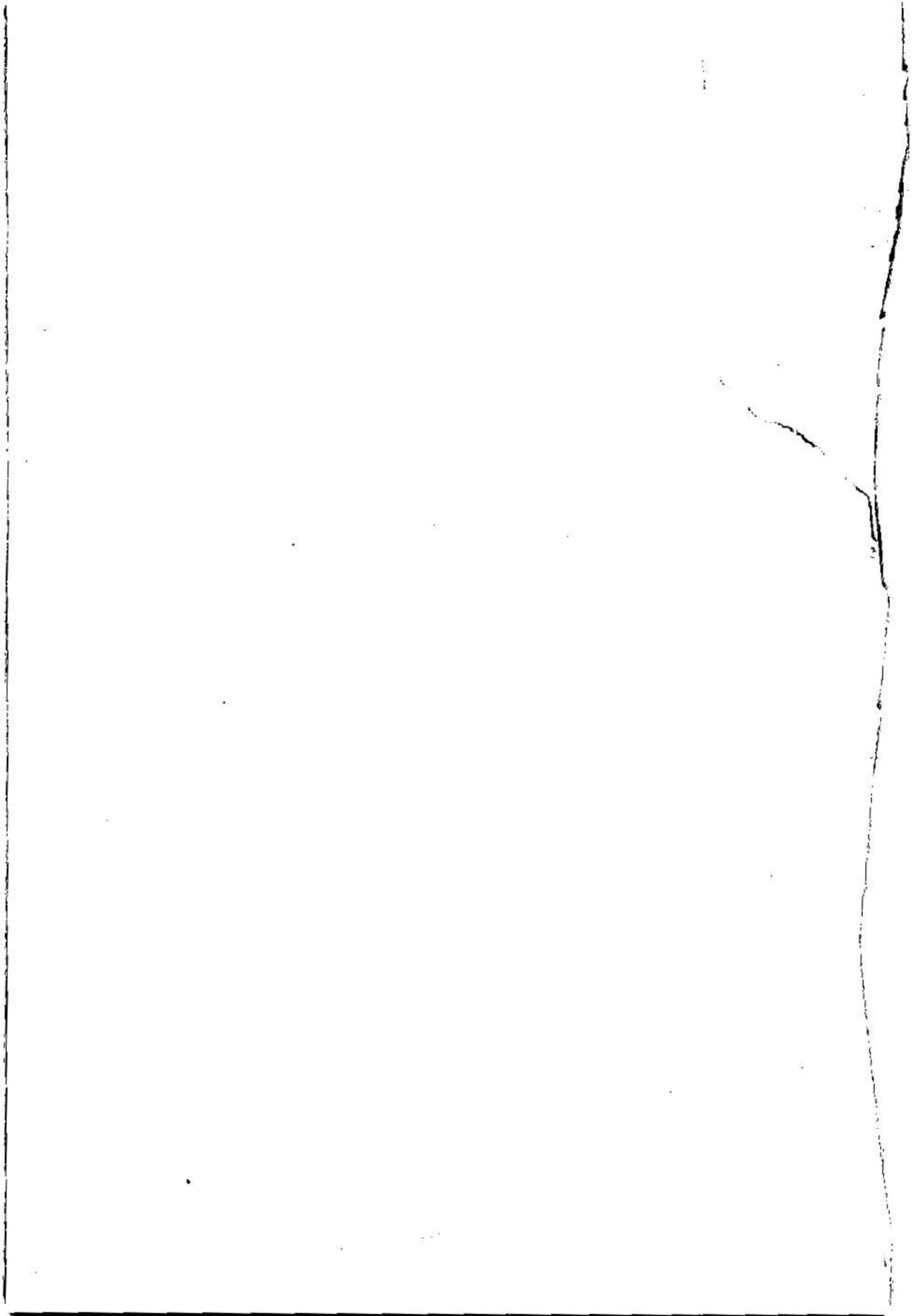
AIN SHAMS UNIV. PRESS

1962



CONTENTS

	Page
<i>Diurnal and Seasonal Fluctuations in Osmotic Pressure of Plant Sap,</i> by Shafey Aly	1
<i>Studies on the Effects of some Dicarboxylic Acids on the Uptake and Utilization of Inorganic Nitrogen,</i> by M. A. Nosseir	11
<i>The Relation of Optical from to the Utilization of Amino Acids,</i> by M. A. Nosseir	19



DIURNAL AND SEASONAL FLUCTUATIONS in Osmotic Pressure of Plant Sap

BY

SHAFEY ALY, M., Ph.D.

Assistant Professor in Botany, University College for Girls, Ain-Shams University

Diurnal and seasonal fluctuations in osmotic pressure of plants have been recorded by various authors in different parts of the world. Such fluctuations usually associate fluctuations in the intensity of the atmospheric factors concerned in evaporation. They also sometimes associate fluctuations in the moisture content of the soil. In this country, records of such fluctuations of osmotic pressure are scanty. It was thought, therefore, of increasing these records by adding some new measurements at different times of the year and at different hours of the day.

There is difference in opinion as to whether the fluctuations in osmotic pressure are caused by such fluctuations in atmospheric or edaphic factors, i.e., whether the habitat factors and the osmotic pressure are related together as cause and effect.

MATERIAL

In experiments on the diurnal march of osmotic pressure two mesophytes, namely, *Ricinus communis* and *Vicia Faba* were used. In experiments on the seasonal march xerophytes, collected from the desert near Cairo, were experimented with. The xerophytes used were, *Fagonia arabica*, *Zilla spinosa*, *Citrullus colocynthis*, *Haloxylon salicornicum* and *Zygophyllum simplex*. Xerophytes are of special interest since Egypt is a desert country, the natural vegetation of which is mainly represented by xerophytes.

METHOD

The osmotic pressure of the plant sap was measured by the cryoscopic method. The latter has since long been widely used by various authors, such as Dixon & Atkins (1913), Walter (1931), Harris (1934) and several others. It has been usually preferred by various authors since it is more

adaptable to field conditions and because it yields average values of whole plants and plant organs. The method involves the determination of the freezing point of expressed sap, the osmotic pressure being directly proportional to the freezing point lowering. Reasons for the preference of this method over the plasmolytic and other methods are given by Crafts, Currier & Stocking (1949). According to these authors, the cryoscopic method is the most practical one for measuring the osmotic pressure of bulk tissue.

The apparatus used in the present work is similar to that described by Mathews (1921) and used by Stoddart (1935), Migahid (1948) and Migahid & Shafey (1953 & 1954). The formula used in calculating the osmotic pressure is :

$$P = 12.06 \Delta - 0.021 \Delta^2.$$

Where P is the osmotic pressure and Δ is the freezing point depression.

RESULTS

The mean osmotic pressures of leaf sap for *Vicia Faba* and *Ricinus communis* at different hours of the day are expressed in Fig. 1.

It is evident from Fig. 1. that the osmotic pressure of the sap of *Vicia* and *Ricinus* leaves was highest at 2 p.m. but decreased rapidly to a minimum that was attained during the night, increasing again in the following day. The daytime values were higher than the night values. Variations were most rapid at the beginning and end of the daytime period, but were slight during the night and in the middle of the day. Thus there was a rapid fall in the afternoon, between 2 and 6 p.m. and a somewhat rapid rise in the morning, between 6 and 10 a.m. But between 6 p.m. and 6 a.m. the variation was very small. From 10 a.m. to 2 p.m. there was some increase in the osmotic pressure, but which was also relatively small.

In Fig. 2 are expressed the values of atmospheric factors concerned in evaporation, namely, air temperature, relative humidity and evaporation rate at 3-hr. intervals, from 1 p.m. to 1 p.m. the next day. This was the same day as that on which osmotic pressures of the leaf sap of *Vicia* and *Ricinus* were recorded. Relative humidity was measured by means of a wet-and-dry bulb hygrometer while evaporation was measured in millimetres per hour by means of a piche evaporimeter.

The march of temperature and evaporation curves shows a general parallelism to the march of osmotic pressure curve. There was a rapid

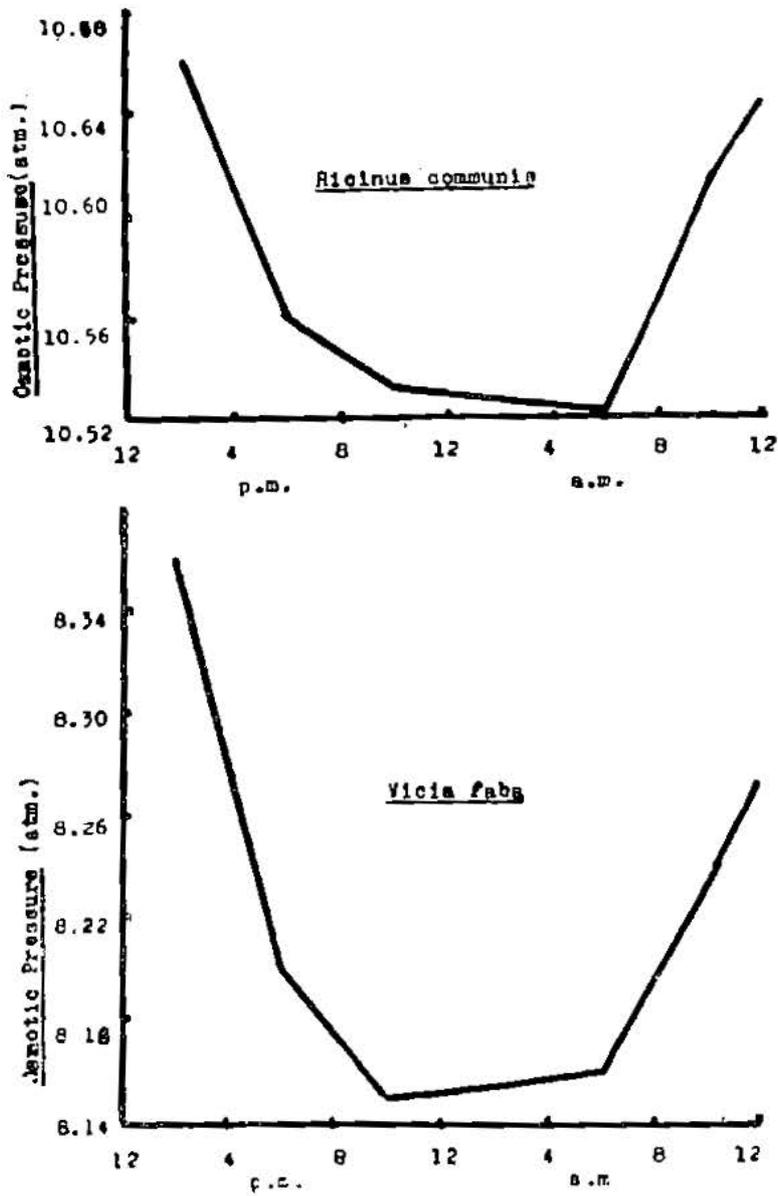


Fig. 1

Diurnal Fluctuations in Osmotic Pressures of *Vicia Faba* and *Ricinus communis*.

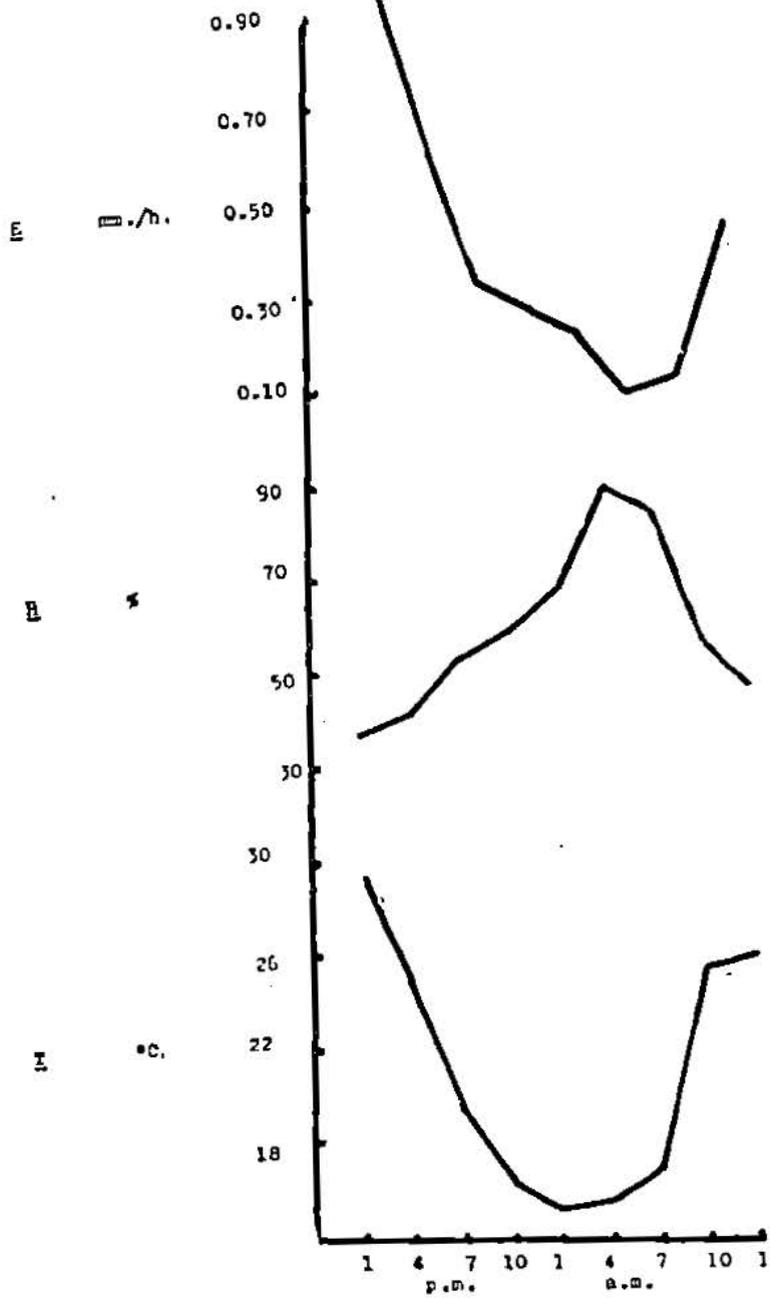


Fig. 2

Diurnal Fluctuations in Atmospheric Conditions
T : Air temperature, H : Relative humidity & E : Evaporation.

fall in the afternoon of the first day, a rapid rise in the morning of the second day and smoothness during the night. Correlation was even more close with temperature than with evaporation. As might be expected the correlation with relative humidity is a negative one. The dawn hours correspond to the maximum relative humidity and to the minimum osmotic pressure as well as the minimum temperature and evaporation.

In Fig. 3 are given the osmotic pressures of some xerophytic plants growing wild in the desert near Cairo at different times of the year. Samples were taken from mature plants.

It is noticed that for *Fagonia arabica* and *Haloxylon salicornicum* the osmotic pressure was measured in February and August, and that the summer value was in both of them much higher than in winter. *Zilla spinosa*, one of the commonest perennials, had an osmotic pressure as low as 16.01 atmospheres in January. The osmotic pressure increased to 17.63 by March, and further to 18.56 in August. It then decreased to 15.35 by December. The osmotic pressure of *Citrullus colocynthis*, one of the evergreen perennials of the Egyptian desert, which flourishes particularly during the summer, was measured in winter, summer and autumn. The summer value of the osmotic pressure was considerably higher than either the winter or the autumn values. *Zygophyllum simplex* is one of the ephemerals of the desert, starting to appear in January, after the winter rains, and terminating its life cycle by the onset of the summer towards the end of May. The osmotic pressure of this species was measured in January and April, and the spring value was found to be considerably higher than the winter one.

In Fig. 4 are given the mean values of air temperature, relative humidity and evaporation rate for the successive months of the year in which the osmotic pressure data were recorded - as recorded at the Meteorological Station of the Cairo International Aerodrome.

Temperature and evaporation show the highest values in summer and the lowest values in winter. In spring they are rapidly rising and in autumn rapidly falling. The relative humidity curve is nearly a mirror image of the temperature and evaporation curves. The seasonal fluctuations in the osmotic pressure of the experimental plants would seem to be a response to the fluctuations in the evaporating factors of the atmosphere.

DISCUSSION

In a previous paper (Migahid & Shafey 1955) it was clearly shown that variations of soil moisture content and soil salinity produce considerable variations in the osmotic pressure of plant sap. The higher the soil water

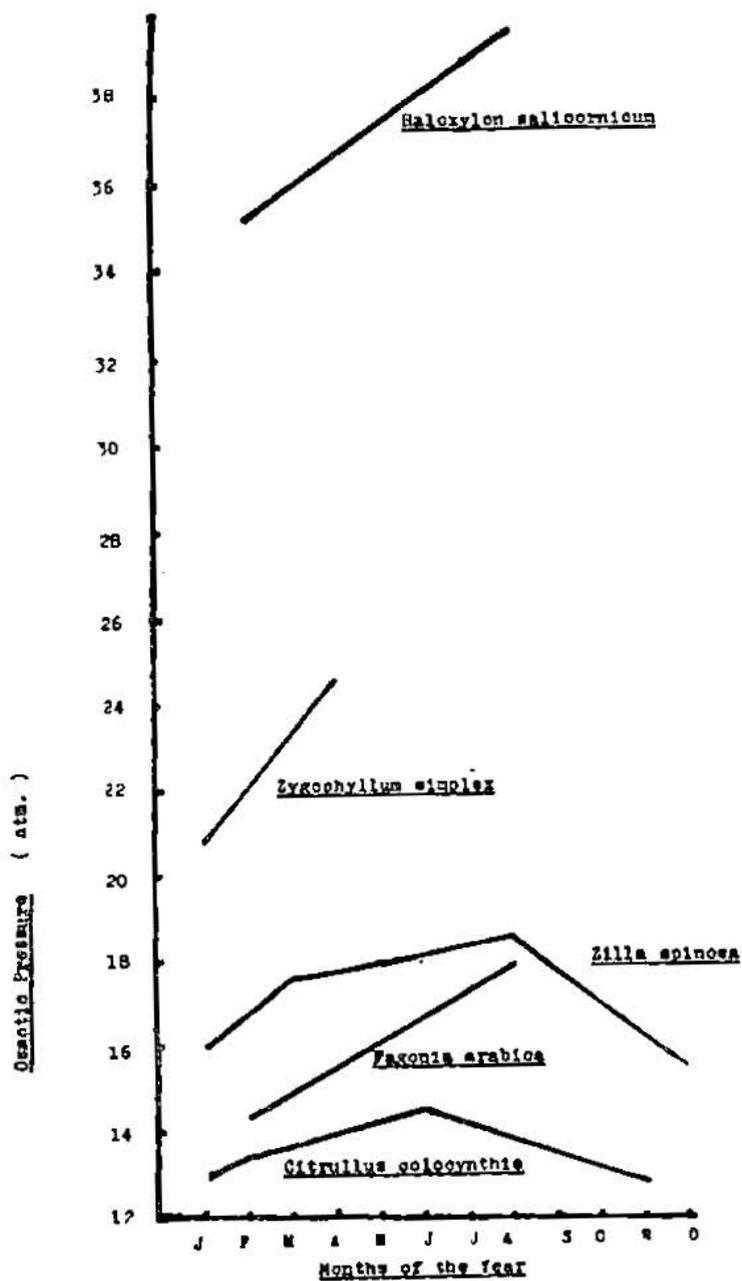


Fig. 3.

Osmotic Pressure of Some Xerophytes at Different Months of the Year.

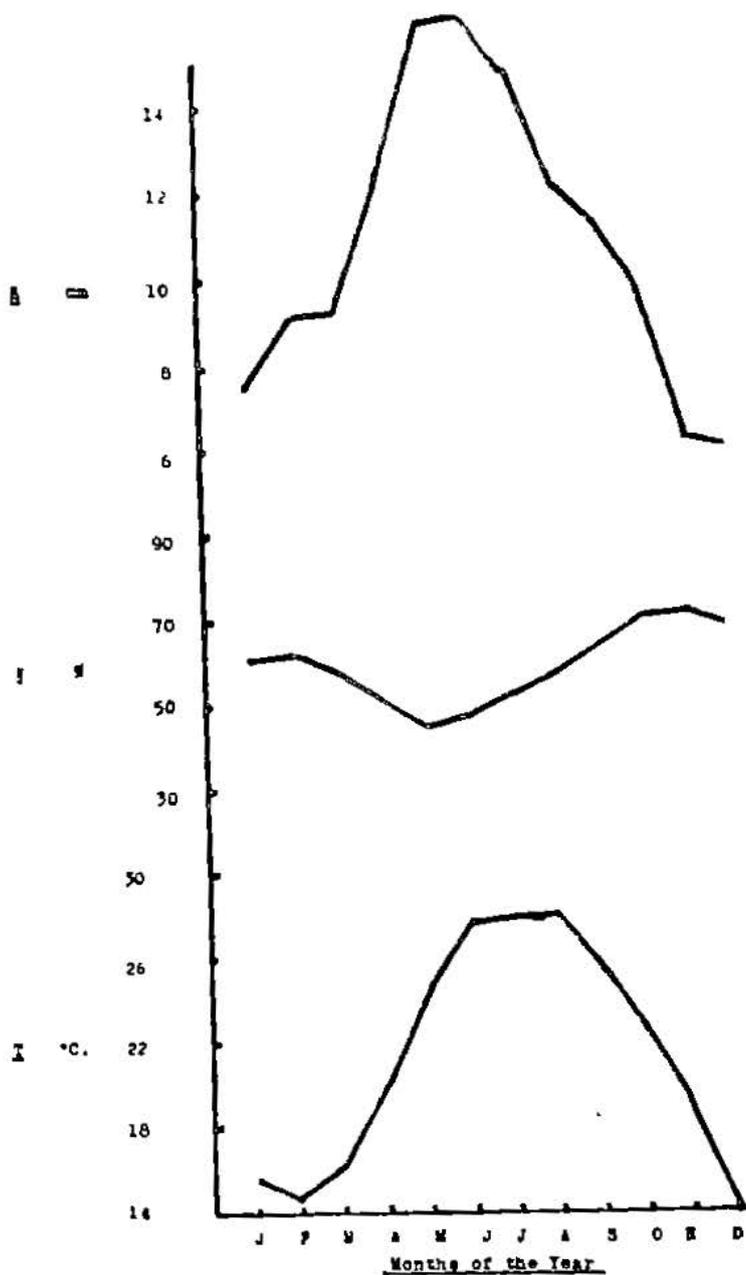


Fig. 4.

Monthly Fluctuations in Climatic Factors

E : Evaporation, *H* : Relative humidity & *T* : Air temperature.

content and the lower its salt content, the lower the osmotic pressure of the leaf sap and vice versa. It was also observed (Migahid & Shafey 1954) that the osmotic pressure of the plant sap varies greatly in plants of different ecological groups, being higher in xerophytes than in mesophytes and in halophytes than in either xerophytes or mesophytes. Xerophytes are plants of dry habitats subjected to both atmospheric and edaphic drought. Halophytes are plants of saline habitats, subjected either to physiological drought alone or to both physiological and atmospheric droughts, Mesophytes are plants of optimum moisture content of soil and air.

As a matter of fact it is not only the soil environment that affects the osmotic pressure of the plant sap, but the atmospheric environment as well must have a great effect. The plant acts as a balancing factor between the soil moisture surrounding the roots and the air surrounding the tops. If the soil supplies moisture as fast as the air removes it then the osmotic pressure must be low. If the air removes more water, as it is the case under conditions of atmospheric drought (e.g. in xerophytes as compared with mesophytes, in summer as compared with winter, and in mid-day hours as compared with night hours) and the osmotically active substances remain constant, the osmotic pressure rises proportionately. The plant may be considered as a product of its environment and the osmotic pressure as an expression of the effect of that environment. The results of the present investigation confirm this conclusion.

Many authors have arrived at similar conclusions. Of these may be mentioned Eaton (1929), Enomoto (1930) who found that sap concentration varies directly with the temperature and inversely with the atmospheric humidity. Korstian (1924) also noted the lowest concentration in *Pinus ponderosa* in the winter season, but this he referred to the formation of emulsions of fats and oils with a low concentration in winter. In spring there is more sugar present to be used in growth and thus there is an increase in pressure.

In contradiction to the above findings Gilbert & Adams (1929) concluded that environmental conditions have little effect upon the concentration of expressed plant solution, and that moisture in the soil has no direct relationship to pressure in leaves. Gail & Cone (1929) found in the leaves of *Pinus ponderosa* a minimum pressure in July and a maximum in December. They think that rapid growth in April, May and June causes lower osmotic pressure. The use of carbohydrates and other substances for growth of the new leaves and stems results in a decrease in the osmotic pressure.

The present writer is of the opinion that increase in osmotic pressure during the warmer and drier hours of the day as well as during the drier

and warmer months of the year, and its decrease in the cooler and more humid hours and months must be regarded as the general rule among plants. Deviations from this rule must be regarded as exceptions and are often referable to special metabolic characters. During the warmer part of the day transpiration exceeds absorption and the water balance of the plant is disturbed. Such disturbance results in decrease of the tissue water content and increased concentration of the plant sap. By night, transpiration decreases and the water balance and turgidity of the plant are restored. Consequently the sap is diluted and the osmotic pressure diminishes. In the drier and warmer months of the year, apart from the atmospheric drought, edaphic drought also prevails. Thus in addition to increased transpiration, absorption is somewhat retarded. This enhances the disturbance of the water balance and the decrease of tissue water, leading to increased concentration and higher osmotic pressure of the sap.

Finally the writer wishes to thank prof. A. M. Migahid for kind help and for reading the manuscript.

SUMMARY

1. The osmotic pressure of the leaf sap was measured and compared at different hours of the day for the two mesophytes *Vicia Faba* and *Ricinus communis* and was found to be higher by day than during the night. The daily march of atmospheric factors concerned in evaporation, such as temperature, relative humidity and evaporation rate were recorded. Considerable parallelism was observed between the march of osmotic pressure and that of either evaporation or temperature. The march of the relative humidity curve was a mirror image of that of other evaporation factors.

2. The seasonal fluctuations in osmotic pressure of a number of typical desert plants was also investigated. It was observed that the osmotic pressure is not constant throughout the year, but tends to be higher in summer than in winter and in the warmer and drier months than in the cooler and more humid ones.

3. The writer is of the opinion that the fluctuations observed are due to changes in the balance between absorption and transpiration, leading to fluctuations in the tissue water content and in the concentration of the sap. Such fluctuations are likely to be of general occurrence in plants, and any deviation must be referred to special metabolic characters. Further data are, however, needed before such generalisation can be made.

BIBLIOGRAPHY

- Crafts, Currier & Stocking, 1949; Water in the physiology of plants. *Chronica Botanica*, U. S. A.
- Gail, F.W. & Cone, W.H., 1929; Osmotic pressure and pH measurements on cell sap of *Pinus ponderosa*. *Bot. Gaz.* 88.
- Migahid, A. M., 1938; Binding of water in relation to drought resistance. *Bull. Fac. Sci. Fouad I Univ.* 18.
- Migahid, A. M. 1945; Binding of water in xerophytes and its relation to osmotic pressure. *Bull. Fac. Sci. Fouad I Univ.* 25.
- Migahid, A. M. & Shafey Aly, M., 1953; Osmotic pressure of plants of different ecological groups. *Bull. de L'Inst. du Desert, D'Egypte Cairo*, Tome III, No. 2.
- Migahid, A. M. & Shafey Aly, M., 1955; Osmotic pressure of plant sap as related to salinity and water content of the soil. *Bull. de L'Inst. du Desert D'Egypte*, Tome V, No. 1.
- Stoddart, L. A., 1935; Osmotic pressure and water content of Prairie plants. *Plant Physiol.*, 10.

STUDIES ON THE EFFECTS OF SOME DICARBOXYLIC ACIDS ON THE UPTAKE AND UTILIZATION OF INORGANIC NITROGEN

II - Effects of some Dicarboxylic Acids on the Uptake and Utilization of Ammonium and Nitrate Nitrogen by Sweet Potato Tuber Disks

BY

M. A. NOSSEIR

University College for Girls, Ain Shams University

INTRODUCTION

It has been recently shown by El-Shishiny and Nosseir (unpublished work) that certain dicarboxylic acids figured in the krebs cycle, when supplied together with ammonium salts to carrot root disks, exert a marked influence upon the course of the metabolic reactions of the tissues. In control samples cultured in ammonium salt solutions, a considerable part of the ammonia absorbed is recovered as amide—N, mainly glutamine. However, if oxalacetate, fumarate, malate, succinate, or α —ketoglutarate is acquired from the culture solution, the formation of glutamine was greatly stimulated. Reasons have been advanced by Chibnall (1), and Vickery & Pucher (14) for the assumption that the specific precursors of asparagine and glutamine are respectively oxalacetic and α —ketoglutaric acids which arise as intermediary products in carbohydrate metabolism. Carrot root disks obviously contain enzyme systems that provide for rapid and extensive metabolic transformation of the organic acids present or introduced into the cells.

A further series of experiments is described in the present paper. These were carried out in order to extend the observations to include aspartic acid and nitrate—N. Disks of sweet potato tubers were employed, and tests were accordingly made to see whether the effect of added acids was similar to that observed earlier. Potato tuber is selected because of its availability in the garden of the department and also because it represents a species with a moderately intense glutamine metabolism, El-Shishiny (2).

MATERIAL AND METHODS

The technique of the disk culture experiments was the same as in the earlier work described by El-Shishiny (2), and El-Shishiny & Nosseir (3). A stock of disks sufficient for each experiment was prepared from sweet potato tubers variety « Balady » grown in the botanic garden of the Faculty. About twenty grams of disks taken at random (40 disks) were used for each treatment. The samples after being washed for 48 hours in aerated distilled water, El-Shishiny (2), were transferred into 350 ml. culture solution kept at 25° C. ($\pm 0.1^\circ$ C.) in a constant-temperature water bath. A current of CO₂ — free air was passed through each culture solution at a constant rate of 4 liters per hour to serve for aeration and for the determination of CO₂ output. After a culturing period of 24 hours, the disks were drained, washed several times with distilled water, and analysed for the final distribution of the various nitrogenous fractions. The medium, together with the washings were made to a convenient volume and analysed for organic and inorganic nitrogenous fractions. The analytical methods for the determination of the various nitrogenous fractions were those long in use in this laboratory and described by El-Shishiny (2), and El-Shishiny & Nosseir (3).

Two experiments were carried out following the same technique. The results were fully consistent with those summarized in tables I A and I B. In each experiment, twelve samples after being washed for 48 hours were transferred into culture vessels each containing 350 ml. of sterilized distilled water or culture solution according to the following scheme : samples 1 & 2 distilled water; 3, ammonium chloride; 4, potassium nitrate; 5, NH₄ Cl + fumarate; 6, KNO₃ + fumarate; 7, NH₄ Cl + malate; 8, KNO₃ + malate; 9, NH₄ Cl + succinate; 10, KNO₃ + succinate; 11, NH₄ Cl + aspartate; 12, KNO₃ + aspartate. The concentration of ammonium chloride and potassium nitrate was 0.005 M, while that of organic acid salts was 0.0025 M.

Chemicals used : Aspartic acid of highest purity was purchased from L. Light & Co. Ltd. The other chemicals were purchased from the B.D.H. The organic acids were neutralized with KOH to pH 7 before they were supplied to the tissues.

RESULTS AND DISCUSSION

Effects of dicarboxylic acids figured in the krebs cycle and of aspartic acid upon the uptake and utilization of ammonium and nitrate-N :

The data depicted in table I B show the uptake and utilization of ammonium - and nitrate - N, in mg. nitrogen, by 100 g. of sweet potato tuber

disks cultured in 0.005 M ammonium chloride and in 0.005 M potassium nitrate alone and with aspartate, fumarate, malate or succinate. The results reported in this table show that 68.03 mg. ammonium — N and 74.69 mg. nitrate — N were removed in 24 hours from the single salt solutions of 0.005 M ammonium chloride and potassium nitrate respectively. When ammonium chloride and potassium nitrate were the only sources of nitrogen, the rate of ammonium assimilation exceeded very much the rate of nitrate assimilation since 98.7 per cent of the absorbed ammonium — N and only 61.6 per cent of the absorbed nitrate — N were changed into organic nitrogen. Thus the ammonium nitrogen was very rapidly metabolised and did not accumulate in the cells. On the other hand, nitrate — N utilization is slower and nitrate accumulates and reaches high levels in the cells of sweet potato disks.

Culturing sweet potato tuber disks on ammonium chloride with fumarate, malate or succinate brought about increases in the rates of ammonium — N uptake and assimilation. There results only 7.0%, 9.7%, and 7.4% increase in ammonium — N uptake and the rate of ammonium assimilation was similarly increased by 6.5%, 9.6%, and 6.6% respectively over the control in ammonium chloride. This might be due to the large amounts of ammonia — N removed from the culture solution of ammonium chloride alone. The increase in the rate of ammonium assimilation and the disturbance of the metabolic activity when organic acids were present in the external medium indicate that these acids were acquired from the external media by the cells and there underwent metabolic transformations. Pucher & Vickery (10) showed that all of the individual members of the krebs tricarboxylic acid cycle that were tested entered the cells of tobacco leaves during the culture in their potassium salt solutions and exerted a marked influence on the course of metabolic reactions of the tissues.

On the other hand, aspartate expressed a depressing effect on the uptake and on the assimilation of ammonium — N by sweet potato tuber disks. When aspartate is given in the culture solution with ammonium chloride, the uptake of ammonium — N was decreased by 38.9% and the ammonium — N assimilation was also decreased by 44.9% as compared by uptake and assimilation of the control disks cultured in ammonium chloride alone.

Similarly, aspartate and fumarate exerted depressing effects on the uptake of nitrate — N from potassium nitrate culture media by 39.4% and 10.4% respectively, while malate and succinate were without remarkable effects. Nitrate — N assimilation was also depressed since decreases of 33.2%, 23.0%, 6.7, and 9.1 % were shown consequent to addition of aspartate, fumarate, malate, and succinate respectively to KNO_3 in the external media. The differential effect of the different acids on ammonium and

nitrate — N uptake by sweet potato tuber disks might be due to their specific effects on the permeability as well as on the metabolism of the tissues.

Effects of ammonium and nitrate salts with some possible asparagine precursors of the krebs cycle on the distribution of the various nitrogenous fractions :

The changes in the distribution of the various nitrogenous fractions in the disks of sweet potato roots treated with ammonium chloride or potassium nitrate with aspartate, fumarate, malate, or succinate were depicted in table I A. The first three columns show the composition of the samples cultured in water, NH_4Cl , or KNO_3 to serve as controls to assist in judgements of the relative magnitude of the changes that occurred as a result of the presence of the organic acids used. The subsequent columns show the changes in composition brought about by the different treatments. The units being mg. N computed for a sample that weighed 100 g. at the start.

Table I A shows that amides are formed and accumulated in tissues cultured in ammonium chloride in response to the increase of the level of ammonium — N in the cells. The presence of fumarate, malate, and succinate stimulated ammonium assimilation and increased the level of amides and amino acids in the tissues. The increase in the amides is mainly due to glutamine. Even, when the equilibrium of amino acids was one sidedly disturbed by feeding sweet potato root tissues with aspartate and ammonia, glutamine considerably increases as also shown for carrot root tissues by El-Shishiny and Nosseir (4). The primary formation of glutamine even when aspartic acid is supplied to the tissues proves that there must be, in the plant cells, either a very active deaminase system or the amino group of aspartic acid must first be transferred to α -ketoglutaric acid and the formed glutamic acid is then amidated. Rautanen (11) showed that glutamic acid and glutamine appreciably increase during the uptake of aspartic acid by pea seedlings. He suggested the central importance of α -ketoglutaric acid as a primary acceptor of ammonia. Evidence of a primary synthesis of glutamine is supported by the investigations with N^{15} on barley roots by Yemm Willis (17). Moreover, El-Shishiny (2) has shown that the amide metabolism in sweet potato roots is mainly glutamine metabolism.

It has been recently shown by El-Shishiny & Nosseir (unpublished work) that oxalacetate, fumarate, malate, or succinate, when acquired together with ammonium — N by carrot root disks from the culture solutions, stimulated greatly glutamine formation. The difference in response of various species to impressed conditions that provide the increased concentration of ammonia in plant cells have been interpreted by Vickery & Pucher (14) in terms of relative availability of the non-nitrogenous precursors required

TABLE I (A)

Effect of culturing disks of sweet potato tubers for 24 hours in 0.005 M solutions of ammonium chloride and potassium nitrate with and without 0.0025 M dicarboxylic acids, (M gm. N per 100 g. fresh weight of tissue)

Nitrogenous fractions	Controls in			Changes in the nitrogenous fractions as compared with controls in KNO ₃ or NH ₄ Cl							
	Water	KNO ₃	NH ₄ Cl	KNO ₃				NH ₄ Cl			
				Aspartate	Fumarate	Malate	Succinate	Aspartate	Fumarate	Malate	Succinate
Ammonium - N	0.98	1.13	1.88	+ 0.56	+ 0.08	+ 0.62	- 0.48	+ 3.65	+ 0.38	+ 0.13	+ 0.69
Nitrate - N	—	28.65	—	-14.03	+ 2.83	+ 4.58	+ 5.70	—	—	—	—
Glutamine - N	4.82	4.52	12.38	+ 2.30	+ 0.74	+ 2.92	+ 1.93	+ 7.54	+ 5.46	+ 7.00	+ 2.46
Asparagine - N	2.18	2.24	8.84	0.00	- 0.22	- 0.04	+ 0.80	+ 0.46	+ 1.38	+ 1.08	+ 0.16
Total - N of amides	7.00	6.76	21.22	+ 2.30	+ 0.52	+ 2.88	+ 2.78	+ 8.00	+ 6.84	+ 8.08	+ 2.62
Amino acid - N	31.72	47.49	28.38	+11.73	+10.47	+ 3.66	+ 6.07	+30.55	+16.29	+ 5.44	+ 8.10
Rest - N	29.26	51.22	66.12	-14.67	-15.43	- 4.65	- 3.02	-26.78	-10.52	+ 0.24	- 0.16
Protein - N	81.96	88.57	99.79	+ 5.00	- 2.40	- 2.68	- 1.68	- 1.80	- 5.28	- 5.33	- 4.35

TABLE I (B)

Effect of some dicarboxylic acids on the uptake and assimilation of ammonium and nitrate nitrogen

Absorbed-ammonium-N	—	—	68.03	—	—	—	—	41.55	72.77	74.60	73.05
Absorbed nitrate-N	—	74.69	—	45.31	66.95	76.20	76.19	—	—	—	—
Absorbed amino-N	—	—	—	18.15	—	—	—	36.84	—	—	—
Assimilated ammonium-N	—	—	67.14	—	—	—	—	37.01	71.50	63.56	71.56
Assimilated nitrate-N	—	46.04	—	30.74	35.47	52.97	41.84	—	—	—	—
Assimilated amino-N	—	—	—	- 9.33	—	—	—	9.63	—	—	—

for the synthesis of the respective amides which arise in the transformation of organic acids during respiration. The results obtained for sweet potato roots in the present investigation as those recently obtained for carrot roots afford no conclusive evidence in favour of this postulate.

The maintenance of positive amino acid, amide and protein balance consequent to feeding sweet potato tuber disks with ammonium—N together with fumarate, malate, or succinate suggest the effective absorption and utilization of these compounds in anabolic reactions leading to glutamine accumulation. It seems therefore, that if such a cycle as that derived by Chibnall (1) from krebs and Johnson's cycle (7) could be operative in sweet potato tuber disks, then under conditions such that ammonia is accumulating, α -ketoglutaric acid might be withdrawn from the respiratory cycle for the synthesis of glutamine, while a small fraction of oxalacetic acid produced via interconversions of the acids used (Green, 5) or produced as a result of metabolic changes in the tissues, might be withdrawn for the synthesis of asparagine. It seems in this case that the mechanism is such that little oxalacetic acid becomes available at any time to react with ammonia even when the level of succinic, fumaric or malic acid is artificially increased. These acids seem to undergo conversion in the process of respiration which apparently made α -ketoglutaric acid available to react with ammonia directly or undergo transamination with aspartic acid metabolically formed to give glutamine as suggested by Leonard & Burris (8). The amination and amidation of α -ketoglutaric acid to give glutamine have been reported by Vickery et al (15 & 16), Chibnall (1), Sideris & co-workers (12), Mac Vicar & Burris (9), Yemm & Willis (17), and Kreto- vich & Yakovleva (6).

On the other hand, feeding sweet potato tuber disks with KNO_3 alone or in combination with aspartate, fumarate, malate, or succinate results in a considerable increase in the amino acid—N fraction and negligible changes in the amides. But the rate of synthesis of amino acids in presence of the organic acid salt was much higher than that of the control tissues supplied with KNO_3 alone while that of glutamine and asparagine was almost unchanged. This result together with the fact that nitrate assimilation did not lead to any significant increase in ammonia—N level in the tissues might indicate that nitrate was not reduced in the cells into ammonia or that the rate of ammonium transformation into organic—N other than amide—N is as fast as its production from the nitrate.

The energy required for the formation of amides and amino acids might have been derived partly through the oxidation of the original substrate in the cells and partly through the oxidation of the supplied organic acids,

since respiration of sweet potato tuber disks increased with NH_4Cl or KNO_3 and showed further increase with organic acids supplied to the external medium. Speck (13) suggested that the oxidation of succinate, malate, and oxalacetate supplied to pigeon liver dispersion supply the energy required for the utilization of ammonia and for amino acid and glutamine synthesis.

SUMMARY

The effect of aspartate, fumarate, malate, and succinate on the uptake and utilization of ammonium- and nitrate—N by sweet potato tuber disks was studied.

The rate of nitrate utilization was lower than absorption, leading to accumulation of nitrate—N in the cells. Ammonium—N, on the other hand, was utilized as soon as it entered the cells and there was a very small increase in its level inside the tissues.

Fumarate, malate, and succinate stimulated the uptake and utilization of ammonium—N and there was no accumulation of this fraction in the cells. This is probably due to the rapid synthesis of amino acid- and glutamine—N.

KNO_3 alone or supplied in combination with aspartate, fumarate, malate or succinate caused a considerable increase in the amino acid—N content and negligible changes in the amide—N. The rate of synthesis of amino acids in presence of the organic acid salt was higher than that of the control tissues cultured in KNO_3 alone while that of amides was almost unchanged. No significant increase in ammonia—N level in KNO_3 —treated tissues was observed.

BIBLIOGRAPHY

1. Chibnall, A. C. Protein metabolism in the plant. Yale University Press, New Haven, 1939.
2. El-Shishiny, E. D. H. Absorption and assimilation of inorganic nitrogen from different sources by storage root tissues. *J. Exp. Bot.* 6 : 6-16, 1955.
3. El-Shishiny, E. D. H. & Nosseir, M. A. The relation of optical form to the utilization of amino acids. I. Utilization of stereoisomeric forms of glutamic acid by carrot root disks. *Plant Physiol.* 32 : 360-364, 1957.
4. The relation of optical form to the utilization of amino acids. II. Utilization of stereoisomeric varieties of aspartic acid and asparagine by carrot root disks. *Plant Physiol.* 32 : 639-643, 1957.

5. Green, D. E. The malic dehydrogenase of animal tissues. *Biochem. J.* 30 : 2095 - 2110, 1936.
 6. Kretovich, V. L. & Yakovleva, V. I. Biosynthesis of glutamic acid and glutamine in pea and wheat seedlings. *Plant Physiol. U. S. S. R.*, 6 : 174 - 178, 1959.
 7. Krebs, H. A., & Johnson, W. A. The role of citric acid in intermediate metabolism in animal tissues. *Enzymologia*, 4 : 148 - 156, 1937.
 8. Leonard, M. J. K. & Burris, R. H. A survey of transaminases in plants. *J. Biol. Chem.*, 170 : 701 - 709, 1947.
 9. Mac Vicar, R. & Burris, R. H. Studies on nitrogen metabolism in tomato with use of isotopically labelled ammonium sulphate. *J. Biol. Chem.*, 176 : 511 - 516, 1948.
 10. Pucher, G. W. & Vickery, H. B. The metabolism of organic acids of tobacco leaves I. Effect of culture of excised leaves in solutions of organic acid salts. *J. Biol. Chem.*, 178 : 557 - 575, 1949.
 11. Rautanen, N. On the synthesis of the first amino acids in green plants. *Annales Acad. Sci. Fennicae, Ser. A, II, No. 33*, 1948.
 12. Sideris, C. P., Young, H. Y. & Chun, H. H. Q. Effect of nitrogen on the nitrogenous fractions of *Ananas comosus* (L.) Merr. *Plant Physiol.*, 22 : 127 - 148, 1947.
 13. Speck, J. F. The synthesis of glutamine in pigeon liver dispersions. *J. Biol. Chem.*, 179 : 1387 - 1403, 1949.
 14. Vickery, H. B. & Pucher, G. W. The metabolism of amides in green plants. III. The mechanism of amide synthesis. *J. Biol. Chem.*, 128 : 703 - 713, 1939.
 15. Vickery, H. B., Pucher, G. W., Leavenworth, C. S. & Wakeman, A. J. The metabolism of amides in green plants. II. The amides of rhubarb leaf. *J. Biol. Chem.*, 125 : 527 - 538, 1938.
 16. Wakeman, A. J. & Leavenworth, C. S. Chemical investigations of the rhubarb plant. *Bull. Conn. Agric. Exp. Sta.*, No. 424, 1939.
 17. Yemm, E. W. & Willis, A. J. Respiration of barley plants. IX. The metabolism of roots during the assimilation of nitrogen. *New Phytol.*, 55 : 229 - 252, 1956.
-

THE RELATION OF OPTICAL FROM TO THE UTILIZATION OF AMINO ACIDS

III - Utilization of Stereoisomeric forms of Alanine by Carrot Root Disks

BY

M. A. NOSSEIR

University College for Girls, Ain Shams University

INTRODUCTION

It was generally believed that the D-amino acids do not occur naturally and that the synthetic compounds of the D-series, if introduced into living matter, were metabolically inert. But now there is no longer reason to doubt the ability of plants to absorb and utilize various isomers of amino acids. The numerous studies, that have been made, of the use of amino acids as nitrogen sources for growing plants, embryos, plant tissues, and the limited number of investigations of the utilization of stereoisomeric varieties of amino acids by higher plants were referred to in the first and second paper of this series by El-Shishiny and Nosseir (5 and 6). In these papers, it was also found that the L-forms of aspartic and glutamic acids are absorbed much faster than the D-forms, either given alone or with ammonium sulphate to carrot disks. The L-forms of both acids were well utilized and also stimulated the utilization of ammonium nitrogen, but the D-enantiomorphs accumulated in the cells.

In recent investigations, a number of features between plant species in the utilization of enantiomorphs as in the utilization of different amino acids have been discussed. Thus Nitsch and Nitsch (16) found that not only D-alanine, D-aspartic or glutamic acid cannot serve as sole sources of nitrogen for *Helianthus tuberosus* tissues, whereas the L-forms can, but also inhibitory effects on the growth was shown by the acid when supplied simultaneously with nitrate.

Again a number of features of the process of uptake of several amino acids by carrot tissues have been described by Birt and Hird (2). Thus it has been shown that the D- and L-isomers of many amino acids are taken up against a concentration gradient and that such uptake is inhibited by certain metabolic inhibitors. Moreover, the D-forms of alanine, phenyl-alanine,

leucine, isoleucine, valine, methionine and histidine were fully recoverable from the tissues after uptake. With the exception of glutamic and aspartic acid, alanine, phenyl-alanine, there was little metabolic destruction of the amino acids used.

Miettinen (15) reported that DL-glycine, serine, valine, leucine were assimilated by pea plants in the same way as DL-alanine and effectively utilized for the synthesis of protein. However, the D-enantiomorph of alanine was proved to be toxic for the pea plant whereas the L-form was beneficial.

The study of the metabolism of stereoisomers of amino acids in living organisms has increased our knowledge about the range and nature of oxidative and synthetic reactions available to the body. Moreover, biological differences between these two groups of stereoisomerides illustrate the marked specificity which specializes reactions of living matter. The aim of the present study is to investigate the ability of carrot root disks to absorb and utilize stereoisomeric forms of alanine, namely L- and D-forms.

MATERIAL, METHODS, AND EXPERIMENTS

The disks for this investigation were prepared from carrot roots variety « Chantenay ». The general procedure of preparation and pretreatment of the disks as well as the determination of the nitrogenous fractions are as previously described by El-Shishiny (4) and El-Shishiny & Nosseir (5 and 6). Twenty grams of disks (about 40 disks), taken at random from a stock of disks prepared for each experiment, were used for each sample. The samples were washed for four days in regenerated aerated distilled water. The samples were then washed with sterilized distilled water and transferred into the sterile culture solutions, kept at 25°C. (± 0.1), where they were aerated for 24 hours by passing a current of CO₂-free air through each culture chamber at a constant rate of 4 liters per hour. The air currents, after leaving the culture chambers, were passed through standard solutions of sodium hydroxide to determine the rate of CO₂ produced by the differently treated tissues. After 24 hours, the tissues were drained, washed with distilled water, and analysed for the final distribution of the various nitrogenous fractions. The medium, together with the washing, were made up to a convenient volume and analysed for inorganic and organic nitrogen fractions. The initial distribution of various nitrogenous fractions in the tissues were obtained by analysing two samples representing the batch of disks after the 4 days washing period.

Nitrogen fractions :

Protein — N	= insoluble — N + nitrogen fraction precipitated by 2.5 per cent trichloroacetic acid.
Non — protein — N	= total soluble — N minus nitrogen fraction precipitated by 2.5 per cent trichloroacetic acid.
Amino acid — N	= total amino — N minus amino — N equivalent to total amide — N.
Rest — N	= non — protein — N minus (inorganic — N + total amino — N + total amide — N).
Complex — N	= protein — N + rest — N.
Glutamine — N	= glutamine amide — N \times 2.
Asparagine — N	= asparagine amide — N \times 2.

Experiment I. was designed to study the uptake and utilization of L- and D-alanine when supplied alone or in combination with ammonium chloride to carrot root disks. Therefore duplicate samples after being washed for 4 days in distilled water, were transferred into culture vessels each containing 350 ml. of the following culture solutions : Distilled water; ammonium chloride; L — alanine; L — alanine + ammonium chloride; D — alanine; D — alanine + ammonium chloride. The concentration of alanine and NH_4Cl in the solutions was 0.005 M. Experiment II was designed to investigate the effect of various concentrations of L — alanine, when supplied alone or in combination with NH_4Cl , on the nitrogen metabolism of carrot root disks. For this purpose, duplicate samples were cultured in the following solutions : Distilled water; ammonium chloride; 0.0025 M L — alanine; 0.005 M L — alanine; 0.01 M L — alanine; NH_4Cl + 0.0025 M L — alanine; NH_4Cl + 0.005 M L — alanine; NH_4Cl + 0.01 M L — alanine. The concentration of NH_4Cl in the solutions was always 0.005 M.

The chemicals used in this investigation were of analytical grade produced by Merck & Co. Inc.

RESULTS AND DISCUSSION

Uptake and Utilization of L — and D — alanine :

It appears from the results depicted in table (1) that carrot root disks were able to absorb both stereoisomeric forms of alanine from their respective solutions. The absolute amount of amino — N absorbed from L — alanine was, in all experiments, greater than that absorbed from D — alanine under similar conditions. The presence of ammonium chloride in the external medium was without any significant effect on the uptake of both isomers of

TABLE 1

Amino acid and ammonium nitrogen absorbed and utilized by carrot root discs during 24 hours from different culture solutions. Mg. nitrogen (means of duplicate samples) per 100 g. fresh weight of tissue. The amounts utilized are also given as percentages of the total amounts available in the tissues, i.e. initially present plus absorbed

Culture media	Absorbed		Available		Found		Utilized		
	NH ₄ -N	NH ₂ -acid-N	NH ₄ -N	NH ₂ -acid-N	HN ₄ -N	NH ₂ -acid-N	NH ₄ -N	NH ₂ -acid-N	
	mg.	%	mg.	%	mg.	%	mg.	%	
Distilled water	0.00	0.00	0.00	12.94	0.00	5.49	0.00	7.45	57.57
0.005 M NH ₄ Cl	53.69	0.00	53.69	12.94	14.70	10.88	38.99	72.61	15.92
0.005 M L-alanine	0.00	52.91	0.00	65.85	0.71	27.96	-0.71	37.89	57.54
0.005 M NH ₄ Cl + 0.005 M L-alanine	39.12	53.66	39.12	66.60	81.68	31.89	17.44	44.58	52.11
0.005 M D-alanine	0.00	44.93	0.00	57.87	0.72	49.04	-0.72	8.83	15.26
0.005 M NH ₄ Cl + 0.005 M D-alanine	28.53	43.61	28.33	56.55	20.55	47.77	7.78	27.46	15.52

alanine. Differences in the rates of absorption of the isomers from the media may be the result of differences in their rates of penetration into the cell. It might be suggested that there is an active process operating. This process may involve association with a carrier at the surface and movement of the complex, followed by dissociation, in the internal vacuole of the cells. L— and D— alanine seem to be taken up by the same mechanism as suggested by Birt & Hird (3). But the affinity of L— alanine for the carrier system appears to be greater than that of the D— isomer. Since the cell membranes consist of optically active material, differences in the penetrability of stereoisomers according to this suggestion might be possible.

Table (2) indicates that there was no material change in the amount of amino —N removed by carrot root disks when L— alanine concentration, either supplied alone or in combination with ammonium chloride, was doubled or increased 4— fold. The suggested carrier system involved in the uptake, in this case, might have been saturated at low concentration.

The uptake of alanine was accompanied by an increase in the respiration rate of carrot root disks. This result might indicate the dependence of uptake on respiratory energy. Similar observations were arrived at by Webster (20) and Birt & Hird (2) for the uptake of stereoisomers of alanine and other amino acids.

Carrot root disks showed a marked ability to utilize L— alanine since the deficit in amino acid —N is equivalent to 71.6% of the absorbed L— alanine, which corresponds to 57.54% of the initially present plus the absorbed amino acid —N from L— alanine media. Addition of equimolecular concentration of ammonium chloride to 0.005 M L— alanine in the external medium was of no significant effect on the rate of amino acid —N utilization. No remarkable changes in the rates of amino acid —N utilization were also obtained either by decreasing L— alanine concentration to 0.0025 M or by increasing it to 0.01 M, whether supplied alone or simultaneously with NH_4Cl , in the external media, table (2). The utilized amino acid —N seems to be at the expense of the absorbed L— alanine since the amounts of amino acid —N absorbed were more or less equivalent and this might account for the equivalent levels in amino acid —N in tissues cultured in L— alanine solutions, (tables 3 and 4). The utilization of alanine by other plant tissues was also reported by several investigators (8, 9, 10, 14, 15, 16, 17 & 18).

On the contrary, the results obtained from the present investigation suggested, however, that D— alanine, absorbed by carrot root disks, might have behaved as inert metabolite, since the increase of amino acid —N level in the tissues was almost equal to the absolute amount absorbed, compare

TABLE 2

Amino acid and ammonium nitrogen absorbed and utilized by carrot root discs during 24 hours from different culture solutions.
Mg. nitrogen (means of duplicate samples) per 100 g. fresh weight of tissues. The amounts utilized are also given as percentages
of the total amount available in the tissues, i.e. initially present plus absorbed.

Culture media	Absorbed		Available		Found		Utilized		
	NH ₄ -N	NH ₂ -acid-N	NH ₄ -N	NH ₂ -acid N	NH ₄ -H	NH ₂ -acid-M	NH ₄ N	NH ₂ -acid-N	
							mg.	%	
Distilled water	0.00	0.00	0.37	11.56	0.37	7.08	0.00	4.38	38.76
0.005 M NH ₄ Cl	43.83	0.00	44.20	11.56	9.04	9.55	35.16	79.54	17.39
0.005 M L-alanine	0.00	52.36	0.37	64.42	0.38	17.53	-0.01	46.89	72.80
0.005 M L-alanine	0.00	55.34	0.37	67.40	0.38	18.68	-0.01	48.72	72.28
0.01 M L-alanine	0.00	54.50	0.37	66.06	0.76	18.28	-0.39	48.78	72.33
0.0025 M L-alanine + 0.005 M NH ₄ Cl	23.70	53.89	24.07	65.45	16.48	17.74	7.59	31.54	47.71
0.005 M L-alanine + 0.005 M NH ₄ Cl	23.80	55.25	24.17	66.81	16.14	19.69	8.03	33.23	47.12
0.01 M L-alanine + 0.005 M NH ₄ Cl	20.76	56.40	21.13	67.96	16.14	19.79	4.99	23.61	48.17

44.93 mg. absorbed from D—alanine with 43.55 mg. increase, and 43.61 mg. absorbed from D—alanine plus NH_4Cl with 42.28 mg. increase, tables (1 & 3). This can, also, be demonstrated by comparing the amounts utilized, calculated as percentages of the available amino acid—N, with the amounts of the corresponding control tissues cultured in distilled water or in ammonium chloride, table (1). From this comparison, it could be, also, concluded that the small amounts of amino acid—N that had disappeared from tissues cultured in D—alanine solutions might be at the expense of the L— from originally present in the cells.

The above results seem to be substantial to the findings of Birt & Hird (2) who showed that the D—form of alanine and other amino acids were fully recoverable from carrot root slices after uptake. In this respect, carrot root disks seem to behave like *Lupinus albus* seedlings (14), *Helianthus tuberosus* tissues (16) and pea plants (15). It can be stated that the accumulation of the absorbed D—alanine by carrot root disks, in the present investigation, might indicate that the prevailing enzyme system is specific to the L—form.

Effect of L— and D—alanine on the Uptake and Utilization of Ammonium—N :

Carrot root disks cultured in 0.005 M NH_4Cl alone, tables (1 & 2) absorbed from 40—53 per cent of the supplied ammonium—N. The rate of ammonium—N uptake was depressed when equimolecular concentration of L— or D—alanine was present simultaneously with ammonium chloride, but the depression caused by D—alanine was much greater than that caused by the L—enantiomorph, table (1). When the concentration of L—alanine in the culture solution was decreased to 0.0025 M or increased to 0.01 M., the rate of ammonium—N uptake was also depressed but to a greater extent with 0.01 M concentration.

It was also noted that when ammonium chloride and alanine were supplied together, they were absorbed simultaneously, but amino acid—N in much higher preference to ammonium—N. Results obtained by other investigators showed that such preference in the absorption of ammonium and amino acid—N varies greatly for various amino acids and also for various plants (5, 9 & 18).

Tables (1 & 2), again, show that amounts equivalent to about 72 and 80 per cent of the ammonium—N absorbed by carrot tissues cultured in 0.005 M single salt solution of ammonium chloride were transformed into organic—N. L—alanine depressed ammonium—N assimilation and this depression was greatly pronounced by 0.01 M concentration, table (2). When L—alanine was replaced by D—alanine of the same concentration,

the inhibiting effect of the D-isomer was greater than that of the L-isomer. The inhibiting effect of L- or D-alanine was greater on the assimilation than on the absorption of ammonium-N. Consequently, the ammonium-N levels in tissues cultured in solutions containing L- or D-alanine were always higher than the level of ammonium-N in tissues cultured in ammonium chloride alone.

Effect of L- and D-alanine on the Distribution of the Various Nitrogenous Fractions :

The increase in the levels of amide-N and complex-N in carrot tissues cultured in solutions containing L-alanine alone or with NH_4Cl , over those of control tissues in distilled water and ammonium chloride respectively, tables (3 and 4), suggested the utilization of L-alanine in the formation of these fractions. Thus in absence of ammonia, it seems probable that one part of L-alanine absorbed was deaminated (1 and 2) and that a part of the ammonia produced was involved in amidation of glutamic acid (11, 12 & 19) originally present, or given by amination of α -ketoglutaric acid (7) using another part of the liberated ammonia, or given by transamination of second part of L-alanine with α -ketoglutaric acid (13). The α -ketoglutaric acid might be initially found in the tissues or metabolically formed through respiratory cycle. Similarly, the slight increase in asparagine-N in tissues cultured in L-alanine solutions alone, table (4), might be at the expense of a third part of alanine which has undergone deamination and the subsequent amidation of aspartic acid originally present, or produced by amination of its non-nitrogenous precursor (7), or by transamination of a fourth part of alanine with oxalacetic acid initially found or metabolically produced. The existence of enzyme system responsible for the coupling of ammonia and aspartic acid was shown by Webster & Varner (22) in lupine and wheat germ tissues. The pyruvic acid produced through deamination or transamination of alanine might have furnished a substrate for respiration or might be involved in other metabolic reactions.

The results of the present investigation indicated that ammonia was removed as fast as it was released from alanine deamination since the tissues did not show any significant change in the levels of ammonium nitrogen. Moreover, the tissues cultured in L-alanine solutions, table (4), showed greater increase in the complex-N, mainly protein, than in the amides. This might indicate the incorporation of L-alanine in protein formation. The incorporation of L-alanine- $1-\text{C}^{14}$ into the proteins of plant tissue homogenates was proved by Webster (21). Also, Miettinen (15) showed that L-alanine was effectively utilized for the synthesis of protein by pea plants.

TABLE 3

Effect of culturing carrot root disks in solutions of 0.005 M L- or D-alanine alone in combination with ammonium chloride.
The figures are in mg. N (means of duplicate samples) per 100 g. fresh weight tissue

Nitrogen fractions	Controls*		Changes in N fractions during 24 hours			
	H ₂ O	NH ₄ Cl ^{XX}	H ₂ O ^{XX}		NH ₄ Cl ^X	
			L-alanine	D-alanine	L-alanine	D-alanine
Ammonium-N	0.00	+14.70	+ 0.71	+ 0.72	+ 6.93	+ 5.85
Glutamine-N	8.12	+ 7.64	+10.31	+ 2.71	+ 6.90	- 1.34
Asparagine-N	2.54	+ 1.76	- 0.41	- 1.10	+ 0.60	+ 8.02
Amino acid-N	5.49	+ 5.39	+22.47	+43.55	+21.01	+36.89
Rest-N	23.11	+20.29	+13.52	- 2.10	- 1.63	-17.83
Protein-N	70.51	+ 4.34	+ 8.23	+ 0.84	+ 5.03	- 3.54

* Control tissues are cultured in distilled water or 0.005 MNH₄Cl.

X Compared with control in NH₄Cl.

XX Compared with control in water.

TABLE 4
Effect of culturing carrot root discs in solutions of L-alanine alone or in combination with ammonium chloride. The figures are given in mg.—N (means of duplicate samples) per 100 g. fresh weight of tissue.

Mitrogen fractions	Controls*		Changes in N fractions during 24 hours							
	H ₂ O	NH ₄ Cl ^{XX}	H ₂ O ^{XX}				NH ₄ Cl ^X			
			0.0025 M L-alanine	0.005 M L-alanine	0.01 M L-alanine	0.0025 M L-alanine	0.005 M L-alanine	0.01 M L-alanine		
Ammonia-N	0.37	+ 8.67	+ 0.01	+ 0.01	+ 0.39	+ 7.44	+ 7.10	+ 7.10	+ 7.10	
Glutamine-N	2.26	+ 9.78	+11.30	+11.02	+17.97	+ 6.46	+ 5.32	+ 5.32	+ 5.34	
Asparagine-N	1.46	+ 4.06	+ 3.47	+ 3.58	+ 8.18	+ 0.32	+ 0.16	+ 0.16	+ 0.92	
Amino acid-N	7.03	+ 2.47	+10.45	+11.60	+11.20	+ 8.19	+10.14	+10.14	+10.24	
Rest-N	5.63	+ 2.83	+ 3.35	+ 4.24	- 4.08	- 3.70	- 1.57	- 1.57	- 2.37	
Protein-N	63.04	+15.66	+23.50	+24.00	+20.82	+14.16	+14.52	+14.52	+13.00	

* Control tissues are cultured in distilled water and in 0.00M NH₄Cl.
 X Compared with control in NH₄Cl.
 XX Compared with control in water.

On the other hand, carrot root disks cultured in D — alanine, table (3), showed a smaller increase in amide — N X 2. This increase might be at the expense of complex — N which showed a more or less equal decrease. Addition of D — alanine to ammonium chloride caused a marked decrease in the glutamine - and complex — N fractions probably due to the inhibiting effect of this isomer on ammonium — N absorption and assimilation. But addition of L — alanine to ammonium chloride, although inhibited ammonium — N absorption and assimilation, yet it caused considerable increases in the organic — N fractions, reasonably, at the expense of the utilizable L — alanine.

SUMMARY

The uptake and utilization of the different stereoisomers of alanine by carrot root disks were studied.

1. L — alanine was absorbed at a faster rate than D — enantiomorph.
2. Carrot root disks showed a marked ability to utilize L — alanine, but the D — isomer absorbed accumulated as such in the cells.
3. L — and D — alanine depressed the rate of ammonium uptake and assimilation; the depression caused by the D — form was more greater than that of the L — form. With both isomers, the depression on ammonium assimilation was more pronounced than on absorption.
4. L — alanine caused a greater increase in the protein than in amides, forming liberally glutamine; asparagine was formed, however, at a lower rate. On the contrary, D — alanine inhibited glutamine and complex — N synthesis.

ACKNOWLEDGEMENT

The author wishes to thank Professor I.A. Nada for revising the manuscript.

BIBLIOGRAPHY

1. Berger, J. and Avery, G.S., Jr. Glutamic and isocitric dehydrogenases in the Avena coleoptile and the effect of auxins on these enzymes. *Amer. J. Bot.* 31 : 11 - 19, 1944.
2. Birt, L.M. and Hird, J.R. The uptake and metabolism of amino acids by slices of carrot. *Biochem. J.* 70 : 277 - 286, 1958.
3. Birt, L.M. and Hord, J.R. Kinetic aspects of the uptake of amino acids by carrot tissue. *Biochem. J.* 70 : 286 - 292, 1958.

4. El-Shishiny, E.D.H. Absorption and assimilation of inorganic nitrogen from different sources by storage root tissues. *J. Exp. Bot.* 6-16, 1955.
 5. El-Shishiny, E.D.H. and Nosseir, M.A. The relation of optical form of the utilization of amino acids. I. Utilization of stereoisomeric forms of glutamic acid by carrot root disks. *Plant Physiol.*, 32 : 360 - 364, 1957.
 6. The relation of optical form to the utilization of amino acids. II. Utilization of stereoisomeric varieties of aspartic acid and asparagine by carrot root disks. *Plant Physiol.*, 32 : 639 - 643, 1957.
 7. Studies on the effects of some dicarboxylic acids on the uptake and utilization of inorganic nitrogen. 1 : Effects of some dicarboxylic acids on the uptake and utilization of ammonium — N by carrot root disks. Submitted for publication in *J. Bot., U.A.R.*, 1961.
 8. Frank, E.M., Riker, A.J. and Dye, S.L. Comparison of growth by tobacco and sunflower tissue on synthetic media containing various sources of organic nitrogen. *Plant Physiol.*, 26 : 258 - 267, 1951.
 9. Ghosh, B. P. and Burris, R.H. Utilization of nitrogenous compounds by plants. *Soil Sci.*, 70 : 187 - 203, 1950.
 10. Harris, G.P. Amino acids as nitrogen sources for the growth of excised roots of red clover. *New Phytol.*, 58 : 330 - 344, 1959.
 11. Krebs, H.A. Metabolism of amino acids. IV. The synthesis of glutamine from glutamic acid and ammonia and the enzymic hydrolysis of glutamine in animal tissues. *Biochem. J.*, 29 : 1951 - 1969, 1935.
 12. Kretovich, V.L. and Yokovlevia, V.I. Biosynthesis of glutamic acid and glutamine in pea and wheat seedling. *Plant Physiol. U.S.S.R.*, 6 : 174 - 178, 1959.
 13. Leonard, M.J.K. and Burris, R.H. A survey of transaminases in plants. *J. Biol. Chem.*, 170 : 701 - 709, 1947.
 14. Macht, D.I. Growth of *Lupinus albus* seedlings in solutions of some amino acids. *Amer J. Bot.*, 21 : 72 - 76, 1934.
 15. Miettinen, J.K. Assimilation of amino acids in higher plants. *Symposia of the Soc. exp. Biol. No. XIII : Utilization of nitrogen and its compounds by plants.* p. 210 - 229, 1959.
 16. Nitsch, J.P. and Nitsch, C. Auxin-dependent growth of excised *Helianthus tuberosus* tissues. II. Organic nitrogen compounds. *Amer. J. Bot.*, 44 : 555 - 564, 1957.
-

17. Ricker, A.J. and Gutsche, Alice E. The growth of sunflower tissue in vitro on synthetic media with various organic and inorganic sources of nitrogen. *Amer. J. Bot.*, 35 : 227 - 238, 1948.
18. Virtanen, A.I. and Linkola, H. Organic nitrogen compounds as nitrogen nutrition for higher plants. *Nature*, 158 : 515, 1946.
19. Webster, G.C. Enzymic synthesis of glutamine in higher plants. *Plant Physiol.*, 28 : 724 - 727, 1953.
20. Incorporation of radioactive glutamic acid into the proteins of higher plants. *Plant Physiol.*, 29 : 382 - 385, 1954.
21. Incorporation of radioactive amino acids into the proteins of plant tissue homogenates. *Plant Physiol.*, 30 : 351 - 355, 1955.
22. Webster, G.C. and Varner, J.E. Asparate metabolism and asparagine synthesis in plant systems. *J. Biol. Chem.*, 215 : 91 - 99, 1955.